الفوز العظيم والخسران المبين

في القرآن الكريم

الـــكـــتـــاب: الفوز العظيم والخسران المبين في القرآن الكريم

تـــألـــيـــف: الشيخ عارف هنديجاني فرد

نـــشـــــر: جمعية القرآن الكريم للتوجيه والإرشاد - لبنان

الطبعة الأولى: ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الفوز العظيم والخسران المبين
في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

يقول سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.

اهدي هذا العمل المتواضع إلَى العاشقين المخلصين لله عزَّ وجل .

إلَى الأوفياء لنبيهم الثابتين على عهده وميثاقه ﷺ.

إلَى المطيعين له ﷺ في التمسك بالقرآن والعترة الطاهرة.

إلَى الموالين لفاطمة الزهراء وأولادها الأطهار المعصومين عليهم السلام .

إلَى المقتدين ببطلة كربلاء العقيلة زينب ابنة علي عليها السلام .

إلَى زوجتِي التِي وقفت معي في حلو الحياة ومرها وأفراحها وأتراحها.

إلَى أبنائي وقرَّة عينِي وريحانتي، وفلذة كبدي، وثمرة فؤادي .

إليكم جَميعًا أيها الأحبة، أهدي هذا الجهد المتواضع، راجيًا من الله تعالَى القبول، ومن النبِي وآله عليهم الصلاة والسلام الشفاعة لي ولكم للفوز بالآخرة، اَللّٰهُمَّ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الشيخ عارف هنديجاني فرد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

تمهيد البحث:

اعتاد علماء التفسير، والباحثون في علوم القرآن، على شرح المفاهيم القرآنية من خلال سياق الآيات وفقاً للاتجاه التجزيئي بفهم الآية من خلال آية أخرى في القرآن الكريم، وكان لهذا النمط من التفسير إيجابياته في تظهير المعاني القرآنية، ولكنه ليس هو الطريقة، أو المنهج الأمثل لاستيعاب معاني الآيات في إطار الرؤية الموضوعية. وقد رأينا في بحوثنا القرآنية السابقة، سواء في مبحث حوار الأديان في القرآن، أم في مبحث المترفون وصناعة الفساد، أنّ هناك طريقاً آخر لاستنطاق الآيات القرآنية، والتدبّر فيها على النحو الذي يؤدي بنا إلى فهم المواضيع القرآنية في إطار الرؤية الشاملة للموضوع القرآني المراد بحثه، على اعتبار أنّ الآيات ليست جزراً منفصلة عن بعضها البعض، وإنّما هي تقدّم رؤية شاملة لكل موضوع من خلال ترشيد الناس إلى الأسس والقواعد التي لا بدّ من الاحتكام إليها في بلورة الرؤية الإسلامية، أو الموقف الإسلامي اتجاه قضية من القضايا الإنسانية، أو الاجتماعية، أو السياسية، وفي كل مجالات الحياة.

ونحن في هذا البحث سنحاول قدر المستطاع أن نسلّط الضوء على موضوع من أهم المواضيع القرآنية، بل يمكن اعتباره تجلياً من التجلّيات القرآنية، وعنينا به موضوع الفوز العظيم والخسران المبين في القرآن الكريم، إذ هو موضوع يلحظ حقيقة التحوّل الإنساني في الدين والدنيا، ويحدّد ملامح لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في دينه ودنياه. ذلك أن موضوع الفوز ليس مجرّد رؤية أو نظرية يمكن أن يصيب بها الإنسان، أو يخطئ، وإنّما هو حقيقة ومفهوم قرآني يتعلّق به مصير الإنسان في الدنيا والآخرة..

ولهذا، فإنّ الكثيرين ممن تناولوا هذا الموضوع بالبحث والدراسة، غالباً ما كانوا يلحظونه في دائرة جزئية خاصة فيما يكون عليه الإنسان من حال ماديّة، أو معنوية في تقلّباته الدنيوية، وفي أحيان أخرى، نرى أنّ أغلب الباحثين في الشؤون القرآنية يتحدّثون عن الفوز والخسران في إطار رؤية عامة حول طريقة الإنسان وخياراته في فهم نعمة الدنيا وزينتها، ولكنهم كانوا يتجاهلون عن قصد، أو عن غير قصد معنى أن تكون هذه النعم محكومة للابتلاء، سواء في مجال الفرد، أم في مجال المجتمع والأمة، حيث إنّ اختبار الإنسان في هذه الدنيا بصنوف البلاء، هو الذي يحدّد مدى التزام الإنسان بالمبادئ والقيم التي من خلالها يمكن للإنسان أن يتوفّر على أسباب للفوز العظيم يأخذ بها الإنسان في طريق كدحه إلى الله تعالى.

إنّ هذا البحث يتناول موضوع الفوز والخسران في إطار رؤية قرآنية شاملة، نسعى من خلالها إلى تبيان معنى أن يتحوّل الإنسان في ضوء هذه الرؤية ليكون خاسراً أو فائزاً، لأنّ سياق الآيات القرآنية لا يلحظ الفوز والخسران فيما تعنيه تقلبات الإنسان المادية وحسب، بل يتجاوز ذلك إلى إظهار معنى الفوز العظيم والخسران المبين في حقيقة معناه، وذلك من حيث هي آيات قرآنية مبيِّنة لمعاني كثيرة في مجال الرؤية والاعتقاد والإيمان، ومدلّلة على أن الفوز العظيم فيما جاء من آيات لم يظهر على أنّه فوز في مكتسب، أو في تجارة رابحة، وإنّما ظهّره القرآن

على أنّه فوز عظيم فيما يؤدّي إليه من حياة في الدنيا والآخرة، ومثله الخسران المبين، فهو وإن كان قد لحظ في ما يخسره الإنسان من متاع وزينة في الدنيا، إلاّ أنّه أعطى رؤية شاملة لمفهوم الخسران على مستوى النفس الإنسانية، حيث بيَّنت الآيات المباركة أن الخسران المبين هو محقّق لا محالة لأولئك الذين لم يتواصوا بالحق والصبر دونما اعتبار لمتاع الدنيا وزينتها، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[1]، فالخسر في الآية، ناظر إلى أنّ انعدام الإيمان والعمل الصالح، وعدم التواصي بالحق والصبر، إنّما يكون نتيجة لوقوع الإنسان في الخسران المبين على مستوى نفسه وإيمانه وليس على مستوى متاع الدنيا وزخرفها، وهذا أمر من الأهميّة والوضوح بمكان، وهذا ما سنتحدّث عنه ببحث مستقلّ في خاتمة هذا الكتاب إن شاء الله.

إنّ الفوز والخسران، كما سنرى في بحوث لاحقة، لهما متعلقات كثيرة على مستوى الواقع الإنساني وتجلّيات التجربة الإنسانية في الحياة؛ ذلك أنّ هذه المفاهيم بما هي حقائق قرآنية تتجاوز المعطى الواقعي إلى الفوز والخسارة على مستوى النفس الإنسانية، كما هو مفاد سورة العصر، وهذا يقتضي منّا أن نبحث في هذه المفاهيم في الدائرة الإنسانية العامّة على مستوى الإيمان والعمل الصالح والحق والصبر، لأنّ ما يمكن تلمّسه من سياق الآيات القرآنية التي تتحدّث عن خسران النفس والأهل والخلود في جهنّم فيما لو كذّب الإنسان وتولّى، وكذلك الآيات التي تتحدّث عن الفوز والرضوان، إنّ هذا كلّه هو الذي يُخرج هذه المفاهيم من مجرّد كونها أخباراً لتكون حقائق مُعاشة في حياة الإنسان يتبصّر بها وفيها ليدرك أنّ الفوز والخسران هما نتيجة لما يكون عليه الإنسان من إيمان وعمل وسلوك وأخلاق، على اعتبار أن

(١) سورة العصر، الآيات: ١ ـ ٣.

السياق في كثير من الآيات يفيد هذا المعنى، ويؤكّد عليه، وخاصة لجهة ربط الفوز والخسران بما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في ذات نفسه من عقيدة وإيمان وولاء وانتماء إلى الله تعالى، فهو إن كان مطيعاً لله ورسوله كان له الفوز والرضوان، وأمّا إن كان مطيعاً للشيطان فله الخسران المبين في الدنيا والآخرة.

ولهذا، فإنّ ما نجهد له في هذا المبحث؛ هو أن نتعرّف إلى حقيقة هذه المفاهيم من خلال عرض شامل للرؤية القرآنية، دون إغفال لما كان عليه المشركون وأهل النفاق من بلاء في الدنيا من حيث ما كانوا عليه من عصيان وكفر وفسوق في الوقت الذي كانوا فيه على نعم ماديّة لا تعدّ ولا تحصى، بل هم في كثير من الأحيان، كانوا يعتبرون أنفسهم على فوز عظيم، وقد ردّ الله تعالى عليهم مزاعمهم، نافياً أن يكونوا على فوز عظيم فيما كانوا عليه من رؤية واعتقاد، أو في متاع دنيوي وزينة في مظاهر الحياة، وفي هذا السياق يمكن لنا أن نفهم معنى أن يخاطب العصاة والكفّار وأهل زينة الدنيا بما يُفيد خسرانهم في الدنيا والآخرة معاً، كما قال الله تعالى في شأن أولئك الذين أرادوا الحياة الدنيا وظنّوا أن قارون هو على فوز عظيم، فقالوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾[1]. مقابل الذين أوتوا العلم، حيث قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[2]. وكانت النتيجة الخسران المبين لقارون، كما قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾[3].

إنّنا نمهّد في مبحثنا هذا، لدراسة الفوز والخسران في القرآن، حيث تمَّ تقسيم مباحث هذه الرواية إلى أربعة فصول ينطوي كل فصل فيها على مباحث في الفوز

(١) سورة القصص، الآية: ٧٩.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٠.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨١.

والخسران، مع خاتمة تتضمّن خلاصة وأهمّ ما يمكن الوقوف عنده في مباحث الفوز والخسران، وهذا يقتضي منّا أن نعرّف بكل فصل من هذه الفصول فنقول:

إنّ الفصل الأول: يتضمن مباحث في الفوز العظيم من القرآن مع ملاحظة كامل سياقات الآيات القرآنية، وذلك بهدف تبيان حقيقة أن الفوز العظيم لا يكون إلاّ من خلال الرؤية الإيمانية الصادقة، التي من خلالها يستطيع الإنسان استيعاب واقع الحياة بكل ما تزخر به هذه الحياة من زينة وزخرف ومتاع، لأن الفوز العظيم فيما جاءت به الآيات، سواء من خلال القصص القرآني، أم من خلال آيات العبادات والمعاملات، يركّز فيه على الطاعة للّه تعالى ورسوله فيما جاء به الرسول من عند ربّه، باعتبار أن الفوز ليس مجرّد فوز دنيوي، وإنّما له متعلقات إيمانية ورسالية لا بدّ أن تتوفر للإنسان في حركته الاجتماعية والسياسية وفي كل ميادين الحياة.

كما وبهذا اللحاظ أيضاً أتينا على ذكر ما هو عليه الإنسان من نعم مَنَّ اللّه تعالى بها عليه، فإذا لم يتوفر على معنى الإيمان والعمل الصالح، فإنّه لا يلبث أن يسقط في الخسران المبين، لكون التمتع في الحياة، وزيادة المكاسب المادية ليست سبيلاً للفوز في الآخرة فيما لو كانت متجرّدة عن المعنى الديني والإيماني، وهذا ما أردنا التوقف عنده في الفصل الأول بكل ما ينطوي عليه من عناوين، ثم التمييز من خلال السياق القرآني بين أن يكون الفوز مبيناً، أو عظيماً، أو كبيراً بلحاظ كون الآيات تخرج الفوز عن كونه مجرّد فوز دنيوي ليكون فوزاً في الدنيا والآخرة، ذلك أنّ المؤمن الذي توافر على متاع الحياة بحقّ، هو الذي استطاع أن يحدث لنفسه التحوّل المطلوب في إطار ما أمر به ونُهي عنه، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[1]، وهو سعي كما تعلم إنما كان في الدنيا وتحول معه الإنسان ليكون متوفراً على الشكر الذي

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٩.

يتواصل معه من الدنيا إلى الآخرة، خلافاً لذلك الإنسان الذي أراد العاجلة، وكان مصيره جهنّم يصلاها مذموماً مدحوراً، كما قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾[1].

أما الفصل الثاني: فقد بحثنا فيه جملة من متعلقات الخسران المبين في الدنيا والآخرة، حيث رأينا أن الخسران المبين إنّما يكون لذلك الإنسان الذي اختار الدنيا ومتاعها على الآخرة ونعيمها، ظنّاً منه أن الفوز المادي، والتوفر على مقتنيات الحياة المادية، هو الذي يجعله فائزاً في الدنيا والآخرة، في حين أنّه لا ربح ولا فوز حقيقي في سياق الرؤية المادية للحياة. كما قال الإمام علي عليه السلام: «معاشر الناس، اتقوا الله، فكم من مؤمل لا يبلغه، وبان لا يسكنه، وجامع ما سوف يتركه، ولعلّه من باطل جمعه، ومن حق منعه، أصابه حراماً، واحتمل به آثاماً، فباء بوزره، وقدم على ربه، آسفاً لاهفاً، قد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين»[2].

أما المبحثان الثالث والرابع: فقد عرضنا فيهما لجوانب من تحققات الفوز والخسران في الدنيا والآخرة؛ إضافة إلى ما يمكن أن تفيده تجارب الإنسان في سياق السعي للفوز في الدنيا، إذ رأينا كيف أن الكثيرين ممن اختاروا الدنيا على الآخرة، قد أدركوا الخسران فيما زعموه لأنفسهم من مكاسب في الدين والسياسة، وفي الحياة المادية أيضاً.

إنّ الفوز والخسران هما من المباحث الهامة في القرآن الكريم وقد تمّ التفصيل فيهما على النحو الذي يربط بين مباحث هذه الدراسة لاستخلاص النتائج المرجوّة منها. وخاصة في مجال الرؤية القرآنية الحاكمة، لأن القرآن فيما أرشد إليه من فوز وخسران أوضح السبل الكفيلة بإخراج الإنسان من أوهامه وخيالاته، ليكون على منهاج واضح فيما يختاره لنفسه، بحيث يتمكن من الفوز في الدنيا والآخرة معاً،

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٨.

(٢) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣٤٤.

باعتبار أن الدنيا هي قنطرة الآخرة. هذا فضلاً عن كونها متجر للإنسان كيما يعبر بها إلى الفوز والخلود دونما أن تكون له الخسارة المادية، التي اعتبر البعض من المترفين والعصاة والكافرين أن الفقر وعدم التوفر على المال والزينة هو دليل على الخسران في الدنيا والآخرة، وقد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام أنه ليس من ضرورة الفوز وقيمته أن يكون الإنسان على زهد في الدنيا لدرجة التنكّر لكل زينة ومتاع فيها[1]، إذ كيف يكون الأمر كذلك، وقد بيّن الله تعالى أنّ هذه الزينة إنّما جعلت للمؤمنين في الدنيا، آخذاً على أولئك الذين تنكّروا لها، حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2].

مسوّغات البحث

تعارف أهل العلم على أن كل بحث علمي لا بدّ أن تكون له أسباب ودوافع ومسوّغات تدفع إلى القيام به، إما لإضافة شيء جديد، وإمّا لسدّ نقص في دراسات الباحثين. وبما أن موضوع الفوز والخسران في القرآن، قد تعرّض له بالبحث والدراسة كثير من المفسرين والباحثين في علوم القرآن، فإنّ هذا ما يضاعف الحاجة إلى التوسع في مجال هذا البحث للإحاطة بما لم يحط به الآخرون، وإلاّ كان البحث تكراراً لبحوث أخرى، وهذا من شأنه، إذا ما حصل أن يفقد البحث مسوّغه، فلا تكون ثمّة حاجة إليه. وعليه، فإنّ مقتضى الموضوعية والعلمية أن يتوفر بحثنا على مزيد من الحقائق، بحيث تكون له رؤية جديدة تدفع إليه، وغاية تسوّغه لجهة ما يراد بحثه،

(١) قال الإمام علي عليه السلام: «واعلموا عباد الله إنّ المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، فحظوا في الدنيا بما حظي به المترفون... ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلِّغ، والمتجر الرابح...»، نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

أو التوسّع في ميدانه، وخاصة في مجال علوم القرآن، التي لا يمكن لأحد أن يدّعي أنه استوفى البحث الكامل فيها.

إنّ القرآن هو كتاب الله تعالى، الذي لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ونحن إنّما نبحث في موضوع الفوز والخسران بغاية تقديم رؤية جديدة في ضوء تجارب الإنسان بعيداً عن الاستغراق في الجانب التجزيئي للتفسير، وهذا ما نرى أنّ أكثر الباحثين قد أغفلوه في بحوثهم القرآنية، ولدينا دراسات كثيرة سابقة على هذا الموضوع، وكانت لها تسويغات ودوافع، وربما قدمت رؤى وحقائق جديدة نترك للباحثين التقييم لها والحكم عليها...

وفي هذا المبحث نرى أنه موضوع له ما يسوّغه، إذ هناك ما يدفع ويُعطي أسباباً كافية للقيام به على نحو ما بيّنّا في تقديمنا لهذا المبحث، وقد رأينا أن من هذه الدوافع إقدام الباحثين على دراسة موضوع الفوز والخسران في سياق رؤية حياتية تتعلق بسعادة الإنسان في الدنيا، رغم أنّ سياق آيات الفوز والخسران لا يلحظ الفوز العظيم، أو الخسران المبين في سياق منفصل عن الطاعة لله تعالى ورسوله ﷺ، إضافة إلى ارتباط هذا الموضوع بحقيقة التولّي والتبرّي، حيث نجد القرآن يقدّم الاعتقاد والإيمان كأساس لسعادة الإنسان، وتأتي النعم الإلهية في الدرجة الثانية محفوفة بأنواع من البلاء والامتحان، هذا فضلاً عمّا يراه القرآن ويعرض له في جانب التجربة البشرية للإنسان، إذ هو لم يقل - أي القرآن - ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾[1]، أو ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2]، من خارج التجربة، بل كان الأمر الإلهي والإلتزام به والطاعة له هو تحقق الفوز والبلاء، تماماً كما كانت معصية إبليس في التجربة سبباً في خسرانه وخروجه عن أمر ربه. وكما قال بعض العارفين: «**يا معشر المغترّين بالعِصَم، إنّ تحتّها أنواع النقم، زيّن الله إبليس بأنواع عصمته،**

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٦٠.

وهو عنده في حقائق لعنته، وزيّن بلعام بأنواع ولايته، وهو في حقائق عداوته»[1].

ومن هنا، فقد رأينا أن النعم والابتلاءات المختلفة بالفقر والغنى والصحة والمرض، ليست من متعلقات الفوز والخسران بالشكل الذي يجعل منها أساسيات لهما، فهذا كلّه شيء ثانوي في سياق الرؤية القرآنية، ويكفينا في هذا المبحث أن نعرض لقراءة جديدة يرى لها البحث العلمي مسوّغاً، طالما أن العلماء يرون أن البحث لا بدّ أن تكون له غاية، وهذه الغاية لا تخرج عن واحدة من الغايات الآتية: إمّا اختراع معدوم، أو جمع متفرق، أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطوّل، أو ترتيب مختلط، أو تعيين مبهم، أو تبيين خطأ[2]. ولا نشكّ إطلاقاً في أنّ الباحثين يمكنهم أن يجدوا لنا مسوّغاً في بحثنا هذا في غاية من هذه الغايات. ونحن نزعم لأنفسنا أن مسوّغاً أساسياً يقف خلف هذا المبحث هو ترتيب مختلط، لأن المفسرين للقرآن لم يتركوا مبهماً، ولم يخترعوا معدوماً.. فإذا ما استطعنا أن نقوم بهذه الغاية، فإننا نكون قد استوفينا بعض ما نراه ضرورياً في تهذيب وترتيب هذا الموضوع، على النحو الذي يقدّمه برؤية جديدة، ويخرجه بجملة مفيدة...

إشكالية البحث:

لا شكّ في أن مبحثنا هذا ينطوي على إشكالية تتجلّى في كثير من الأسئلة التي يمكن أن تُثار في سياق البحث عن الفوز والخسران في القرآن. ولعلّنا لا نخطئ القول في أن هذا المبحث هو من أكثر المباحث إثارة، لكونه يرتبط بمصير الإنسان، وقبل ذلك بطرق عيشه، وتبدّل أحواله، وإذا كان القرآن قد أكثر من استعمال الدنيا والآخرة، فذلك إنّما كان بهدف أن يتبصّر الإنسان بما يؤدّي به إلى السعادة والفوز

(١) الغزالي، أبو حامد، منهاج العابدين إلى جنّة ربّ العالمين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢، ١٩٩٧، ص٤٠٣.

(٢) جمال الدين القاسم، قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث، بيروت، دار الكتب العلمية، دون تاريخ، ص١٨.

بها في الدنيا والآخرة. ولهذا، فإنّ أكثر الأسئلة تواردا في هذا المبحث، هي الأسئلة الآتية:

- هل معنى الخسران في الآخرة أن يفوز الإنسان في الدنيا بما أعدّه الله تعالى له من نعمة وزينة؟
- ما هي الأسس، أو القواعد التي يرتكز عليها الإنسان في تعريف وتحديد كل من الفوز والخسران، سواء في الدنيا أم في الآخرة؟
- وهل الإشكالية في بحثنا هذا تكمن في أن الدنيا والآخرة لا تلتقيان، أو ضرّتان، فمن أراد الدنيا خسر الآخرة، ومن أراد الآخرة خسر الدنيا؟ أم أنّ الإشكالية كامنة في ذات الإنسان وما يكون عليه من مبادئ وأهداف تجعله مضطرباً في تحديد خياراته، وفي التبصّر بمآلاته وتحولاته، لكون الإنسان هو أكثر شيء جدلاً، إذ غالباً ما تدفع به تحوّلات الحياة وزينة الدنيا إلى أن يكون أكثر الأشياء اضطراباً في حركته الإنسانية في سبيل الحياة؟!

إنّ الإشكالية، كما نرى، كامنة في أنّ الإنسان يريد أن يكون فائزاً، سواء في الدنيا، أم في الآخرة، ولكنه، ونتيجة لاضطراب حالاته النفسية والعقلية تلتبس عليه الأمور والأحوال، ويخرج في طلب الدنيا ظنّاً منه أنها الغاية فيما ينشده من مال ومتاع، وأن الموت هو منتهى الآمال والأحلام، وقد قال المنكرون للبعث: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[1]. وقالوا أيضاً: لو شاء الله تعالى أن لا نكون على ما نحن عليه من المال والثروة والترف، لما كنا على كثير من ذلك. ولو شاء الله أن لا نعبد إلاّ هو لما عبدنا غيره! وبما أننا على كل شيء من ذلك، فذاك دليل على أن الله تعالى شاء لنا أن نكون على ما نحن عليه، وهذا هو منتهى الفوز بنظرهم، طالما أن الله تعالى لم يبدّلهم عمّا هم عليه من مال وولد، بل وصل بهم

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣٧.

الأمر إلى أن يتعصبوا لآثار مواقع النعم، كما قال الإمام علي عليه السلام: فقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾، هذا فضلاً عمّا اعتقدوه من رسوخ في حالات ترفهم ونموّهم، بعدما عفوا وقالوا أنه قد مسّ آباءهم الضرّاء والسرّاء من قبل، ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك بعد أن بدّلهم الله الحسنة مكان السيئة ليعتبروا، فأخطأوا الهدف والتبس عليهم الأمر فظنّوا أنّ ما هم عليه من النعمة، هو الفوز والرضا، فآل أمرهم إلى العذاب، وكانوا على خسران مبين فيما لحق بهم من الأخذ بما عصوا وكانوا يعتدون.

إذن، الإشكالية في هذا المبحث، ليست في أن الدنيا والآخرة لا تلتقيان، أو أنهما على طرفي نقيض، وإنّما هي في ما ينطوي عليه الإنسان في ذات نفسه من تناقضات وحالات نفسية وعقلية واعية وغير واعية، إذ هو في الوقت الذي يعتقد فيه أنه فائز يكون خاسراً، وذلك إنّما يكون له بسبب تناقض أحواله، وتسافل اعتقاده، فيما يراه أنه الحق، فيضطرب حاله، وتغلبه شهواته، فيؤول أمره إلى الخسران المبين، مثله كمثل الإنسان المريض الذي يعتقد واهماً أن علاجه إنّما يكون فيما يختاره من دواء لنفسه، وليس فيما يختاره الطبيب له، فيقدم على تشخيص حالاته وأمراضه وفق رؤيته، ويعمى عمّن ينبغي أن يلجأ إليه في تشخيص حاله بحسب ما يقتضيه مرضه الحقيقي. وقد مَنَّ الله تعالى على الأمم والشعوب بالأنبياء بهدف تطبيب الناس وهدايتهم إلى الحق والخير والصواب، بحيث لا يلتبس عليهم الأمر، ويختاروا ما هو النافع لهم في الدنيا والآخرة، ولكنهم في كثير من حالاتهم وأحوالهم كانوا يصرّون على اختيار ما يلائم أهوائهم، ظنّاً منهم أنهم على حق وصواب في وسائلهم وأهدافهم، ولعلّ ما أرشد إليه القرآن هو خير دليل على عنادهم وكفرهم وسوء حالهم، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْئَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[1].

(١) سورة الرعد، الآية: ٣١.

إنّ إشكالية هذا المبحث تكمن، كما أسلفنا أولاً وآخراً، فيما يرتكز إليه الإنسان من اعتقادات ومبادئ، وليست في الخارج عنه فيما يكون عليه من مال وجاه ودنيا، وقد جاء الأنبياء لإثارة دفائن العقول كي ما يلتفت الناس إلى حقيقة ما هو عليه فيختاروا الحق على الباطل، والخير على الشر، والهدى على الضلال، والآخرة على الدنيا، لا على نحو رفض الدنيا وتحقيرها، وإنّما على نحو الاعتبار بها، واتخاذها معبراً إلى الغاية الحقيقية، كما قال الإمام علي عليه السلام: «**مَن أبصر بها بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته**»، وبين بها وإليها فرق كبير، وسرّ عظيم، إذ إنّ البصر بالدنيا يجعل منها وسيلة إلى غاية سامية، بينما البصر إليها يجعل منها غاية، وهذا ما يدفع بالإنسان إلى الركون إليها والتفاعل معها على أنّها جنّة الخلد فيما قد يتوهّمه الإنسان من حق وخير لنفسه في صيرورة تحولاته المادية، وتبدّلاته في نعم الدنيا وزينتها...

إنّ الدنيا جُعلت، كما أرادها الله تعالى، مزرعة للآخرة، وقنطرة يطلّ الإنسان من خلالها على أفق الخلود، بل هي، كما يرى الأنبياء والأولياء، متجر أولياء الله تعالى، وقد قال الإمام علي: أنّ أهل الآخرة ليسوا على عداء مع نعم الله تعالى، أو مع ما جعلت عليه الأرض من زينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]، وهذا دليل على أن الدنيا ليست نقيضاً للآخرة، إذ كيف تكون كذلك، وقد اختارها الله تعالى دار عبور لأوليائه إلى جنّات الخلد؟

لقد أراد الله تعالى لهذه الدنيا أن تكون مختبراً يمتحن فيه الإنسان ويمحّص فيها لتكون له السلامة في الدنيا والآخرة، فإذا ما عقل الإنسان عن الله تعالى واهتدى إلى أمره ونهيه، فإنّه يسلك سبيل الدنيا إلى الآخرة آمناً مطمئنّاً، لأنّ الإنسان في جميع حالاته، وفيما يكون عليه من نعم وابتلاء، هو الإنسان ذاته دون تمييز بين

(١) سورة الكهف، الآية: ٧.

إنسان وآخر، باعتبار أن الله تعالى، كما قال الشيرازي في تفسير الأمثل، «**قد وضع جزءً من نعمه في خدمة الجميع، يستفيد منها المحسنون والمسيئون، وهذه النعم غالباً ما تكون من النوع الذي يتوقف استمرار الحياة عليه، وبتعبير آخر، إنّ هذه النعم هي تعبير عن مقام الرحمانية الإلهية التي تشمل فيوضاتها جميع الناس المؤمن والكافر، ولكن هناك نعم لا تحصى وراء ذلك تختص بالمؤمنين والمحسنين دون غيرهم**»(١).

إنّ الدنيا التي ذمّها الأولياء والأنبياء، هي دنيا المعصية والفسق والكفر والشرك، دنيا الأوثان والأصنام. أما دنيا العقل والطاعة والإيمان، فهي الدنيا التي جُعلت ممراً لدار القرار، دار الحيوان، ولو لم يكن الأمر كذلك، لما قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾(٢) ومن هنا يتبيّن لنا ضرورة أن نبحث معنى الفوز والخسران في القرآن، بحيث يتظهّر لنا حقيقة أن الفوز والخسران إنّما يكونا في الدنيا والآخرة معاً، وليس كما ذهب البعض إلى القول بأن الفوز في الدنيا يعقبه الخسران في الآخرة أو العكس، باعتبار أن الفوز في الآخرة لم يتأتَّ لأحد من خارج الدنيا، بل هو في الدنيا قبل الآخرة، وكذلك الخاسر في الآخرة فهو لم يتأتَّ له ذلك الخسران من خارج الدنيا حتى ولو كان يعتقد أنه قد فاز بمالها ومتاعها وبعض آثار ومواقع النعم فيها، فهو خاسر في الحالين معاً لكونه اعتقد واهماً أن الدنيا إنّما كانت له دار مقرّ، وهي ليست كذلك، فخسر الدنيا والآخرة معاً، لقول الإمام علي عليه السلام: «**ما خير بخير بعده النار، وما شرّ بشرّ بعده الجنة، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية**»(٣).

---

(١) الشيرازي، مكارم، سؤال وجواب، ملخّصات من تفسير الأمثل، دار الكتب الإسلامية، ١٤٢٩هـ، ط٢، ص٣٤٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٧.

(٣) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، قصارة الحكم: ٣٨٧.

منهج البحث:

لقد أشرنا في بحوثنا السابقة، إلى مسلّمة أساسية، وهي أن لكل بحث من البحوث، سواء في العلوم النظرية، أم في العلوم التطبيقية، منهجه الخاص، الذي يستند إليه الباحث في الكشف عمّا يريده من حقائق، وهذا المنهج، كما عرفه العلماء، هو الطريقة، أو البرنامج الذي يحدد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة، وكما أفاد أهل اللغة أنّ المنهج هو الطريق الواضح، فيقال: نهجت الطريق، أي أبنته وأوضحته وسلكته، وفي حديث العباس: أن رسول الله ﷺ لم يمت حتى تركّكم على طريق ناهجة، أي واضحة بيّنة...[1].

وقد جاء في القاموس المحيط، قال: نهج الطريق أي سلكه، واستنهج الطريق أي صار نهجاً، كأنهج ونهج فلان سبيل فلان، أي سلك مسلكه...[2].

إذن، لكل علم من العلوم منهج يعتمده بهدف الكشف عن الحقيقة التي يبحث عنها، وكما يقول العيسوي في مناهج البحث[3]، والفضلي في منهجه[4]، أن المنهج هو الطريق المؤدّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم. لذا، فإنّه من الممكن أن نفهم هذا اللفظ بمعناه العام بحيث ندخل تحته كل طريقة تؤدّي إلى غرض معلوم نريد تحصيله. وهناك مناهج مختلفة باختلاف مواضيع البحث، وكل باحث يختار المسلك الخاص بطبيعة بحثه، فقد يكون البحث في مجال التعليم، أو في مجال التربية، ولكل مجال من هذه المجالات ركائز ودعائم تشكّل أساساً لانطلاقة كل

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (لا.ت)، ص٤٥٥٤.

(٢) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٢٦٦.

(٣) انظر: د. عبد الرحمن العيسوي، مناهج البحث العلمي، دار الراتب الجامعية، ١٩٣٧م، ص٧٣.

(٤) الفضلي، عبد الهادي، أصول البحث، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، ط١، دار المؤرخ العربي، ١٩٩٢م، ص٥٠، يقول: المنهج هو خطوات منظمة يتخذها الباحث لمعالجة مسألة أو أكثر ويتبعها للوصول إلى نتيجة.

بحث علمي، وكما يقول بدوي: «**إنّ للدراسات على اختلافها مناهج، باعتبار أن منهج التعليم يختلف عن منهج القراءة، ويمكن لنا تمييز نمطين من المنهج في الطب: المنهج الوقائي من الجراثيم، والمنهج العلاجي، ولكل منهج من هذه المناهج طريقه وسبيله**»[1].

وما نحن فيه من بحث قرآني، كعادتنا، فيما سبق من بحوث، نرى أن المنهج القويم لاستكشاف العلوم القرآنية هو الاستناد إلى قواعد عامّة في علم التفسير، إضافة إلى سلوك سبيل بيّن واضح في جمع المواضيع القرآنية من خلال جمع الآيات وترتيبها على أساس موضوع ما، وهذا الجمع لا بدّ أن يكون أولياً، وذلك لاستحالة الإحاطة بكتاب الله تعالى من كل جهاته. والحقّ يقال: لو أنّ أحداً من الباحثين استطاع أن يحقّق هذه الإحاطة في منهج ما، لما كان لنا اليوم، أو لغيرنا غداً، أن يقوم بأي بحث في العلوم القرآنية: إنّه كتاب الله تعالى الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2].

وهكذا، فإنّ المنهج الموضوعي، والذي سمّاه الشهيد الصدر بالاتجاه الموضوعي الذي يتجاوز الاتجاه التجزيئي بخطوة[3]، هذا المنهج هو الذي سنعتمده في بحثنا هذا من خلال جمع الآيات في موضوع ما، ومن ثمّ الإحاطة قدر الإمكان بقواعد المنهج بهدف الوصول إلى الهدف المنشود في موضوع بحثنا، وحتى لا يلتبس الأمر على ما نريد بحثه لا بدّ من التمييز بين التفسير ـ أو الاتجاه الموضوعي ـ وبين ما نسمّيه المنهج، إذ لا يقال المنهج الموضوعي، باعتبار أن المنهج في ما يعنيه لغة واصطلاحاً هو يستبطن هذه الموضوعية من حيث هو سبيل إلى اكتشاف رؤية، أو تأكيد حقيقة. وفي هذا البحث، سنحاول جاهدين التركيز على موضوع بحثنا

(١) عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث الإسلامي، الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٧، ص٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٣) الصدر، محمد باقر، التفسير الموضوعي، الدار العالمية، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ص٣٠.

باعتماد السبيل الواضح لتبيان بعض اللطائف في موضوع الفوز العظيم والخسران المبين في القرآن، وهذا يستدعي أن يكون الباحث متوفراً على جملة القواعد والركائز التي تساعده على سلوك هذا المسلك للوصول إلى الغاية المرجوّة...

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أن طريقة بحثنا، تتطلّب منّا اعتماد المنهج المقارن، بحيث نأخذ الآيات إلى جانب بعضها البعض على النحو الذي يسمح لنا بالتميّز بين ما تعنيه الآيات فيما جاءت به من سياق، وبين الرؤية العامة التي يمكن الخلوص إليها في مبحث الفوز في القرآن، أو في مبحث الخسران في القرآن، إذ ما قد يكون ملحوظاً في سورة، أو في آية، قد لا يكون ملحوظاً في سورة أخرى. ومن هنا تبدو لنا ضرورة الجمع بين الأمرين والمقارنة بينها، على اعتبار أنّ أي نهج ينتهجه الباحث في موضوع ما لا يمكن أن يكون منهجاً مستقلاً، أو منعزلاً عن مناهج أخرى، تماماً كما في منهج الطبيب الذي لا يمكنه الفصل الكامل بين المنهج الوقائي والمنهج العلاجي للوصول إلى معالجة المريض، وقد يضطرّ الباحث إلى أن يأخذ بعدّة مناهج للإحاطة بموضوع بحثه. وهذا ما نبتغيه من بحثنا هذا، أي التوفّر على أكثر من منهج في بحثنا هذا.

وانطلاقاً من ذلك، فإنّ منهجنا وإن كنّا نسلك فيه مسلك الرؤية الموضوعية، أو ما يسمّيه الفقهاء بالتفسير الموضوعي، إلاّ أنّنا نحتاج مع ذلك إلى أن نستخدم أكثر من منهج في طريقنا إلى توضيح، أو تأكيد رؤية ما في مجال بحثنا، ولعلّ أهم المسالك والخطوات التي تحتاج إليها في هذا المبحث، إلى جانب الرؤية الموضوعية، أن نستقرئ ونحلّل ونقارن، هذا فضلاً عمّا يمكن أن نحتاج إليه من مسلك تاريخي، إذ هو منهج وطريق لا يمكن الاستغناء عنه في المباحث القرآنية، لكونه يعتمد على النصوص والوثائق والوقائع، بحيث يمكن للمؤرّخ الهادف من خلاله، وخاصة في مجال القصص القرآني وما ينطوي عليه من أحداث وسنن، استكشاف بعض الملامح، بل الحقائق التي تعين المفسّر وكل باحث في علوم القرآن على تحديد وجهة سيره في موضوع بحثه.

ومن هنا تتظهّر لنا حقيقة ما ذهب إليه بعض العلماء والباحثين بقولهم: إنّ العلم لا يكون علماً إلاّ بالمنهج الذي يستخدمه، فالعلم هو منهج قبل أن يكون موضوعاً، ومجموعة من المعارف، أو النظريات، وكما يقول زيدان عبد الباقي في قواعد البحث الاجتماعي[١]، وإبراهيم مطاوع[٢] وغيرهم من الباحثين: «**إنّنا لا نستطيع أن نتوصل إلى المعارف العلمية بدون استخدام منهج علمي يستطيع الباحث من خلاله جمع ما يحتاج إليه من قواعد عامة تساعده على نيل المطلوب، واكتشاف المرغوب**[٣].

غاية القول: إنّه إذا كان في العلوم الإنسانية يحتاج الباحث إلى التعرّف على أسباب حدوث الظاهرة، أو الأسباب التي تحيط بها، فإنّه من باب أولى أن يحتاج الباحث في العلوم القرآنية إلى الإحاطة بأكثر من منهج للتعرف إلى حقيقة ما ترمي إليه الآيات، سواء في الاتجاه التجزيئي، الذي يفسّر الآية بالآية، أم في الاتجاه الموضوعي، الذي يأخذ الآيات في سياق موضوعي واحد لاكتشاف نظرية قرآنية واستخلاص موقف إسلامي من قضيّة، أو حالة إنسانية أو اجتماعية، وهذا ما نروم بحثه في موضوع الفوز العظيم والخسران المبين في القرآن، نظراً لما ينطوي عليه الكتاب العزيز من مفردات في الفوز والخسران كلها تصبّ في مجال الدين والدنيا والآخرة، وهذا ما يقتضي منّا أن نتعرّف إلى حقيقة الموقف القرآني في مجال الفوز والخسران، باعتبار أنّ هذين المصطلحين ليسا مصطلحين مجرّدين، وإنّما لهما تحققات نفسية واجتماعية وحضاريّة. قد يكون ممكناً من خلال الاتجاه الموضوعي أن نستكشف بعض ملامح هذه التحققات، وبالله التوفيق.

---

(١) انظر: زيدان عبد الباقي، قواعد البحث الاجتماعي، ط٢، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٠، ص٩٥ ـ ٩٦.

(٢) انظر: إبراهيم عصمت مطاوع، أصول التربية، دار المعارف، ط٢، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٧٠ ـ ١٧٧.

(٣) انظر: محمد جلال شرف، ومحمد محمد قاسم، قراءات في فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (لا ـ ت) ص٣٠٤.

الفصل الأول

الفوز العظيم في القرآن الكريم

◊ تمهيد الفصل

◊ وهنا أمور ثلاثة:

أولاً: الفوز في اللغة

ثانياً: الفوز في الاصطلاح

ثالثاً: الفوز العظيم المفهوم والدلالة

تمهيد الفصل

إنّ أي باحث موضوعي لا يسعهُ إلاّ أن يتوقف عند السياقات القرآنية التي جاءت على ذكر الفوز العظيم، حيث يتبدّى بوضوح أن الفوز العظيم ليس مجرّد فوز في نعمة، أو في زينة، بل هو فوز وُصف بالعظيم، لكونه ينطوي على مدلولات ذات أهميّة عظيمة في مجالات الدين والدنيا، ويُراد للإنسان أن يتدبّر هذا المعنى، وهذه العظمة في صيرورة تحوّله في طريق الكدح إلى الله تعالى، وإنّ مما يدلّ على ضرورة التأمّل والتدبّر جيداً في مدلول هذا الوصف هو ما جاء فيه من سياق قرآني، حيث نرى أن العظيم هو من صفات الله تعالى، فيسبّح العبد ربّه فيقول سبحان ربّي العظيم، وقد قال النبي الأكرم ﷺ عظّموا الربّ، أي اجعلوه في أنفسكم ذا عظمة[1]، وهذه العظمة، كما بيّن العلماء لا تكيّف ولا تحدّ ولا تمثّل بشيء، ومع هذا فقد وصف عذاب النار، فقال الله تعالى: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ووصف كيد النساء، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ورجل عظيم، وفوز عظيم، ثم استعير، كما يقول الراغب لكل كبير[2]، فأجري مجراه محسوساً كان أو معقولاً، عيناً كان أو معنىً. وهكذا، فإنّ ما يدعونا القرآن إلى التدبّر فيه، هو ما خصّ به الفوز العظيم من معنى ومفهوم لتبيان معنى العظمة فيما ينطوي عليه هذا الفوز لجهة دلالاته ومتعلقاته في حياة الإنسان، وذلك من منطلق أن الفوز إنّما يكون فوزاً عظيماً فيما لو استوفى الإنسان كامل تحققاته في الدين والدنيا والآخرة.

(١) انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، دون تاريخ، ج٤، ص٣٠٠٤.
(٢) الراغب الأصفهاني، معجم ألفاظ القرآن، دار الفكر، بيروت، (لا.ت)، ص٣٥١.

ومن هنا، نرى أن سياق الآيات لا يأتي على الفوز العظيم إلاّ من خلال مقدمات ومفردات تعبّر عن الحق والعدل والطاعة لله تعالى ورسوله ﷺ، وهذا ما سنتوقّف عنده مليّاً في مطاوي هذا البحث، لإظهار حقيقة هذا الفوز والتدليل عليه بما يُفيده السياق، على اعتبار أنه لم يأتِ هذا الوصف في الآيات ليدلّل على معنى دنيوي، أو مادي، بل لحظ الحق والولاية والطاعة والتواصي بالحق والصبر، هذا فضلاً عمّا أتت الآيات المباركة على ذكره في إطار التدليل على الفوز العظيم في الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[1].

نعم، هناك حالات كثيرة نسب الإنسان فيها إلى نفسه الفوز العظيم، في مقابل ما خصّ الله به أهل الإيمان من فوز عظيم، ولكن معيار النسبة هنا يختلف باختلاف ما يكون عليه حال الإنسان من دين ودنيا، كما في قوله تعالى فيما نسبه الإنسان المنافق لنفسه، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[2].

فالإنسان في هذه الآية يرى الفوز العظيم فيما يكتسبه من مال ومتاع في الدنيا، في حين أنّ الفوز العظيم فيما أراده الله تعالى لا يكون إلاّ في تجلّي الحقّ والولاية والطاعة لله ورسوله ﷺ في الدنيا والخلود في الجنة لأهل الإيمان في الآخرة. هذا فضلاً عمّا سنعرض له في مباحث أخرى لجهة الإشارة إلى الفوز العظيم من خلال سياق الآيات التي تؤكد على أن الفوز العظيم إنّما يكون في حقيقة الإلتزام بما أمر الله به ونهى عنه، وليس فيما يظنه الإنسان لنفسه من غرور واستعلاء ومتاع دنيوي، وقد بيّنا في تمهيد هذا البحث أن الإنسان هو في خسارة دائمة إلاّ أن يكون على تواصٍ بالحق وبالصبر بكل ما يعنيه هذا الحق والصبر من مدلولات دينية وولائية،

(١) سورة الفتح، الآية: ٥.

(٢) سورة النسا، الآية: ٧٣.

كما هو مفاد ومضمون سورة العصر التي تؤكّد على ديمومة الخسران لأولئك الذين لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات حتى ولا كان لهم من الفوز الدنيوي ما تنوء به أولي العصبة، كما جاء في التعبير عن حال قارون. إن الإنسان قد يكون على كثير من النعم والابتلاءات، سواء في نفسه، أم في ماله، إلاّ أنّ مقياس الفوز العظيم يبقى فيما يريده الله تعالى للإنسان، وهذا ما التبس الأمر فيه على الطغاة والعصاة والمترفين في تاريخ البشرية، إذ كانوا دائماً يواجهون النبوّة من موقع ترفهم وعصيانهم واعتقادهم الباطل أنهم على زينة الدين والدنيا، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا على خسران مبين فيما زعموه لأنفسهم، فخسروا الدنيا والآخرة، وحقّ عليهم القول بأنهم قوم مجرمين.

إنّ محاولتنا في هذا المبحث تقتصر على ملاحظة الفوز العظيم في سياق الرؤية القرآنية، وما تزخر به تجارب الإنسان، على أن نعضد ذلك بالإشارة إلى حقيقة المدلول القرآني فيما يرشد إليه من معاني الفوز العظيم، الذي خصّ به الأنبياء والأولياء والصادقين من عباد الله تعالى. كما سنرى في بحوث هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وهنا أمور ثلاثة

أولاً: الفوز في اللغة:

قال ابن منظور: «**الفوز: النجاءُ والظفر بالأمنية والخير، فاز به فوزاً ومفازاً ومفازة، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾، إنّما أراد موجبات مفاوز، ولا يجوز أن يكون المفاز هنا اسم الموضع، لأنّ الحدائق والأعناب لسنّ مواضع، اللَّيثُ: الفوز الظفر بالخير والنجاة من الشَّرّ، يقال: فاز بالخير، وفاز من العذاب، وأفازه الله بكذا ففاز به، أي ذهب به، وفي التنزيل العزيز: «فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب».**

قال الفراء: معناه بعيد من العذاب، وقال أبو إسحاق بمنجاة من العذاب... وأصل المفازة مهلكة، فتفاءلوا بالسلامة والفوز، ويقال: فاز إذا لقي ما يُغبط، وتأويله التباعد من المكروه...»[1].

وعن الإمام علي عليه السلام فيما وصف به البيت الحرام، والكعبة المقدّسة، حيث قال عليه السلام: «**ألا ترون أن الله تعالى اختبر الأولين من لدن آدم عليه السلام إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً به، ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم... تهوي إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة...**»[2]، والمفاوز في كلام الإمام إنما تعني الفلاة التي لا ماء فيها، ما يدلّل على أن أصل المفازة مهلكة، وقد ذكر القرطبي أن مفازاً هي موضوع فوز ونجاة وخلاص مما فيه أهل النار، ولذلك قيل للفلاة إذا قلّ ماؤها

(١) ابن منظور، لسان العرب، م. س، ص٣٤٨٤، وقا: مع البيضاوي، عبد الله بن محمد الشيرازي الشافعي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (ت ٦٨٢هـ)، دار إحياء التراث، بيروت ١٩٩٨، ص٢٨١٠.

(٢) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

مفازة، تفاؤلاً بالخلاص منها...[١].

إذن، الفوز بحسب أهل اللغة، هو الظفر بالخير والنجاة من الشر، وقد أضاف الراغب الأصفهاني إلى معنى الفوز، بأنه الظفر بالخير مع حصول السلامة، كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، وقال بعضهم: سمّيت مفازة من قولهم فَوَز الرجل إذا هلك، فإن يكن فوز بمعنى هلك صحيحاً، فذلك راجع إلى الفوز تصوّراً لمن مات بأنه نجا من حبالة الدنيا، فالموت وإن كان من وجه هُلكاً، فمن وجه فوز، ولذلك قيل ما أحد إلاّ والموت خيرٌ له. هذا إذا اعتبر بحال الدنيا، فأما إذا اعتبر بحال الآخرة فيما يصل إليه من النعيم فهو الفوز الكبير، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾[٣]، فهي مصدر فاز والاسم الفوز، أي لا تحسبنّهم يفوزون ويتخلّصون من العذاب...[٤].

وجاء في مجمع البحرين في معنى الفوز، بأنه نجاة وظفر بالخير، كما أفاد الراغب، ولكنه أضاف شيئاً جديداً في فهم قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾[٥]، أي بسبب منجاتهم وهو العمل الصالح، والمفازة المنجاة، وهي مفعلة من الفوز؛ يقال فاز فلان: «**إذا نجا...**»[٦].

كما جاء أيضاً في تحقيق كلمات القرآن في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾،

---

(١) را: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، (ت ٦٧١هـ)، تحقيق أبو إسحاق إبراهيم، ١٩٨٥م، دار إحياء التراث، بيروت ج٦، ص٣٧٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٨.

(٤) الراغب الأصفهاني، معجم ألفاظ مفردات القرآنن الكريم، م. س، ص٤٠١.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٦١.

(٦) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، وفاة (١٠٨٥)، الناشر المرتضوي، طهران، ١٤١٧هـ، ط٣، ج٤، ص٣٠.

إن المتقي هو مَن يتقي نفسه من سوء الأعمال وعن رذائل الأخلاق، وعن الآراء والأفكار الفاسدة، فيتحصّل له قهراً حالة صفاء وطهارة ونزاهة.. فيناسبها قوله تعالى في مقام الجزاء مفازاً حدائق وأعناباً، ويُراد بها الوصول إلى الخير والنعمة، ومن مصاديقه: دخول الجنة والحدائق وإطاعة الله تعالى وإطاعة الرسول ورضوان الله تعالى[1].

نلاحظ مما أجمع عليه أهل اللغة والتحقيق، أن الفوز ليس مجرّد حصول السلامة في أمر دنيوي، وإنّما هو حالة تقوى يُناسبها أن يكون الإنسان معها فائزاً في الدنيا والآخرة، إلاّ أن الفرق يبقى شاسعاً وكبيراً بين أن تكون نتيجة التقوى الزحزحة عن النار والفوز بالجنة، وبين أن يكون الفوز كبيراً وعظيماً ومبيناً، بحيث يكون من مصاديقه دخول الجنة والرضوان الإلهي، وهذا ما سنتعرّف إلى منازله في بحوث هذا الكتاب لتبيان حقيقة هذا الفوز ومعناه، على اعتبار أن الآيات القرآنية قد لحظت هذا المعنى فيما أرشدت إليه من رضوان أكبر، ومن تفضّل إلهي، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

لقد أجمع أهل اللغة على أن الفوز هو النجاة وحصول السلامة في الدين والدنيا، ليكون جزاؤه الجنة، وهو بحسب ما يكون عليه من إيمان وتقوى، تكون له مصاديقه ودرجاته في الجنة، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[3].

(١) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن، وفاة (١٤٢٦هـ)، طهران، ط١، ١٤١٠هـ، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ج٨، ص٢٣٢.

(٢) سورة الدخان، الآيتان: ٥٦ ـ ٥٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٠.

ثانياً: الفوز في الاصطلاح

إذا كان معنى الفوز في اللغة هو النجاة والظفر بالخير وحصول السلامة، ودفع كل مكروه، فإنّ الفوز فيما يعنيه كمصطلح لا يختلف كثيراً عمّا عرضنا له في مبحث اللغة، كونه يستبطن، كمفردة قرآنية، معنى السلامة في الدين والدنيا، إضافة إلى ما يعنيه من مفازة من خلال التقوى والعمل الصالح، كما قال الله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾[1]، والتقوى هنا تفيد تحقق الطاعة لله تعالى ورسوله فيما أمر به ونهى عنه، بحيث يكون الإنسان حيث أمره الله تعالى، ويفقده حيث نهاه، وهذا هو جوهر ما يعنيه الفوز في الاصطلاح الشرعي، وذلك من منطلق أن القرآن لا يتحدّث عن الفوز فيما يعنيه من مكاسب ماديّة في حياة الإنسان، وقد سبق منّا القول فيما يعنيه الفوز من إصابة فضل دنيوي عبر عنه الإنسان بالفوز العظيم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[2].

إنّ معنى الفوز العظيم لم يأتِ في القرآن في سياق الحديث عن نعمة أو سلامة دنيوية كيفما اتفق، وإنّما جاء في سياق رؤية إيمانية، عبّر عنها القرآن من خلال الطاعة لله ورسوله، وبمقدار ما يكون الإنسان مجسّداً لهذه الطاعة في حياته، بمقدار ما يكون فائزاً، كما قال الله تعالى: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3].

إذن، الفوز في الاصطلاح ليس مجرّد فوز يظنّه الإنسان فوزاً، وإنّما هو في حقيقته أمر ونهي من الله تعالى، والتزام من الإنسان به، بحيث يكون مؤمناً وعاملاً للصالحات، وقائلاً قولاً سديداً، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

(١) سورة الزمر، الآية: ٦١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٧٣.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧١.

﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[1]، هذا الكلام الإلهي، ناظر إلى حقيقة ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من التزام في القول والفعل، وليس مجرّد القول وحسب، بل القول العدل، كما جاء عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله لعبّاد بن كثير البصري، قال: «**ويحك يا عبّاد غرّك أن عفّ بطنك وفرجك، إنّ الله عزّ وجلّ يقول في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾، إعلم أنه لا يتقبَّل الله. عزّ وجلّ. منك شيئاً حتى تقول قولاً عدلاً**»[2]، وهذا ما فسّره أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**مَن يطع الله ورسوله فقد اهتدى وفاز فوزاً عظيماً، ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً... أوصيكم عباد الله بتقوى الله وكثرة ذكر الموت والزهد في الدنيا...**»[3].

نعم، قد يكون للإنسان فوز من خارج ما أمر الله به ونهى عنه، بأن يكون عاصياً لله تعالى وطالباً للكفاية من غيره، بحيث يكون مكذباً لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[4]، إلاّ أن ذلك لا يكون فوزاً حقيقياً، وكثيرون هم الذين توهّموا مثل هذا الفوز، وخسروا الدنيا والآخرة، كأولئك الذين اتخذ الشيطان منهم نصيباً مفروضاً، واتبعوا سبيل غير المؤمنين، ولكنهم ما لبثوا أن فارقوا الدنيا على خسران مبين!

إنّ الفوز الحقيقي، فيما يتبدّى لنا من ضمّ آيات الفوز إلى بعضها البعض، هو أن يكون الإنسان قائماً بأمر الله تعالى، ومستنداً إلى أصول الإيمان وصالح الأعمال، باعتبار أن كل ما ذكره القرآن عن الفوز بكل أنواعه وأوصافه هو آت في سياق التأكيد على الطاعة لله ورسوله، وعلى الصدق في القول والعمل وفاقاً لما أمر الله تعالى به ونهى عنه، وهذا هو ما تعنيه حقيقة التوكل على ألله تعالى والكفاية به والقيام بحقه،

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠.

(٢) انظر الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، دار الحديث، قم، ط١، ١٤٢٩هـ، ج٥، ص٢٦٢.

(٣) انظر: ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، وفاته (٣٨١)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٣هـ، ط٢، ج١، ص٥١٨.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٣٦.

والصبر على طاعته، ومعرفة حدوده[1].

غاية القول: إنّ الفوز، فيما اصطلح عليه من معنى، ليس شيئاً غير ما عرّفه به أهل اللغة من ظفر بالخير وحصول السلامة في الدين والدنيا، بحيث يكون الإنسان على خوف ورجاء وتقوى فيما يأتيه من أعمال، ويؤدّيه من طاعات، لأنّ التقوى، كما يقول الحرّاني في تحف العقول، بها فاز مَن فاز من المتقين، وبها أوصى الله سبحانه الأولين والآخرين، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[2]، وأثنى عليها، كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[3]، وهي توجب حفظ النفس، والمال من الاعداء، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[4]، وتوجب النصر من الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[5]، وتوجب محبته، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[6]، وتوجب إكرامه كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[7]، وتوجب إصلاح العمل، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[8]، وتوجب قبول العبادة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[9]، وتوجب البشارة عند الموت، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٧٦.

(٧) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٨) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠.

(٩) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[1]، وتوجب النجاة من النار، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾[2]، وتوجب الخلود في الجنّة، كما قال الله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، وبالجملة هي حكمة عملية مركّبة من العلم والعمل توجب محبّة صاحبها لله تعالى ومحبّة الله تعالى لصاحبها...»[4].

فإذا كان معنى الفوز هو الظفر بالخير مع حصول السلامة، والنجاة من كل هلكة، كما بيّن أهل اللغة، فهذه آيات القرآن توضّح لنا معنى أن يتّقي الإنسان ربّه ليكون فائزاً في الدنيا والآخرة، لأن ما لخّصه ابن شعبة الحرّاني أتى على كل تفاصيل الخير والسلامة من خلال التقوى، وهذا هو أيضاً ما اصطلح عليه عند الفقهاء والمفسرين في معنى الفوز، فيما ذهبوا إليه من معانٍ كلها تفيد أن ملاك هذا الأمر وجوهره هو الطاعة لله ورسوله وخشية الله دون غيره، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[5].

ثالثاً: الفوز العظيم: المفهوم والدلالة

يقول الإمام علي عليه السلام: إنّ القرآن فيه تبيان لكل شيء، وأنه يُصدّق بعضه بعضاً، وأنه لا اختلاف فيه، وإنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، ولا تكشف الظلمات إلاّ به[6]، وعن الإمام أبي جعفر عليه السلام: «**إنّ القرآن يجري في حياة البشر مجرى الشمس والقمر**»[7]. وبما أن القرآن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،

(١) سورة يونس، الآيتان: ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٤) انظر: ابن شعبة، الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول، القرن الرابع، الناشر جماعة المدرسين، قم، ١٤٠٤هـ، ط٢، ص٢٣٢.

(٥) سورة النور، الآية: ٥٢.

(٦) الإمام علي عليه السلام، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، كاظم محمدي، ومحمود دشتي، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٦م، الخطبة ١٨.

(٧) را: البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، دار الهادي، بيروت، ط٤، ١٩٩٢، ج١، ص٢٠.

ويهدي إلى التي هي أقوم، فإنّ مفهوم الفوز في القرآن فيما ينطوي عليه من معانٍ ودلالات، هو مما يمكن تلمّس كامل دلالاته من القرآن الكريم من خلال ضمّ الآيات إلى بعضها البعض، لأنّ القرآن تبيان لكل شيء، فكيف لا يكون تبياناً لنفسه كما قال العلاّمة الطباطبائي[1]. وعليه، فإنّه يمكن للباحث عن مفهوم الفوز أن يتدبّر في سياق الآيات القرآنية للوقوف على كامل المعنى للفوز، باعتبار أنّ دلالة القرآن تمتاز بالدقّة والإحاطة والشمول...

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ علماء الأصول قد توقفوا مليّاً عند ما أسموه بمنطوق القرآن ومفهومه، تماماً كما توقفوا عند عامّه وخاصّه، ومطلقه ومقيّده، ومجمله ومفصّله، وقد تباينت مناهج العلماء في دراسة علوم القرآن، إلاّ أن الذي يعنينا من هذا المبحث هو مفهوم الفوز العظيم ودلالته في القرآن الكريم، على النحو الذي يؤدّي بنا إلى استكشاف منطويات ومكامن هذا المصطلح القرآني الذي أحيط بعناية خاصّة في آيات الله تعالى، لجهة التركيز عليه في خاتمة كل آية، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، و﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾، و﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، إلى غير ذلك من الآيات التي تظهّر الفوز على أنّه ذو دلالة متميّزة في سياق منطوق القرآن ومفهومه. وكما قلنا: إنّ الذي يثير اهتمامنا في إطار هذا المبحث، هو ما توقف علماء الأصول عنده في تعريف كل من المنطوق والمفهوم، فقالوا: إنّ أول ما ينبغي معرفته هو منطوق القرآن ومفهومه، لأنّهما يُفصّلان أنواع الدلالة القرآنية المستفادة من اللفظ والمستنبطة من المعنى، فيشملان النص والظاهر والمؤول، وفحوى الخطاب ولحنه، ومعاني الوصف والشرط والحصر، وقد عرفوا المنطوق، كما في أصول الفقه للعلاّمة مغنيّة، أنه ما دلّ عليه اللفظ في محل النطق، والمفهوم ما دلّ عليه اللفظ في غير محل النطق»[2]، وهذا ما ذهب إليه

(١) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيوت، ط١، ١٩٩١، ج١، ص١٤.

(٢) مغنية، محمد جواد، علم أصول الفقه، دار التيّار الجديد، بيروت، ط٣، ١٩٨٨، ص١٤٢.

السيوطي في الإتقان، مبيّناً في تعريف المفهوم أن المعنى الذهني هو المنفذ الوحيد إلى دلالته، ويسمّى مفهوم موافقة إذا وافق المنطوق في حكمه، ومفهوم مخالفة إذا لم يوافقه[1]، وقد شرح العلامة مغنية هذا القول ممثلاً عليه بدلالة اللفظ في معنى الحقيقة، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، وفي معنى المجاز، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، حيث دلّ الكلام بمنطوقه في الآية الأولى على جواز البيع وتحريم الربا بنحو الحقيقة، وفي الثانية على وجوب التيمم عند عدم الماء ووجود الجنابة المعبّر عنها باللمس مجازاً... يقول العلامة مغنية: «**وفي جميع الحالات، فإنّ المقصود الأول في البحث هو المفهوم انطلاقاً من المنطوق، ومن هنا دعت الحاجة للإشارة إلى المنطوق**»[2].

إذن، المفهوم له الأثر الكبير في تفصيل الدلالة القرآنية المستفادة من اللفظ والمستنبطة من المعنى، باعتبار إنّه ما دلّ عليه اللفظ في غير محل النطق، وهذا اللفظ إمّا أن يكون له مفهوم موافقة، وإمّا أن يكون له مفهوم مخالفة، يقول صبحي الصالح في مباحث القرآن: «**إنّ لكل من هذين المفهومين فروع تتعلق به، فمفهوم الموافقة إذا دلَّ على المعنى الأولي بالأخذ والاعتبار سمّي «فحوى الخطاب»**، كدلالة ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، على تحريم ضرب الوالدين، لأنه أولى بالتحريم... وإذا دلَّ على المعنى المساوي سمّي «**لحن الخطاب**» كدلالة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، على تحريم إحراق أموال اليتامى، لأنّ الإتلاف هو المقصود بالتحريم، سواء أحصل بالأكل أم بالإحراق، فكل منهما مساوٍ للآخر...»[3]، وهذا ما أرشد إليه العلامة مغنيّة في الأصول بقوله: «**قد يطلق على المفهوم الموافق لحن الخطاب وفحوى الخطاب،**

(١) السيوطي، الحافظ جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، القاهرة، ط٣، ١٩٤١م، ج٢، ص٥٣.
(٢) مغنية، محمد جواد، علم أصول الفقه، م. س، ص١٤٢ ـ ١٤٣.
(٣) الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢٢، ١٩٩٩، ص٣٠١.

لأن الحكم الثابت للمنطوق، يثبت للمفهوم في نفس الخطاب وروحه ومعناه، والمفهوم الموافق حجّة عند الجميع إلاّ مَن شذّ من أهل الظاهر...»[1].

لذا، فإنّ ما نراه في مفهوم الفوز، سواء في المنطوق، أم في المفهوم، هو الدلالة الحقيقية له في الآيات من حيث كونه ينطوي على معنى الظفر والسلامة والفوز بالرضا والرضوان، وإذا كان البعض يرى اشتمال هذا المعنى في ما هو نصّ أو ظاهر، فما معنى أن نؤوّل النصوص باتجاهات شتّى ليفهم الفوز منها على أنّه خاص بهذا الشخص أو ذاك من أفراد الأمة الإسلامية. كما في قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2]. وهكذا، فإنّ المفهوم من الآية هو ما ابتدأت به من سبق يحتّم أن تكون من للتبعيض وليس للبيان. فلماذا الاختلاف إذاً حول ظاهر الآية وهي تخبر عمّن فاز بسبقه إلى الإسلام ظاهراً وباطناً؟؟ وهنا يطرح السؤال الآتي، هل يُفهم من الآية المباركة، منطوقاً ومفهوماً، بأنها تميّز بين أفراد الأمّة، أم أنها ترمز إلى أشخاص معيّنين بأشخاصهم، كما أفاد الحافظ الحسكاني في شواهد التنزيل[3]؟؟

إنّنا بحاجة ـ لفهم هذه الآية ـ إلى الإحاطة بسبب النزول أولاً، ومن ثمّ إلى تأويل الآية المباركة لمعرفة ما إذا كانت (من) في الآية للتبعيض أم للبيان، إضافة إلى العلم بما تواتر عليه أهل القرآن في تفسيرها، باعتبار أن الآية ليست بحاجة إلى تأويل، طالما أن المفهوم منها هم أهل الهجرة الذين سبقوا. وبما أن هناك مهاجر

(١) مغنية، محمد جواد، علم أصول الفقه، م. س، ص١٤٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

(٣) الحاكم الحسكاني، عبد الله بن عبد الله، شواهد التنزيل، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ج١، ص٢٥٤، يقول الحسكاني في نزول هذه الآية: «إنّها نزلت في ستة من قريش أوّلهم إسلاماً الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ويروي عن الضحاك أن السابقين هم علي عليه السلام وحمزة وعمّار وأبو ذرّ وسلمان والمقداد».

سابق ومهاجر لاحق، فلا بدّ أن يكون مفهوم الآية لاحظاً للبعض وليس للكل، ويكون الفوز العظيم في الآية لاحظاً لهذا التمييز، وإن كان سياق الآية يُفيد أن الفوز هو للمهاجرين والأنصار ولمن تبعهم بإحسان، الذي هو شرط الفوز العظيم كما هو مفهوم الآية فحوى ولحناً، فإذا لم يكن الإتباع بإحسان لأولئك الذين سبقوا من أهل الرسالة واستحقوا الرضا فلن يتحقّق الفوز العظيم، وعلى هذه القاعدة يمكن التأسيس لفهم الكثير من الآيات القرآنية الظاهرة الدلالة على أن الفوز لا يكون فوزاً كما اتفق، وإنّما لا بدّ من اعتباره في سياقه، سواء أكان الكلام نصاً، أم ظاهراً، أم مؤولاً. وكما بيّنا أن الآية ليست بحاجة إلى تأويل كيما يستفاد منها لفظاً ومعنى حقيقة الدلالة القرآنية التي هدفت الآية إلى إظهارها والكشف عنها. وعموماً يمكن القول: إنّ مفهوم الفوز ودلالته في القرآن ليس خاصاً وإن كانت له تمايزاته في سياق الآيات المباركة، كما سنرى لاحقاً في فصول هذا الباب، باعتبار أنّ الفوز العظيم في القرآن له تحققاته ومتعلقاته على نحو ما بيّنا في اللغة والاصطلاح، ويكفي في هذا المفهوم أن نعي أنه لا بدّ من التوفر على صفات وخصائص وأعمال لكي يكون الإنسان مستحقاً للفوز العظيم. ويمكن للباحث أن يتدبّر سياق هذا الفوز في القرآن ليرى أنه يأتي في سياقات متعددة يؤكّد القرآن من خلالها على حقيقة الطاعة لله ورسوله وأُولي الأمر الذين حقّ فيهم الرضا والسبق علماً وتقوى، إضافة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، واتقاء السيئات وعمل الصالحات، إلى غير ذلك مما جمعه الغزالي واعتبره أصلاً أصيلاً في العبادة والفوز، فقال: «**إنّ العبادة شطران: شطر الاكتساب، وشطر الاجتناب، فالاكتساب فعل الطاعات، والاجتناب: الامتناع عن المعاصي والسيئات وهو التقوى؛ وأن شطر الاجتناب على كل حال أسلم وأصلح**

وأفضل وأشرف للعبد من شطر الاكتساب...»[1].

هناك آيات كثيرة في القرآن تحدّثت عن الفوز العظيم، أو المبين، أو الكبير، ولكنها في الدلالة، ومن خلال وحدة السياق، نرى أنها تبيّن ضرورة أن يكون الإنسان على إيمان وعمل صالح، وعلى تقوى فيما يأتيه من أعمال، ويؤدّيه من طاعات، لأنّ الفوز العظيم سبيله أن يعبر الإنسان هذه الدنيا كما أمره الله تعالى، حتى تكون له الحياة، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ...﴾[2]، ولا شكّ في أنّ مقتضى هذه الحياة فيما لو توفّر عليها الإنسان أن يكون له الفوز العظيم فضلاً منَ الله تعالى ونعمة، وهذا ما سيكون موضع بحث وتدبّر في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى.

(١) يقول الغزالي: «لقد اشتغل المبتدئون من أهل العبادة، الذين هم أول درجة الاجتهاد بشطر الاكتساب، وكان كل همّهم أن يصوموا نهارهم ويقوموا ليلهم ونحو ذلك دون أن يراعوا جانب الاجتناب، فإذا حصل لك الشطران جميعاً، الاكتساب والاجتناب، فقد استكمل أمرك وحصل مرادك وقد سلمت وغنمت، فإذا لم تبلغ إلاّ إلى أحدهما، فليكن ذلك جانب الاجتناب، فتسلم إن لم تغنم، وإلاّ خسرت الشطرين معاً. وما ينفعك قيام ليل وتعبه، ثم تُحبطهُ بإرادة واحدة؟ وما يُغنيك صيام نهار طويل وتفسده بكلمة واحدة؟».

انظر: الغزالي، أبو حامد، توفي ٥٠٥هـ، منهاج العابدين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م، الكتاب ٢٢٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

الفصل الثاني

أنواع الفوز وأوصافه في القرآن الكريم

◊ تمهيد الفصل

المبحث الأول: حقائق الفوز وقواعد المنهج

المبحث الثاني: الفوز في الدنيا وهم أم حقيقة

المبحث الثالث: الفوز في الآخرة وسبيل الهُدى

تمهيد الفصل

إذا كان الفوز فيما يريده الله تعالى له مفهوم واحد، أن يكون الإنسان على طاعة الله ورسوله، ومجاهداً في سبيل الله تعالى، فإنّ هذا الفوز لم يأتِ بصيغة واحدة في القرآن الكريم، بل اختلفت مفرداته، بين أن يكون فوزاً عظيماً، أو فوزاً مبيناً، أو فوزاً كبيراً، كما نرى في جملة من الآيات، حيث قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾[2]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾[3].

وهكذا، فإنّ سياق الآيات في الفوز لا يختلف بين آية وأخرى رغم اختلاف التعبير القرآني والمفردات القرآنية، حيث نجد أنّ حقيقة الفوز كامنة في كون الإنسان قد آمن وعمل الصالحات؛ فكان له الرحمة والرضوان من الله تعالى، وصرف العذاب عنه والفوز بالجنة. وإذا كان الأمر كذلك، فقد ارتأينا إذاً أن نتحدّث عن أنواع الفوز في القرآن وأوصافه طالما أن للفوز مفهوماً واحداً وحقيقة واحدة هي الرضا والرضوان والفوز بالجنان؟

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦.
(٣) سورة البروج، الآية: ١١.

لا شكّ في أن هذا التساؤل قد يبدو مشروعاً للوهلة الأولى، ولكن الإنسان لا يلبث أن يتنبّه إلى أنّ أنواع الفوز الملحوظة ليست تلك المفردات والعبارات القرآنية المختلفة بين عظيم ومبين وكبير، بل الفوز الملحوظ هو ما يكون سبيلاً إلى الآخرة، باعتبار أن الفوز ليس مجرّد تعبير قرآني هادف إلى تبيان المعنى في الآخرة، وإنّما فيما هو يتعلّق بالفوز في الحياة الدنيا، لأنّ الدنيا كما بيّن القرآن هي مزرعة الآخرة، وقنطرة الحقيقة، وكثيراً ما يلتبس على الإنسان أمره بين أن يرى نفسه فائزاً في الدنيا فيما يكتسبه من مال وثروة ومتاع، وبين أن يكون على فوز حقيقي فيما أمر الله به ونهى عنه، بحيث يكون له العقيدة والإيمان والرؤية التي يحتكم إليها في تعامله مع قضايا الحياة وما تزخر به من ملذّات وشهوات، وقد بيّن القرآن هذا المعنى فيما ذكره عمّن أرادوا الدنيا ظنّاً منهم أنها نهاية الحياة ومنتهى الآمال، كما قال أهل الدهر والتقليد: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1].

إذن، بحث الفوز المنشود في هذا الفصل هو ما يكون عليه الإنسان من اعتبارات حقيقية أو وهمية في حياته الخاصة أو العامة، إذ إنّ الكثير من الناس قد اعتبروا أنفسهم فائزين بمجرّد أن ملكوا المال والثروة، ساهين عن حقيقة الإملاء والاستدراج التي أخذت بها الأمم الماضية. وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي تدعو الإنسان إلى الاعتبار بحال الأمم السالفة وما آلت إليه من خسران مبين، وهذا ما دعا إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**اسمعوا ما أتلو عليكم من كتاب الله المنزل على نبيّه المرسل لتتّعظوا، فإنّه والله عظة لكم فاتّعظوا بمواعظ الله وازدجروا عن معاصي الله فقد وعظكم الله بغيركم فقال لنبيّه** صلى الله عليه وآله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣٧.

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]، **أيّها الناس إنّ لكم في هذه الآيات عبرة لتعلموا أن الله تعالى جعل الخلافة والإمرة من بعد الأنبياء في أعقابهم...»**[2].

وهذا الخطاب من الإمام كاشف عن أن الفوز الحقيقي إنّما يكون باتباع الأنبياء والأولياء. أما الفوز الدنيوي، بما هو تحصيل للذّة، والمال، والسلطة، فذلك ليس من الفوز في شيء إلاّ أن يكون سبيلاً إلى الله تعالى، بأن يقوم به الإنسان على وجهه، وأن يؤدّيه لمستحقّه، بحيث يسمع عن الله تعالى ويعقل عنه في ما أمر به ونهى عنه.

ومن هنا تتأتّى لنا ضرورة أن نبحث الفوز في الدنيا والفوز في الآخرة، على أن نقدم لذلك بما نراه مفيداً في سياق عرضنا لأنواع الفوز، وذلك من منطلق أن المنهج يفرض على الباحث أن يكوّن له تأسيسات وخطوات في طريق بحثه يعينه على تلمّس ما يحتاج إليه في طريق الكشف عن الحقيقة، أو البرهنة عليها للآخرين، كما يقول عبد الرحمن بدوي في تعريفه للمنهج[3]. وقد سلف القول منّا بأن المنهج يقتضي أن تتحدّد وجهة البحث من خلال خطوات ومرتكزات أساسية تعين الباحث على استخلاص النتائج المرجوّة، وهذا في رأينا يحتاج إلى رؤية تأسيسيّة نلج من خلالها إلى مباحث الفوز وأنواعه، وهذه الرؤية يمكن الحديث عنها والتطرّق إليها من خلال مبحث «**حقائق الفوز وقواعد المنهج**»، وهو مبحث جدير بأن يمهّد به للحديث عن حقيقة الفوز في القرآن من خلال اعتماد الاتجاه الموضوعي الذي يرتكز إلى التدبّر في النصوص والآيات، على النحو الذي يمكّن الباحث من استخلاص رؤية، أو استنتاج موقف من قضيّة إسلامية كانت ولا تزال موضع اهتمام المفسّرين

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

(٢) را: الشيخ المفيد، محمد بن النعمان، الإرشاد، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٩٧٩، ص١٤٠.

(٣) انظر، بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، م. س.، ص٤. يقول بدوي: «إنّ المنهج العلمي يمكن وصفه بأنه، فنّ التنظيم الصحيح لسلّة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، وإمّا من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين...».

والباحثين قديماً وحديثاً، ونعني بها قضيّة الفوز والخسران في الدنيا والآخرة...

وعليه، فإنّ هذا الفصل يتعرّض لمزيد من الأقوال لمناقشتها في ضوء الآيات المباركة، ومن خلال التجربة الإنسانية التي عرضها القرآن عن الأمم والشعوب، إضافة إلى عرض ما نراه ضرورياً في سياق التأسيس المنهجي لما نروم بحثه ونرسم خطواته، لأن القرآن الذي يتحدّث عن الفوز في الآخرة بما هو فوز عظيم، هو أيضاً يتحدّث عن فوز حقيقي في الدنيا، يقابله فوز وهمي، وخادع عبّر عنه الفراعنة والمترفون في تاريخ الإنسانية.

وهذا الفوز الحقيقي الذي يتحدّث عنه القرآن الكريم في الدنيا كسبيل إلى الآخرة هو الهُدى الإلهي، الذي أضافه الله إلى الهدى التكويني، فيما اختاره الله تعالى للإنسان من تحولات إيمانية على نحو ما سنرى في مبحث الفوز في الدنيا، الذي نرى أنه مرتكز أساساً على الأمر الإلهي والهُدى الإلهي منذ أن هبط آدم إلى الأرض وجُعل خليفةً لله تعالى فيها.

المبحث الأول

حقائق الفوز وقواعد المنهج

رأينا في تقديم المنهج أنّه لا بدّ من الارتكاز إلى قواعد، والاستناد إلى خطوات في طريق البحث، ولعلّنا ألمحنا ـ كما سبق ـ إلى أن أولى الخطوات والقواعد التي يمكن التأسيس عليها، هي ما أرشدنا إليه القرآن من أن آدم استحق أن يكون خليفة في الأرض بعلمه الأسماء، حيث قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

يقول الشيخ المفيد: «**إنّ الله تعالى نبّه الملائكة على أن آدم أحق بالخلافة منهم، لأنّه أعلم منهم بالأسماء، وأفضلهم في علم الأنباء. وقال تقدّست أسماؤه في قصة طالوت:** «﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]، **فجعل جهة حقه إلى التقدم عليهم ما زاده الله من البسطة في العلم والجسم واصطفائه إيّاه على كافتهم بذلك، وكانت هذه الأسباب موافقة لدلائل العقول في أن الأعلم هو أحق بالتقدم في محل الإمامة عمّن لا يساويه في العلم**»[3].

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٣١ـ٣٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

(٣) الشيخ المفيد، الإرشاد، م. س، ص١٠٤.

هذا مرتكز أساسي، وخطوة أساسية لا بدّ من الاستناد إليها في تبيان معنى أن يكون الفوز عظيماً، أو مبيناً، أو كبيراً، وهي أوصاف، كما رأينا، وإن كانت تحمل المفهوم ذاته؛ إلاّ أنها في التعبير القرآني قد نجد لها مسوغاً في سياق الآيات على نحو ما بيّنا في معنى العظيم ونسبته إلى ما هو كبير الشأن، أو الفعل، سواء في المعنى الإيجابي، أم في المعنى السلبي كما تظهر لنا في معنى كيد النساء، أو العذاب، أو غير ذلك مما توصف به الأشياء فيما لو تجاوزت حدّ الوصف عند الإنسان. وإذا كانت هذه الخطوة أساسية في المبحث، فإنّ هناك خطوات أخرى لا بدّ من الإشارة إليها لتأكيد ما نذهب إليه في أن الفوز العظيم ليس فوزاً في الآخرة وحسب، وإنّما هو فوز له بداية، وهذه البداية تجلّت في كون آدم تعلّم الأسماء وفضّل بالإنباء على حدّ تعبير الشيخ المفيد. هذا أولاً.

ثانياً: ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام في وصيته إلى الإمام الحسن عليه السلام بقوله: «**فتفهم يا بُنَيَّ وصيّتي، واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة، وأنّ الخالق هو المُميت، وأن المُغني هو المُعيد، وأن المبتلي هو المعافي، وأنّ الدنيا لم تكن لتستقر إلاّ على ما جعلها الله عليه من النعماء والابتلاء، والجزاء في المعاد، أو ما شاء مما لا تعلم...**»[1]. وهذا الكلام من الإمام عليه السلام ناظر إلى أن الله تعالى شاء أن تكون الدنيا على ما هي عليه وليس على الإنسان سوى أن يستجيب لنداء ربه، بحيث يكون مطيعاً له فيما يأمر به وينهى عنه دونما اعتراض على ما شاء وقدّر، لأنّ الله تعالى أعلم بما خلق، وقد شاء أن تكون الدنيا وكل الوجود على ما هو عليه، وهذا ما عرض له العلاّمة مطهرّي في مباحثه الفلسفية، مؤكداً على مشروعية السؤال والجواب فيما يتعلق بالخلق والوجود، وكل ما ينبغي التساؤل حوله؛ ولا يفترض أن يأخذ الإنسان إلى الشكّ والاعتراض على حكمة

(١) الإمام علي، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، محمد دشتي، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٦، الكتاب: ٣١.

الخالق. يقول الشهيد مطهري: «**وتثبت أن المتحكّم في عالم الوجود هو العلم والشعور والإرادة والمشيئة، وليس هذا فحسب، بل إن النظام الموجود هو النظام الأحسن والأصلح ولا يمكن أن يكون هناك نظام أحسن وأصلح من هذا النظام. إنّ العالم الموجود هو أكمل عالم ممكن...**»[1]. فالله تعالى هو الخالق والمدبّر، وهو المحيي والمميت، وقد قضت حكمته وعلمه ومشيئته أن تكون لآدم حيثية حقيقة الوجود بسبب ما ارتضاه له تعالى، وإذا كان إبليس قد عصى أمر ربّه وفسق عن أمره، فذلك، كما يقول أهل الحكمة، وبعبارة اليزدي في معارف القرآن[2]، لم يكن من خارج إرادة الله تعالى، لأنّ الله تعالى لا يغلبه شيء، وكل شيء مقهور له، كما قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[3]، كما أنّ كل شيء في هذا الوجود، كما يرى العلاّمة اليزدي، له إذن تكويني، فإذا كان إبليس وغيره ممن تبعه قد خرج عن الإذن التشريعي، فلن يكون بالإمكان إطلاقاً الخروج عن الإذن التكويني.

وعليه، فإنّ معنى أن يكون الإنسان خليفة في الأرض، أن يكون حاملاً للأمانة، وقائماً بالرسالة، وقد شاء الله تعالى أن يكون للإنسان اختيار فيما له الخيار فيه، هذا فضلاً عمّا زُوِّدَ به الإنسان من عقل وإرادة وحريّة ليكون مسؤولاً عن فعله، ومطيعاً لله تعالى في أمره ونهيه، وهذا ما يؤسس له العقل لجهة ضرورة الطاعة لله ورسوله وأولي الأمر، وقد بيّن علماء الأصول أنّ ما يؤسس له العقل، ثم يأتي به الشرع، إنما يكون إرشاداً وليس تأسيساً لاستحالة اللغو والعبث في

(١) مطهري، مرتضى، المفهوم التوحيدي للعالم، دار التيار الجديد، بيروت، ١٩٨٥، ص٨٠.

(٢) اليزدي، محمد تقي المصباح، معارف القرآن، تعريب الخاقاني، الدار الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ج١، ص٢٦١.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤.

أمره وفعله، لأنه يكون من باب تحصيل الحاصل»[1].

ثالثاً: إنّ من القواعد الأساسية التي يمكن التركيز عليها والاستناد إليها في موضوع الفوز القرآني، هو ما عرض له القرآن في حقيقته الهدي الإلهي، فقال الله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾[2]، وهذا ناظر إلى حقيقة ما أُريد للإنسان أن يكون عليه من التزام وتحقق في الوجود والحياة، بحيث يكون لهبوطه معنى في مواجهة المعصية من خلال أمر الله تعالى، فيما أعدّ له من مستقرّ ومتاع في الحياة، وقد بيّن الله تعالى هذا الأمر بقوله: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[3].

ومن هذه الحقيقة، القاعدة، يتبدّى لنا معنى أن يكون الفوز في الحياة مؤسساً على هذا الهدى الذي لا خوف معه ولا حزن، وقد أجاد وأفاد الثعالبي في الإعجاز والإيجاز فيما ذكره حول هذا المعنى، فقال: «**ولا شيء أضرّ بالإنسان من الحزن والخوف، لأنّ الحزن يتولّد من مكروه ماضٍ أو حاضرٍ، والخوف يتولّد من مكروه مستقبل، فإذا اجتمعا على امرئ لم ينتفع بعيشه، بل يتبرّم بحياته، والخوف والحزن أقوى أسباب المرض، مرض النفس. كما أن السرور والأمن، أقوى أسباب صحتها، فالحزن والخوف موضوعان بإزاء كل محنة وبليّة، والسرور والأمن موضوعان بإزاء كل صحة ونعمة هنية، ومن ذلك قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾**[4]، **فالأمن كلمة تنبئ عن خلوص سرورهم من الشوائب**

(١) يقول محمد رضا المظفّر في أصول الفقه: «إنّ كل ما ورد على لسان الشرع من الأوامر في موارد المستقلات العقلية لا بدّ أن يكون تأكيداً لحكم العقل لا تأسيساً» انظر: أصول الفقه، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٩٩٠، ج١، ص٢٠٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الانعام، الآية: ٨٢.

كلها، لأنّ الأمن إنّما هو السلامة من الخوف.. فإذا نالوا الأمن بإطلاق ارتفع الخوف عنهم، ارتفع بارتفاعه المكروه وحصل السرور المحبوب»[1].

رابعاً: من الحقائق التي لا بدّ من التأسيس عليها أيضاً، أن يعلم الإنسان مقدار ما أنعم الله تعالى به عليه من نعم ظاهرة وباطنة، نعم العقل والنبوة والهداية، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2]، ومن هنا قيل فيما ارتكز عليه علماء الأصول، فقالوا: بقاعدة قبح العقاب بلا بيان[3]، وطالما أنه لا عذاب إلا بعد بيان نبوي، فكذلك لا فوز ولا خسران إلاّ بعد بيان، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذا كافٍ للتدليل على أن الهدف هو تحقيق الإنسان بما يلزمه للفوز العظيم في الدنيا والآخرة كما بيّنه الثعالبي من أن انتفاء الخوف والحزن يولد السرور المحبوب، ويدفع المكروه، فيكون الإنسان آمناً مطمئناً وسالكاً لطريق الفوز العظيم في الدنيا والآخرة، باعتبار أن الأمر والنهي الإلهيين، وكذلك كل تكليف، هو أساس في تحقيق الفوز، فإذا لم يتبع الإنسان الهدى الإلهي، فلا بدّ أن يلحق به الخوف والحزن والخسران، لكون الإيمان هو اطمئنان وسلامة في الدين والدنيا، وهذا ما بيّنه في آية أخرى، حيث قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[4]، وهنا يتبدّى لنا تأسيس آخر لا بدّ من تبيانه، وهو ما يؤول إليه الاستكبار من عذاب في الدنيا قبل الآخرة لما يُفيده سياق الآية من خوف وحزن إلا أن يتّقي الإنسان ويصلح، فيكون

(١) الثعالبي، أبو منصور (٤٢٩هـ)، الإعجاز والإيجاز، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص١٥ ـ ١٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٣) مغنية، محمد جواد، علم أصول الفقه، م. س، ص٢٥٧.
(٤) سورة الأعراف، الآيتان: ٣٥ ـ ٣٦.

له الأمن، فإذا لم يكن منه ذلك، فلا بدّ أن يلحق به الخوف والحزن والخسران، وهذا كلّه نار في الدنيا تأخذ الإنسان بالهمّ والغمّ والبلاء والمكروه وتدفع به إلى أن يعيش العار والدمار قبل النار، ذلك هو معنى أن لا يتبع الناس الهدى، بأن يكون لهم الحزن والخوف والنار، وإن كانوا يرون في أموالهم وثرواتهم وأولادهم ما يعتقدون وهماً وخداعاً أنه الفوز، ولكنه في الحقيقة هو النار والخسران في الدنيا والآخرة. ولهذا، يقول العلامة الشيخ مصباح اليزدي: «**إنّ الخطاب في الآية موجّه إلى جميع الناس، إذ لا يتوهّم أن الخطاب خاص بآدم وحوّاء أو إبليس، ولا علاقة له بسائر الناس، فالآية تبيّن مصداق اتباع الهداية، فتقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾، وبناءً على هذا، يصبح موضوع الهداية التشريعية بواسطة الوحي والنبوّة جزءاً من تقدير خلق الإنسان، ولا يمكن إسكانه في الأرض من دونها، لأنّ ذلك خلاف الحكمة الإلهية**»[1]، وعلى هذا الأساس، فقد أرسل الرسل إلى الناس، فكان لكل أمّة رسولها، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[2].

خامساً: من الحقائق والقواعد أيضاً ما خصّ به الإنسان من هداية تكوينية وتشريعية، كما بيّن العلامة الطباطبائي في تفسيره[3]، والسيد الخوئي في بيانه[4]، والزمخشري في كشّافه[5]، حيث رأوا جميعاً أن كل شيء في هذا الوجود قد خصّ بالهداية التكوينية، كما قال الله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[6]، وقد تميّز الإنسان في كونه قد خصّ بالهداية التشريعية، فإذا قيل،

(١) اليزدي، محمد تقي المصباح، معارف القرآن، م.س، ج٤، ص١٦.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.
(٣) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج٧، ص٣٥٧، وج٤، ص٣٢ ـ ٣٣، وج١١، ص٣٥٥.
(٤) الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٩٧٤، ص٤٢٠.
(٥) الزمخشري، تفسير الكشاف، م. س، ج١، ص٢٤.
(٦) سورة طه، الآية: ٥٠.

وكيف يطلب الإنسان الهداية وهو مهتدٍ. قلنا: إنّ طلب زيادة الهدى إنّما يكون بمنح الإلطاف، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾[1]، وقد جاء عن الإمام علي عليه السلام قوله في معنى طلب الهُدى، أي ثبّتنا، وكما يرى الزمخشري أن صيغة الأمر والدعاء في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[2]، واحدة فكل منهما طلب، وإنّما يتفاوت في الرتبة[3].

هذه هي جملة الحقائق والقواعد التي يمكن التأسيس عليها في مبحث الفوز في الدنيا والآخرة، وهي تأسيسات، كما نرى، لا بدّ من لحاظها في سياق الحديث عن الرؤية القرآنية الموضوعية في القرآن الكريم، ويمكن للباحثين أن يُضيفوا مرتكزات أخرى في طريق البحث، لكن الذي تقدّم يمكن أن يُغنينا عن مزيد من التفاصيل التي لا طائل منها فيما نحتاج إليه من تأسيس في سياق البحث عن حقيقة الفوز، طالما أن ما تقدّم استجمع أهمّ المبادئ والقواعد التي هي بمثابة الحقائق التي نؤمن بها، على اعتبار أن القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً، ويصدّق بعضه بعضاً، ولا بدّ للباحث أن يأخذ بهذه الحقائق في البحث القرآني، لأنّ البديل عن ذلك سيكون التساؤل غير المشروع، والاعتراض غير المسوّغ، وخاصة من أولئك الذين يستكبرون عن آيات الله تعالى.

إنّنا من خلال هذا المبحث، نستطيع أن نتحدّث عن الرؤية القرآنية للفوز، وكذلك عن الخسران في مباحث أخرى من هذه الدراسة، ذلك أن طبيعة كل بحث تفرض المسلّمات الأساسية في طريق البحث، وقد رأينا أنّ الحقائق التي تقدّم ذكرها تظهّر فيها الكثير من ملامح بحثنا المقبلة، باعتبار أنّ الفوز قد لحظ في جانب منه فيما عرضنا له عن الهدى الإلهي، ولكن يمكن إضافة الكثير إلى هذا

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

(٣) الزمخشري، الكشاف، م. س، ج١، ص٢٥.

المبحث من منطلق أن الهدى الإلهي الذي خص به الإنسان هو الضامن لحقيقة الفوز، وكل ما عدا ذلك فهو زخرف، لأنّ القرآن الكريم يربط بين هذا الهدى، وبين الفوز العظيم، فإذا لم يتوفّر الإنسان عليه، فلن يكون له الأمن، وبالتالي، فإنّه سيكون موضعاً للخسران في الدنيا والآخرة، هذا فضلاً عمّا سيكون له من موت، كما بيّن العلاّمة الشهيد مطهّري في مبحث إحياء الدين[1]، والعلاّمة مغنيّة في المذاهب الفلسفية[2]، والعلاّمة الصدر في المدرسة القرآنية[3] إضافة إلى الكثير من المقولات والحقائق التي عرض لها المفسّرون في سياق الحديث عن الرؤية القرآنية الضامنة للحياة الإنسانية، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[4]، والحياة هنا، ليست تلك الحياة التي يبحث عنها المترفون والطغاة والمسرفون، بل هي الحياة الإيمانية التي عبّر عنها القرآن بالهدى والنور، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[5].

وكيف كان، فإنّ هذا المبحث قدّم رؤية كافية، كما نرى، حول ما ينبغي استيعابه قبل الشروع في مبحث الفوز في القرآن، لأنّ العقل عن الله تعالى والتبصرة بالتجربة هما السبيل الوحيد لإدراك حقائق الحياة، ومن خلال القرآن أيضاً، لأنه الكتاب

(١) يقول الأستاذ الشهيد مطهري: «إنّ الحياة التي ينشدها القرآن هي التي يخرج الإنسان بها من الظلمات إلى النور، ومن ظاهرة الموت التي تجعل الإنسان أرضاً صلدة غير قابلة لتقبّل كلمة الحق إلى ظاهرة الحياة التي يستجيب فيها لأمر الله تعالى، لكن هذه الاستجابة لا تحقّق فيمن انعدمت فيه كل مظاهر الحياة الإنسانية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ ﴾ [النمل: ٨٠].
انظر: مطهري، إحياء الفكر في الإسلام، دار التيّار الجديد، بيروت، ط٣، ١٩٨٦، ص٢٢ـ٢٣.

(٢) مغنية، محمد جواد، مذاهب فلسفية، دار التيّار الجديد، بيروت، ط٤، ١٩٨٤، ص٤٠.

(٣) الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، الدار العالمية، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ص٤٣، ورا: كتاب الصدر، الإسلام يقود الحياة، دار التعارف، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص٤٣. وقا: مع محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، دار العصر الحديث، بيروت، ط٢، ١٩٩١، ص٢١٥.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

الذي يضيء للإنسان طريق البحث لاكتشاف الحقيقة، أو على الأقل لوعيها، إن لم يكن ممكناً التبصّر بالحقائق.

إنّ الفوز كما سنرى، كان وسيبقى سبيله التدبّر في كتاب الله تعالى، لأنّ الإنسان كثيراً ما التبس عليه الأمر في تجاربه التاريخية، فلم يعِ حقيقة الفوز ومتعلقاته، وخاصة أولئك الذين استكبروا عن آيات الله تعالى، وادّعوا ما لم ينزل به من الله سلطاناً، ورأوا أن الفوز إنّما يكون بإدراك العاجل في الدنيا، ساهين عن أن الدنيا ليست بدار قرار، وإنّما هي دار اختيار وامتحان للمؤمنين والكافرين على حدٍّ سواء، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[1]. وهذه الآية ـ كما نلاحظ، ناظرة إلى أنّ الفوز إنّما يكون بالسعي مع الإيمان، وليس بالكفر والاستكبار، لأنّ السعي المشكور ليس شيئاً غير أن يكون عمل الإنسان مقبولاً عند الله تعالى، بل وأكثر من ذلك أن يكون مضاعفاً لما أضافه القرآن من حسنات لمن اتقى السيئات، وخشي الله تعالى ولم يخشَ أحداً سواه، واتّقاه حقّ التقى، وقد روي عن أبي جعفر عليه السلام إنه قال: مَن شهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله كتب الله له ألف حسنة، وفي رواية ألفي حسنة[2]، باعتبار أن الله تعالى قد نصّ على أنّ أقل الأضعاف هو عشر أمثالها، وقال الله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، وهذا كلّه لا بدّ أن يكون موضع تأمّل وتدبّر طالما أن الله تعالى هو القائل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3]، يقول الكاشاني: «**هذا أقلّ ما**

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٨ ـ ١٩.

(٢) انظر: الخوئي، حبيب الله الهاشمي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، طهران، المطبعة الإسلامية، ط٤، ج١٢، ١٣٦٠، ص٣٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

وعد من الإضعاف هو عشر أمثالها، وقد جاء الوعد بسبعين، وسبع مائة، وبغير حساب»[1].

غاية القول: إنّ الشكر على السعي من قبل الله تعالى ليس شيئاً غير أن يكون الإنسان على فوز في الدنيا والآخرة معاً، لأنّ الدنيا كما سلف القول، هي دار الامتحان والعمل، وكل ما يكون للإنسان في الآخرة هو نتيجة عمله، لأنّ الدنيا دار عمل بلا حساب، والآخرة دار حساب بلا عمل[2].

(١) الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، ١٤١٨هـ، ط١، ج١، ص٣٥٥.

(٢) قال الإمام علي عليه السلام: ألا إنّ الآخرة قد أقبلت والدنيا قد أدبرت، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ كل ولد سيلحق بأمّه يوم القيامة، وإنّ اليوم عمل بلا حساب، وغداً حساب بلا عمل».

انظر: الديلمي، الحسن بن محمد، إرشاد القلوب، الوفاة القرن الثامن، ط٢، ١٤١٥هـ، قم، انتشارات الشريف الرضي، ج١، ص١٩١.

المبحث الثاني

الفوز في الدنيا: وهم أم حقيقة

قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

إنّ سياق الآيات المباركة يُرشد إلى أنّ جماعة من الناس لم يتمنّوا أن يكونوا مع رسول الله في المحنة أو المصيبة، أو حين الشدائد وتمنّوا أن يكونوا مع المؤمنين لإصابة الفضل في مال أو غيره، وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على مدى حب الحياة وكره الموت، وهم إنّما قالوا ذلك على وجه إيثار الغنيمة لا على حال المثوبة من جهة الله تعالى لشكّهم في الجزاء من الله تعالى، كما أفاد الشيخ الطوسي في التبيان[2]، وفي جميع الأحوال لسنا نهدف في هذا المبحث إلى الوقوف على ما ذهب إليه المفسرون فيها لكونهم اختلفوا فيها بين قائل بأن المعني بهذه الآية هم المنافقون، كما رأى الشيخ الطوسي[3]، والشيخ الطبرسي[4]، والكاشاني[5]، والزمخشري[6]، وبين قائل بأنها تعني المؤمنين كالعلاّمة الطباطبائي[7]، الذي رأى أنّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ...﴾، يدلّ على أنّ هؤلاء المؤمنين المخاطبين في

(١) سورة النساء، الآيات: ٧٢ ـ ٧٤.

(٢) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق نصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، ط١، ١٤٠٩، ج٣، ص٢٥٥.

(٣) م. ع، ص٢٥٦.

(٤) الطبرسي، تفسير مجمع البيان، (ت ٥٤٨)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ج٣، ص١٢٩.

(٥) الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج١، ص٢٢١.

(٦) الزمخشري، الكشاف، م. س، ج١، ص٥٢٢.

(٧) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، م. س، ج٤، ص٤٢٨.

صدر الآية بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ على ما هو ظاهر كلمة منكم...، وقد قدم العلاّمة موقفاً فيما يتعلّق بالأسباب التي دعت المفسّرين إلى هذا التفسير، معتبراً ما ذهبوا إليه تصرفاً في ظاهر القرآن من غير وجه[1]، رغم أنّ أكثر المفسرين يذهبون إلى القول بأنها نزلت في المنافقين، وإنما جمع بينهم في الخطاب من جهة الجنس والنسب

(١) قد يتعجب الباحث مما ذهب إليه العلاّمة الطباطبائي بان المفسرين تصرّفوا في ظاهر اللفظ من غير وجه!؟ وإذا كان لنا من رأي في كلام العلاّمة، فإنّنا نرى أنّ ما ذهب إليه يحتاج إلى مناقشة أيضاً من عدّة وجوه.

أولاً: هو يرى أن الآية تخاطب المؤمنين ولا وجه لصرفها إلى المنافقين، ويرى أيضاً أن الذي دعا المفسرين إلى التصرف بظاهر اللفظ من غير وجه هو حسن الظنّ بالمسلمين في صدر الإسلام وكل من لقي النبي ﷺ وآمن به، والبحث التحليلي فيما ضبطه التاريخ من سيرتهم مع النبي ﷺ يضعّف هذا الظنّ. را: الميزان، م. س، ج٤، ص٤٢٩ ـ ٤٣٠.

ثانياً: إن خلاصة رأي العلامة الطباطبائي، هي أن هؤلاء لم يكونوا منافقين، بل كانوا ضعفاء الإيمان، ويسوّغ لرأيه بأن مجتمع صدر الإسلام كان مجتمعاً فاضلاً يتقدمه رسول الله ﷺ، وكان حال هذا المجتمع كحال كل المجتمعات فيه الصالح والطالح، وبعبارة العلاّمة حرفياً: «إنّ مؤمني صدر الإسلام كسائر الجماعات البشر فيهم المنافق والمريض قلبه والمتّبع هواه والطاهر سرّه».

ثالثاً: يستدلّ العلاّمة على صوابية رأيه بجملة من الآيات من بينها آيات سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾، وآية سورة النساء التالية للآيات موضوع المناقشة: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ ...﴾ وهو يرى أنّ في هذه الآية بالذات ما يفيد أن هؤلاء جميعاً كانوا مؤمنين، قد شروا بإسلامهم لله تعالى الحياة الدنيا بالآخرة!..

إنّ مناقشة رأي العلاّمة يقتضي منا ملاحظة أمرين: الأول: هو ما أشار إليه العلاّمة في أول تفسير الآيات حيث رأى أنّ النبي ﷺ خرج إلى أحد في ألف رجل ثم رجع منهم ثلاثماية من المنافقين مع عبد الله بن أبي... را: الميزان، ج٤، ص٤٢٠. الثاني: إنّ العلاّمة نفسه يرى أن مجتمع صدر الإسلام كسائر المجتمعات البشرية فيه المنافق والمريض والطاهر ومتّبع الهوى، فإذا كان الحال كذلك، فلما يرد العلاّمة قول المفسرين فيما ذهبوا إليه بأن الآية تعني المنافقين، هذا أولاً.

ثانياً: إذا كانت آيات سورة الفتح التي استدل بها على إيمان هؤلاء ونفي النفاق عنهم، فلماذا لم يلحظ العلاّمة ما جاء في السورة ذاتها عن الذين تخلفوا عن الرسول ﷺ في البداية، ثم عزموا على اللحاق به بعد أن اطمأنّوا إلى الغنيمة، وقالوا ﴿بَلۡ تَحۡسُدُونَنَآۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾، بعد أن ظنّوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، أليس في هذه الآية ما يدلّ على نفاقهم!؟

فإذا قال العلاّمة: إنّ سياق الآيات يُفيد أنهم أهل إيمان ولسنا ننفي حالة النفاق عن بعض أفراد المجتمع الإسلامي بعد أن صرحنا بذلك، ومقتضى علم التفسير أن تكون أمناء على تفسير النصّ.

قلنا: صحيح هذا الكلام، ولكن من يقول أن ما تذهبون إليه ليس صرفاً للظاهر عن وجهه طالما اعترفتم أنّ عبد الله بن أبي المنافق قد رجع مع المنافقين وليس مع المرضى أو الظالمين، أو الضعفاء من أهل الإيمان! كما أن ما تذهبون إليه من تفريع آية القتال من الحثّ على الجهاد، فإنّ هؤلاء جميعاً مؤمنون هو أول الكلام وليس آخره، وسورة الفتح مثلما أنها تتحدّث عن صفات المؤمنين وفضائلهم الاجتماعية المطلقة، هي أيضاً تتحدّث عن المنافقين، فلماذا تستدل بها على إيمانهم ولا نستدل بها على نفاق من تمنّى أن يكون مع المؤمنين للفوز بالغنيمة؟ والله أعلم بحقائق الأمور.

لا من جهة الإيمان وهو اختيار الجبائي[1]، ولعلّنا نستطيع حسم الجدل في وجوه تفسير هذه الآية مما جاء في سورة الفتح، حيث بيّن تعالى، كيف أنّ الأعراب وأهل النفاق قد تمنّعوا عن مرافقة الرسول ﷺ إلى مكّة، وإلى الحديبية تحديداً، ولكنهم لما لاح لهم بارق الفضل من الله تعالى بالمال والغنيمة رأيتهم يقولون ذرونا نتبعكم، كما قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]، وقد سبق هذه الآية ما يُفيد كفر هؤلاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾[3]، أي ناراً مسعّرة ونكر تهويلاً ووضع الكافرين موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالكفر[4]. وإذا كان لا بدّ من حسم الموقف من هؤلاء الذين ادّعوا الفوز العظيم فيما لو كانوا مع المؤمنين، فإنّه يكفينا ما نقل عن صادق آل محمد ﷺ فيما روي عنه أنه قال: «**لو أنّ أهل السموات والأرض قالوا قد أنعم الله علينا إذ لم نكن مع رسول الله ﷺ لكانوا بذلك مشركين**[5]».

غاية القول: إنّ الذي يعنينا من سياق الآية هو ما زعمه هؤلاء من فوز عظيم، حيث رأينا كيف أنهم قد التبس الأمر عليهم، فندموا على ما فاتهم من الفضل، لأنهم لم يكونوا على يقين بالجزاء كما رأينا عند الطوسي قبل قليل، وهذا كلّه إنّما كان استجابة لهتاف الشيطان بأن لا يكونوا مع الرسول ﷺ، ما أدّى بهم إلى أن يعتبروا الفوز كل الفوز، بل الفوز العظيم في التخلّف عن الجهاد طمعاً بالحياة والمال وما يماثله! وكثيرون هم الذين وقعوا في شرك الشيطان، وخذلوا الأنبياء

(١) الطبرسي، مجمع البيان، م. س، ج٣، ص١٢٩.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٥.

(٣) سورة الفتح، الآية: ١٣.

(٤) شبّر، عبد الله، تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص٦٤٣.

(٥) يقول العلامة الطباطبائي في فهم كلام الصادق عليه السلام: إنّ المراد بالشرك في كلامه عليه السلام، الشرك المعنوي لا الكفر الذي يسلب ظاهر أحكام الإسلام ممّن تلبّس به. انظر: الميزان، م. س، ج٤، ص٤٣٣.

والرسل والأولياء حرصاً على الحياة وطمعاً في المال والثروة!؟

لقد ردّ القرآن على هؤلاء حاسماً للموقف بأن القتال في سبيل الله تعالى هو الفوز العظيم الذي مدحه الله تعالى مبيّناً أن الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة هم الفائزون، ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلِب، هو الفائز الفوز العظيم والحاصل على الأجر العظيم خلافاً لما زعمه ويزعمه أهل الكفر والنفاق من فوز بحطام الدنيا، رغم أن القرآن لا يقف موقفاً سلبياً من زينة الدنيا ومتاعها، إذ هناك الكثير من الآيات المباركة التي تدعو الإنسان إلى أن يأخذ نصيبه من الدنيا، وأن يبتغي فيما أتاه الله الدار الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ...﴾[1]، لسنا نريد في هذا البحث أن نلج إلى فقه آيات الزينة وما ذهب إليه علماء التفسير في شأنها من حيث كونها زينة ممدوحة أو مذمومة، هذا فضلاً عن اختلافهم حول المزين[2]، هل هو الله تعالى؟ أم الشيطان؟ ولا شكّ أنّ هذا المبحث هو في غاية الأهميّة فيما لو تسنّى لنا أن ندخل فيه، نسأل المولى العليّ القدير أن يوفقنا لذلك في بحوث مقبلة.

إذن، الدنيا ليست بحدّ ذاتها مكسباً، لأنها ليست دار القرار، ولا دار حيوان، وإنما هي دار اختبار وامتحان، وإذا كان الأنبياء والأولياء قد زهدوا فيها، فذلك لم يكن منهم زهداً بحلالها، أو بطيّباتها، لقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو الإنسان إلى الزهد والتقوى والعمل للآخرة من خلال الدنيا، كما قال علي عليه السلام لأولئك الذين أساؤوا فهم الدنيا وذمّوها من غير معرفة بما يجب أن يقولوه في معناها، قال الإمام عليه السلام: «**إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، مسجد أنبياء الله ومهبط وحيه ومصلّى ملائكته ومتجر أوليائه**

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.

(٢) را: الشريف الرضي، حقائق التأويل، مؤسسة البعثة، إيران، ١٤٠٦هـ، ج١، ص١٦٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنّة، فمن ذا يذمّها وقد أذنت ببينها ونادت بفراقها ونعت نفسها، فشوقت بسرورها إلى السرور، وحذّرت ببلائها إلى البلاء تخويفاً وتحذيراً وترغيباً وترهيباً، فيا أيها الذامّ للدنيا والمغترّ بغرورها متى غرّتك، أبمصارع آبائك من البلى، أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى...»[1].

وفي كلام آخر يقول الإمام علي عليه السلام: «**فإنّما مثل الدنيا مثل السم يأكله من لا يعرفه**»، وقوله عليه السلام: «**لا حياة إلاّ بالدين ولا موت إلاّ بجحود اليقين فاشربوا من العذب الفرات ينبهكم من نومة السبات، وإياكم والسمايم المهلكات...**»[2]، وقوله عليه السلام: فاشربوا من العذب الفرات، هو إشارة إلى الإمام نفسه عليه السلام، كونه الإمام الناطق، والقرآن العيني على حدّ تعبير العلاّمة آملي في بحوثه القرآنية[3]. كما أنّه إشارة منه عليه السلام إلى ضرورة الاهتداء بالقرآن لكونه يشكل مع الإمام الناطق به والمترجم له حقيقة الهداية الإلهية للبشر، ولعلّ ما ذهب إليه العلاّمة مطهّري، هو خير ما يمكن لحاظه في هذه المبحث، وذلك من خلال تركيزه على أن الإمام عليه السلام قد بيّن حقيقة ما هي عليه الدنيا من معنى، فلا ينبغي الذمّ لها أو الزهد بها على النحو الذي يمنع الإنسان من الكدح والجهاد والقيام بأمور الدين والدنيا، يقول الشهيد مطهري: «**إنّ الانعتاق الذي يدعو إليه الإمام في وصف الدنيا، لا يعني الانعزال عنها، بل يعني دخول معركة الحياة بترفّع والتخلّص من كل الذاتيات، والذوبان التام في المبدأ والتضحية المستمرة على طريق أهداف الرسالة، إنها تعني ممارسة الحياة، ممارسة القائد لها لا المنقاد، والموجه لمسيرتها لا التابع لها، هكذا كان أمير المؤمنين علي عليه السلام**»[4].

---

(١) را: الشيخ المفيد، الإرشاد، م. س، ص١٥٧.

(٢) م. ع، ص١٥٦.

(٣) انظر: آملي، جوادي، الإمام علي الرضا والقرآن، دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ص٨١ ـ ٨٥.

(٤) مطهري، مرتضى، إحياء الفكر في الإسلام، م. س، ص٤٦.

لقد بيّن الإمـام علي عليه السلام في كلامه أن الدنيا هي طريق الفوز الحقيقي للإنسان، لأنّ الله تعالى أراد لها أن تكون معبراً لحياة الإنسان في الآخرة، فإذا لم تؤدِّ بالإنسان إلى السلامة والفوز، فتكون وبالاً عليه كحال الذين يعتقدون أن الفوز إنما يكون في لذّاتها وأموالها وفي كل ما لا يبقى للإنسان، ولا يبقى الإنسان له. ولهذا، نرى القرآن يركّز على أن اللذّة الحقيقية تكمن في ما أحلّه الله، وكما يقول مطهّري: «**وليس ثمة لذّة واقعية فيما حرّم الله، وإن خال الإنسان أنها لذّة، فالحرام وبال بعينه، وليس هناك لذّة دنيوية تحرم الإنسان من لذّات الآخرة، بل هي المحرمات التي يخال مرتكبيها أنها لذّة وما هي بلذّة...**»[1].

إنّ الخطأ الذي يمارسه الإنسان ضدّ نفسه في كثير من الأحيان، هو أن يعتبر الفوز العظيم في لذّة، أو في غنيمة، أو في مكسب مادي، أو أن يتخذ من الشهوات واللذائذ وزينة الحياة سبيلاً إلى المعصية والخسران، فإذا لم يعقل الإنسان حقيقة خلافته في الأرض، ولم يسمع نداء الرحمن الرحيم الذي جاء به الأنبياء، فإنّه سيكون على خسران مبين حتماً، وهذا ما سيكون موضوعاً لبحثنا في الفصول اللاحقة إن شاء الله، وقد رأينا فيما سبق من تأسيسات وقواعد منهجية لبحثنا، كيف أن الله تعالى قد ضمن الفوز العظيم في ما أوحى به إلى الأنبياء والأولياء باعتبارهم القدوة الحسنة للناس، فلا ينبغي تجاهل ما كانوا عليه من اختبار وابتلاء في طريق الهداية لتحقيق الفوز العظيم، في مقابل أولئك المترفين والفراعنة وأتباعهم الذين ظنّوا أن الفوز إنّما يكون بالتوفر على الملذّات والشهوات والتعصب لآثار ومواقع النعم، الذي أدّى بهم إلى أن يكونوا أسرى المترفين والطواغيت في كل زمان ينعقون مع كل ناعق، ويميلون مع كل ريح، ولا يلجأون إلى ركن وثيق، ثم يدّعون أنّهم على فوز عظيم!! ويوم القيامة يتحسّرون على ما هم فيه، ويطلبون العودة ليتبرّأوا من

(١) م.ع، ص٤٧.

المستكبرين كما بيّن الله تعالى في سورة البقرة[1].

إذن، الفوز في الدنيا، كما يظنّ البعض ليس فوزاً في الحقيقة، فيما لو كان قوامه ما حرّمه الله تعالى، أو معصية الله ورسوله، بل هو انخداع بمظاهر الحياة وجهل بهدفية الخلق من العبور من هذه الدنيا إلى حيث الخلود، وقد حذّر الأنبياء من الاستماع إلى هتاف الشيطان الذي يوحي لأوليائه زخرف القول غروراً، ويدعوهم إلى أن يكونوا أصحاب السعير، هذا فضلاً عمّا يدعوهم إليه في استهزاء واستخفاف، وتحقير للأولياء والصالحين. فإذا جعل الإنسان من نفسه تعبيراً عن هذا الشيطان، فلن يكون له فوز حقيقي، حتى ولو فاز بالدنيا كلها إلاّ أن يقيم حقّاً أو يدفع باطلاً. كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لابن عباس حين سأله ما تساوي هذه الدنيا عندكم؟ وكان جواب الإمام عليه السلام أنها لا تساوي شيئاً إلاّ أن تكون تعبيراً عن أمر الله ونهيه وطاعة رسوله وأولي الأمر، من افترض الله طاعتهم ودعا إلى ولايتهم. أما أن يدّعي الإنسان الفوز العظيم لمجرّد أنّه تمنّى أن يكون له شيئاً من المال، فذلك ليس فوزاً، بل هو سفه وجهل بحقائق الأمور، ومواطن النعم، ومدارك الفوز والسلامة...

هناك فرق كبير بين أن يكون الفوز فوزاً حقيقياً، وبين أن يكون وهماً وانخداعاً وانجذاباً إلى الحرام، حتى أنه يمكن القول إنّ الفوز ليس مجرّد التزام عبادي، أو طاعة مجرّدة عن الواقع، أو زهد في الدنيا بحيث يهرب الإنسان منها خلافاً لما أمر الله به، بل هو التزام حقيقي بطاعة الله تعالى ورسوله وأوليائه في ميدان الحياة.

وعليه، فإنّه لا معنى لأن يترك الإنسان الدنيا هروباً من المسؤولية، أو خوفاً من القيام بحقّ الله وعباده، كما أنّه لا معنى لأن ينشد الإنسان الفقر والحرمان ظنّاً منه أن في ذلك سبيلاً إلى الفوز في الآخرة، فإنّ ذلك كلّه ليس من الفوز الحقيقي، لأن الله أمر بالجهاد في سبيله، ودعا إلى أن تكون الدنيا كما يريد سبحانه لا كما يريد

(١) قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

الإنسان، باعتبار أن الله تعالى شاء أن تكون الدنيا متجراً للعبادة ومسجداً للهداية، ومهبطاً للوحي، فيها تكتسب الرحمة، وفيها تربح الجنّة، وهذا كله إنما يعني أن يكون الإنسان حيث أمره الله تعالى، وأن يفتقده حيث نهاه ليكون تعبيراً عن الحق ودليلاً إليه، يجاهد في سبيل الله تعالى، ويقوم بالحقوق، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقيم العدل ويحقق المساواة، ويبذل في سبيل الله تعالى، ويصبر على الحقوق والنوائب، كما قال الإمام علي عليه السلام واعظاً للإنسان: «**فمن أتاه الله مالاً فليصل به القرابة، وليحسن منه الضيافة، وليفكّ به الأسير والعاني، وليعط منه الفقير والغارم، وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب، ابتغاء الثواب، فإنّ فوزاً بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ودرك فضائل الآخرة إن شاء الله تعالى**»[1].

لاحظ كم هو دقيق وعميق وجليل كلام الإمام علي عليه السلام في وعظ من يعيش الدنيا ويتنعّم بمالها ومتاعها، فهو لا يدعوه إلى التخلّي عن الدنيا بل إلى العمل فيها شرط أن يكون مبصراً بالمال والمآل، وملتفتاً إلى حقيقة الموت والفناء، بحيث يكون له من ذلك العبرة والاعتبار، والفوز في الدين والدنيا والآخرة. ذلك هو معنى الفوز الحقيقي في الدنيا. أما أولئك الذين فازوا بالشرور والمعاصي، وتذرّعوا بشتّى الحيل، وقالوا إنّ بيوتنا عورة إلى غير ذلك مما عرف عن أهل الكفر والنفاق، وأصابوا ملذّات الدنيا وافتخروا بها على الفقراء والمساكين، وظنّوا أنّ ما هم فيه هو من مواطن الرضا والفوز والرضوان، فذلك مما ردّ عليه القرآن وسمّاه بالمتاع والغرور والخسران المبين متوعداً أهله وزاعموه بالوبال والعذاب في جهنّم يصلونها وبئس القرار، كما قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾[2].

(١) الإمام علي عليه السلام، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، م. س، الخطبة: ١٤٢.
(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

إنّ توهّم الفوز والفخر والتعصّب في الدنيا، كل ذلك ناشئ من كون المترفين والمنافقين ومن لحق بهم من أهل المعاصي، قد استغرقتهم الدنيا، فحالت بينهم وبين أن يكونوا على بصيرة من أمرهم سواء في الدين، أم في الدنيا.

ولهذا، فهم توهّموا الفوز، بل الفوز العظيم كما جاء في ذيل الآية المباركة، في حين هو الخسران المبين، كما بيّن القرآن في كثير من الآيات، وخاصة في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[1]. فالآية ناظرة إلى أن الإنسان قد يكون مؤمناً بالله تعالى، ولكنه قد يخطئ في طريق الكدح إليه فيظنّ الخير شرّاً، والشرّ خيراً، أو الفوز الحقيقي خسراناً، أو العكس، وهذه صورة من صور البؤس والخذلان والنفاق والخسران، التي قد يتسبّب بها الإنسان لنفسه حينما يبتعد عن خطّ النبوّة، ويتعصّب لآثار مواقع النعم، فيخسر الدنيا والآخرة معاً.

---

(١) سورة الكهف، الآيات: ٣٤ ـ ٣٦. هناك لطيفة قرآنية يجدر بالباحث التدبّر بها والاستيقاظ لها، حيث نرى أن القرآن في سورة النساء بيّن حال المنافقين فيما ذهبوا إليه، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾، وفي سورة الكهف، آية ٣٦، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ إذ في الآية الأولى يقول المنافق: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، وفي هذه يقول المتكبّر: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ...﴾ فما السرّ يا ترى بأن هؤلاء يؤمنون بالله تعالى وينسبون النعمة والفضل له، ثم تراهم لا يعبرون عن هذا الإيمان في الظاهر، بحيث يكون فعلهم انعكاساً وتعبيراً عن إيمانهم؟ يقول العلاّمة مغنية في الإجابة على هذا السؤال: «إنه نفاق بإظهار الإسلام والإيمان بالرسول ﷺ وإضمار الكفر بنبوّته، وهذا لا يتنافى مع الإقرار بالخالق، فما كلّ من آمن بالله آمن بالنبي ﷺ، وقد أخبر الله أن من الناس مَن يؤمن به، وفي الوقت نفسه يؤمن بغيره، أو بمن يقرّبه إليه زلفى؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾. ومن هذه اللطيفة القرآنية نعود بالكلام إلى العلاّمة الطباطبائي لنؤكّد له أن آيات سورة النساء لم يتصرف بها الفقهاء وعلماء التفسير على النحو الذي يكون فيه التصرف بالظاهر على غير وجه، بل هو وجه حقيقي لمنطوق ومفهوم الآية المباركة، التي قد يصحّ القول فيها أنها تعني المنافقين ليس إلاّ...

انظر: مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨١، ج٢، ص٣٧٦.

لقد بيّن القرآن الكريم أن الفوز الحقيقي، إنّما يكون بالطاعة لله ورسوله، والخضوع للسنن الحاكمة في الوجود، وفي ميدان الاجتماع الانساني، ولهذا نجد القرآن يعظ الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم، وخاصة بني إسرائيل، لتتّعظ وتعتبر بما جرى للفائزين، بحيث تنتبه من رقدة الغفلة، وتسلك سبيل الحق فيما جاء به الأنبياء وتابعه الأولياء والأوصياء، وقد سبق أن ذكرنا في بحوثنا حال أولئك الذين بدّلهم الله تعالى بالحسنة مكان السيئة ليتّعظوا ويأخذوا بالسنن للاعتبار، إلاّ أنّهم بعدما عفوا وكثروا. قالوا: لقد مسّ آباءنا السرّاء والضرّاء، وكانت النتيجة أن أخذوا بغتة وهم لا يشعرون[1]، وهذا إنما كان لهم عقاباً لما تمادوا بالمعاصي، وظنّوا أن ما هم فيه من نعمة، هو من عنديّاتهم، وقد سبق لآبائهم أن تعرّضوا لمثل ذلك دونما اعتبار بالأحداث والسنن!؟

مما تقدّم، نستطيع القول، إنّ الفوز الحقيقي في الدنيا لا يكون مجرّد فوز، بل هو التزام في حياة الإنسان يعبر من خلاله عن الإيمان والتقوى اتجاه الله والإنسان فضلاً عمّا يكون لهذا الفوز من آثار في الآخرة، لأن الإيمان في جوهره حياة للإنسان وسعادة وسلامة يتميّز به عن سائر المخلوقات. كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[2].

وانطلاقاً من ذلك، نرى أنّما يمكن أن يعتبره البعض فوزاً فيما قد يصيبه من مال وغنيمة، هو اعتبار ناشئ عن كون الإنسان لم يهتدِ إلى أمر الله تعالى، واتبع الآباء فيما كانوا عليه من تقليد وترف وعصبية وحميّة جاهلية، فأدّى به ذلك إلى أن يكون واهماً في فوزه، وظالماً في حكمه، وقد بيّن القرآن كيف أن القرى كانت آمنة

(١) قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ ـ ٤٤].

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

مطمئنة يأتيها رزقها رغداً فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، ما يعني أن الكفر بالنعم له آثاره في الدنيا أيضاً، ويجدر بالناس أن يعتبروا ويتّعظوا بمصائر الأمم السالفة ليكونوا في مأمن عمّا قد يتعرضون له بما يصنعون جهلاً وسفهاً، فلا يخدعون بالأوهام، بل يعتبرون بالسنن، ويتخذون من هدى الله تعالى سبيلاً ودليلاً إلى الفوز المبين في الدنيا والآخرة، وهذا ما سيكون موضع بحثنا في المبحث التالي.

إذن، الفوز في الدنيا، هو فوز في الحياة الإنسانية، قبل أن يكون فوزاً عظيماً في الجنّة. وهذا ما يفترض أن يعيه الإنسان جيداً في مسيرته الإنسانية وتحولاته الاجتماعية. وإذا كان الأمر كذلك في الدنيا، فما يكون عليه الحال في الآخرة؟ لا شكّ في أن الحال سيكون فوزاً على فوز ونوراً على نور، لأنّ الدين هو فطرة وناموس قبل أن يكون شريعة تأمر وتنهى، وهذا ما عبّر عنه الفقهاء والمفسرون بالفطرة الإنسانية التي لا تبديل لها، كما قال الله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[1].

وهكذا، فإنّ معنى أن يفوز الإنسان في حياته، أو أن يكون على دعوى الفوز فيما يدّعيه لنفسه من مال وثروة أن يستوعب هدفيّة الخلق، بحيث يعلم، كما يرى الشهيد مطهري، أن الغاية في الحياة تعود للإنسان وليس لله تعالى، فالله تعالى لا يؤدي الأفعال لتحقيق هدف وكمال، أو لسدّ نقص فيه، فإنّ فعله تعالى لا يعني الانتقال من النقص إلى الكمال. ومن هنا، والكلام لمطهّري، فإنّ مفهوم الحكمة بالنسبة إليه ليس هو انتخاب أفضل الأهداف واتخاذ أفضل الوسائل لتحقيق الأهداف في أعماله، فهذا المفهوم للحكمة يصدق على الإنسان وليس على الله تعالى، والحكمة الإلهية تعني أن عمله هو إيصال الموجودات إلى كمالها وغاياتها، وعمله هو الإيجاد. وعلمه هو التدبير والتكميل ورفع كل موجود إلى كماله[2].

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) مطهري، مرتضى، المفهوم التوحيدي للعالم، دار التيّار الجديد، بيروت، ١٩٨٥، ص٨٠.

غاية القول: إنّ ما نراه في ما يزعمه أهل الفوز لأنفسهم، ليس فوزاً حقيقياً، بل هو وهم يقوم على حبّ المال والثروة وليس على حبّ الله تعالى والطاعة له. ولا شكّ في أنّ كل فوز لا يؤسس له في ضوء المبادئ والقواعد التي عرضنا لها في بداية هذا الفصل، فلن يكون فوزاً حقيقياً، لأنّ الفوز الحقيقي هو الذي يوفّر للإنسان سعادته وسلامته وأمنه في الدنيا، ولا يضير هذا الفوز أن يكون الإنسان على بلاء وفقر ومرض وحرمان، لأنّ الأنبياء كانوا كذلك، ولم يكونوا على خوف وحزن، بل كانوا على أمن وسلام وطمأنينة وفوز في الدنيا قبل الآخرة. وإذا كان البعض يتساءل عن سبب الفصل بين الفوز في الدنيا والفوز في الآخرة في مبحثنا هذا، فإنّنا نجيبه بأن السبب هو ضرورة أن يعلم الإنسان أنه منذ أن هبط إلى الأرض ليكون له فيها مستقرّ ومتاع إلى حين، كانت الغاية ولا تزال تكميل هذا الإنسان وهدايته إلى سبيل سعادته وتأمين الفوز له في الدنيا تمهيداً لما أعدّ له في الآخرة من الفضل والرضوان. وهذا ما رأينا أنه قابل للبحث والفصل بين ما يظنّه الإنسان فوزاً وبين الفوز الحقيقي، بحيث يعلم الإنسان أن شرط فوزه وكماله، هو أن يكون على هدى من ربه. وأنّ ما اختاره الله تعالى في حكمته للإنسان هو أن يكون على خطى الأنبياء والأولياء كادحاً إلى ربّه، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1]. وبما أن الكدح لا يكون من خارج هذه الدنيا، فذلك دليل على أن ما يزعمه بعض الواهمين والمنافقين من فوز ليس فوزاً، وإنّما هو انخداع شيطاني، وانجذاب إبليسي هادف إلى تخسير الإنسان في الدنيا والآخرة، ولهذا، قال الله تعالى هادياً ومنذراً: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

(١) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

(٢) سورة النور، الآية٦٣.

المبحث الثالث

الفوز في الآخرة وسبيل الهدى

قلنا: إنّ مسوّغ الفصل بين الفوز في الدنيا والفوز في الآخرة، هو التمايز بين ما يراه الإنسان المؤمن قولاً وفعلاً، وبين ما يراه المنافق أو المترف في حقيقة الفوز، وقد رأينا أن الوهم والطمع في المال والثروة كان سبباً في إطلاق الفوز العظيم على مطامع الدنيا وملذّاتها. وفي هذا المبحث سنحاول قدر المستطاع توضيح معنى الفوز في سياق الرؤية القرآنية، لكون أكثر الآيات قد جاءت به لتؤكّد على تحققه للمؤمنين في الآخرة بلحاظ كونه متواصلاً مع الفوز في الدنيا. وهنا تكمن أهميّة وحقيقة هذا الفوز. ولعلنا أيضاً وفقنا إلى عرض الأسس والقواعد التي تساعدنا في توضيح ما أبهم على الباحثين في بحث هذا الموضوع، وخاصة لجهة تبيان الحقائق التي يرتكز إليها، والخطوات التي ينبغي اعتمادها للخلوص بهذا المبحث إلى النتائج المرجوّة. بيد أنّ هذا لا يعني أن ما عرضنا له في المبحث السابق يتصادم مع هذا المبحث، بل يتقاطع معه، وذلك من خلال جملة الآيات التي تحدثت عن الفوز في الآخرة كامتداد حقيقي للفوز في الدنيا، لأن الدنيا بذاتها، وفيما جعلت عليه وله لا تشكّل ضمانة خلاص ما لم تكن الغاية الوصول إلى الرحمة الإلهية والرضوان الإلهي في الجنّة.

ولا شكّ أيضاً في أنّ ما عرضنا له في المبحث السابق حول ما اقتضته حقيقة الهبوط الآدمي إلى الأرض، والقيام بمهمة الخلافة والتكليف كما أراد الله تعالى، هو مرتكز أساسي في هذا المبحث لما ذهب إليه الفقهاء وعلماء التفسير من أن اتباع الهدى الإلهي في الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾، يشكّل

أساساً لكل فوز سواء في الدنيا، أم في الآخرة. يقول العلامة المجلسي في بحار الأنوار: «**إنّ في اتّباع ما جاء به الأنبياء الفوز العظيم، وفي تركه الخطأ المبين، إذ جعل في اتباع أمره خير الدنيا والآخرة لما احتوى عليه كتاب الله تعالى من أمر وزجر، وحدود، وسنن، وأمثال، وأحكام، وتعاليم، وقصص وغير ذلك مما هو حجّة على الخلق إلى يوم القيامة**»(١).

إنّ في كلام المجلسي ما يؤكد على أن الفوز إنّما هو في القرآن الكريم، وفيما جاء به الأنبياء، وما الآخرة إلاّ عالماً لتجلّي الأعمال، بحيث يكون للناس فيها جزاء أعمالهم. فإذا فازوا في الدنيا بأمر الله تعالى، فإنّ الفوز في الآخرة يكون لهم مضاعفاً لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾(٢).

ومما يجب أن يُعلم أيضاً، ويُستند إليه في سياق التدليل على تحقق هذا الفوز في الدنيا على النحو الذي يكون متواصلاً مع الآخرة، قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾(٣).

لقد سبق القول في معنى انتفاء الخوف والحزن وما يكون لذلك من أثر في حياة الإنسان، وفي هذه الآية يرشد السياق إلى أن البشرى للذين آمنوا ليست مجرّدة، أو بشرى منعزلة عن عالم الآخرة، بل هي بشرى واحدة تجمع بين الدنيا والآخرة، وذلك لاستحالة الفصل في حقيقة هذه البشرى، إذ لا يعقل أن يكون الإنسان مبشراً في الآخرة، وغير متوفّر على البشرى في الدنيا، فهي حقيقة واحدة، جعلت الدنيا

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار (ت ١١١١)، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م، ج٦٤، ص٥٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٠.
(٣) سورة يونس، الآيات: ٦٢ ـ ٦٤.

مرتكزاً وسبباً لها، لأنّ الذين اتقوا هم الذين اتّبعوا أمر الله تعالى وهداه، فكان لهم الأمن والسلام والفوز المبين في الدنيا قبل الآخرة. وهنا نسأل: هل البشرى هي غير الأمن والسلام والفوز في الدنيا والآخرة؟!

وهنا ينبغي لعاقل أن يتدبّر جيداً معنى قوله سبحانه: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾. يتّقون ماذا؟ يقول علماء التفسير وقولهم حق، إنّ معنى ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في استحقاق هذا الفوز ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يتّقون طاعة غيره، وغير أوليائه، فجزاهم على ذلك بما صنعوا، فقال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ قبال أعدائهم الذين خسروا الدنيا والآخرة[1]، وهذا الكلام له مدلوله في السياق القرآني، ومن خلال ضمّ الآيات إلى بعضها البعض، كما رأينا في الاتجاه الموضوعي التوحيدي، باعتبار أن الهدى الإلهي ليس مجرداً عن سياقاته، بل كامن في الآيات القرآنية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾[2]، وقال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ...﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات التي تكشف عن أن الهدى الإلهي الذي يفوز الإنسان به، هو هدى حقيقي وله مصاديقه في الواقع الإنساني، فلا يُقال: إنّ الإيمان بالله واليوم الآخر وبالأنبياء والعدل وغير ذلك مما هو من الأصول كافٍ لأن يوصل الإنسان إلى البشرى، أو إلى الفوز العظيم، بل لا بدّ أن يكون هذا الهدى على تطبيق كامل في النظرية والتطبيق معاً، وإنّ أحداً لا يمكنه أن يبدّل كلمات الله تعالى لتكون له بشرى فيما يريد هو، بل تكون له فيما يريده الله تعالى للإنسان، وقد أراد الله تعالى للإنسان أن يكون مؤمناً وعاملاً للصالحات ومطيعاً لأولياء الله تعالى، ومتقياً لأعدائه على النحو الذي يجعله مستحقاً لهذه البشرى ولهذا الفوز، وبما أن مقتضى منهجنا أن تضمّ الآيات إلى بعضها في موضوع الفوز. فلا بدّ

(١) انظر: المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، (ت ١٠٨١هـ)، طهران، ج١، ٢٢٢.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

أن نعرض لجملة من الآيات التي توضح مطلبنا، من هذه الآيات، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾[1]، وكما نلاحظ أن سياق هذه الآيات يأتي على التقوى والقول السديد في سياق واحد مع الطاعة لله ورسوله، ثم جاء عرض الأمانة ليدلّل على أن المطلوب من الإنسان أن يكون وفيّاً لأمر الله ونهيه، بحيث يحمل الأمانة بصدق وإخلاص. وإذا كان العلماء والفقهاء قد رأوا أنّ المقصود هو عموم الأمانة فيما كلّف به الإنسان من تكاليف، فقد رأوا أيضاً أنه ما من عام إلاّ وقد خص. وقد جاء في المعاني عن الإمام الرضا عليه السلام في هذه الأمانة، قال الأمانة الولاية من ادّعاها بغير حق فقد كفر[2]، وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام، إنّها ولاية أمير المؤمنين عليه السلام[3]، وبغض النظر عمّا اشتملت عليه الروايات وأسباب النزول، فإنّه لا يسع الباحث إلاّ أن يتدبّر في سياق هذه الآية ليعلم أن تخصيص الأمانة بالولاية والإمامة لا ينافي صحة إرادة عمومها لكل أمانة وتكليف وشمول الإنسان كل مكلف لما عرفت من تعميم المعاني وإرادة الحقائق على حدّ تعبير الكاشاني في تفسيره[4]. ثمّ إنّه ما معنى أن يكون الإنسان مطيعاً لله ورسوله، غير أن يكون الإنسان على بيّنة مما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ فهل دلّنا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبيّن لنا معنى الأمانة التي عرضت وحملها الإنسان وكان ظلوماً جهولاً؟ هل هي التكاليف،

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٧٠ ـ ٧٢.

(٢) الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج١، ص٢٧٠، يروي عن القمي أنّ الأمانة هي الولاية والإمامة والأمر والنهي، والدليل على أن الأمانة هي الإمامة، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

(٣) انظر: البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، دار الهادي، بيروت، ط٤، ١٩٩٢، ج٣، ص٣٣١.

(٤) م. ع، ص٢٥٠.

أم جملة الأمانات، أم الولاية؟ هل هي التوحيد؟ أو العقل، أو غير ذلك مما عرض له مكارم الشيرازي في تفسير الأمثل[1]؟

وكيف لنا أن نتعرّف إلى خصوص ما يذهب إليه السياق، طالما أن كلّ شيء قد بيّنته السنّة النبويّة، وهذا ما جاء في كتاب سُليم بن قيس، فإنّ الرسول ﷺ قد علم الناس ليس فقط الصلاة والزكاة والحجّ وغير ذلك من العبادات وحسب، وإنّما علمهم أيضاً أن يعرفوا ولاة أمرهم ليكونوا مطيعين لهم في كل زمان ومكان، فلا يُعقل أن يكون الرسول ﷺ قد بيّن للناس معنى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، ولم يبيّن لهم معنى قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فالعجب كل العجب مما يذهب إليه كثير من العلماء الذين وصل الأمر ببعضهم إلى أن يقول بأن الذي عنده علم الكتاب هو عبد الله بن سلام، وغيره من الصحابة[2]، وكأن قوله ﷺ: «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها**»، لم يكن معروفاً ولا مشهوراً...؟.

إنّ طاعة الله ورسوله في سياق الآية، ثم عرض الأمانة، ثم الفوز العظيم، كل ذلك إن دلَّ على شيء، فإنّه يدلّ على تحقيق الفوز العظيم في الدنيا وفق شروطه التي أفصح عنها البيان النبوي في كثير من الآيات والأحاديث، فلا يُقال: إنّ الكتاب كافٍ بذاته لتحقيق هذا الفوز طالما أن القرآن يهدي إلى التي هي أقوم، أي إلى الإمام الهادي إلى سبيل الله، وكيف لا يكون هذا الأمر صحيحاً، وقد بيّن القرآن أنّ

(١) الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ج١٠، ص٤٩٤.

(٢) انظر: الواحدي النيسابوري، (ت٤١٨هـ) تحقيق صفوان عدنان، ط١، ١٤١٥هـ، دمشق، دار القلم، ج١، ص٣٠٢. والعجب العجاب أن يُقال في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، هم مؤمنو أهل الكتاب وكانت شهادتهم قاطعة لقول أهل الخصوم... وقالوا عن قتادة: هو عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي، وآخرون قالوا: هو الله تعالى باعتبار أن السورة مكية وعبد الله أسلم في المدينة أما الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل، فهو يقول: عن أبي سعيد الخدري قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: ذاك أخي علي بن أبي طالب». را: ج١، ص٤٠٠، مرجع سابق.

لكل قوم هادٍ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1]، إضافة إلى كثير من الآيات التي توضح في سياقاتها المختلفة أن الفوز العظيم لا يتحقق ما لم يؤخذ بشرطه وشروطه والإمامة هي من شروط هذا الفوز فيما لو أراد الإنسان فوزاً وخلاصاً وسلامة في الدنيا والآخرة...

لقد سبق لنا أن عرضنا في مفهوم الفوز المبين إلى آية السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهي آية، كما ـ رأى العلماء ـ تفيد في سياقها أن شرط الفوز العظيم فيها هو الاتباع بإحسان للأولياء والصالحين، حيث قال الله تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[4].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٧.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٠. في الكافي والعياشي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: فبدأ بالمهاجرين الأولين على درجة سبقهم ثم ثنّى بالأنصار، ثم ثلّث بالتابعين بإحسان فوضع كل قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده (رضي الله عنهم) بقبول طاعتهم وارتقاء أعمالهم (ورضوا عنه) بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية... وذلك هو الفوز العظيم.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٤) سورة الحديد، الآية: ١٢.

هناك ثلاثة عشر آية من القرآن الكريم جاءت بلفظ ومفردة الفوز العظيم، وثلاث آيات بلفظ، وفوزاً عظيماً، وآيتان بلفظ، الفوز المبين، إضافة إلى آيات كثيرة جاءت بلفظ الفائزين، وغير ذلك مما ختمت به آيات كثيرة، وكلها جاءت في سياق الإيمان والطاعة والجهاد وعمل الصالحات والتقوى، والاتباع بإحسان.. فإذا أراد الباحث أن يضمّ هذه الآيات بحيث يجمع بينها لبحث موضوع الفوز في القرآن، كما هي محاولتنا في هذا البحث، فإنّه إن فعل ذلك لا بدّ أن يخلص إلى النتائج الآتية، وهي:

أولاً: إنّ الفوز العظيم في الآخرة، إنّما يكون في ضوء حركة الإنسان ووعيه وإيمانه في الحياة الدنيا، ونقصد بالحركة الواعية أن يكون الإنسان مطيعاً لله ورسوله، وقائماً بأمر الله تعالى في الحياة كما أراد الله تعالى.

ثانياً: إنّ سياق الآيات في كثير منها يُفيد أن تحقق الفوز في الدنيا يجب أن يسبق ما وعد به الإنسان في الآخرة، وهذا الفوز لكي يتحقق لا بدّ أن يتوفر الإنسان على شروط وخصائص ومواصفات بيّنها الهُدى الإلهي فجعلها شرطاً لكل فوز في الدنيا والآخرة، ولا بدّ من اتباع الهدى الإلهي حتى لا يضلّ الإنسان ولا يشقى، وهذا لا يكون إلاّ بالتوفّر على شروط الفوز من خلال الطاعة والولاية، وقد بيّن الشيخ الطوسي في تهذيب الأحكام[1]، والشيخ المفيد في الإفصاح[2]، والعلامة المجلسي في البحار[3]، أنَّ شراء الأنفس من المؤمنين لا يكون لمجرّد الجهاد بالنفس والمال، وإنّما يكون بالتوفر على مواصفات﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، تحقيق حسن الخرسان، دار الكتب الإسلامية، ط٤، ١٣٥٦هـ، ج٦، ص١٣٠.

(٢) الشيخ المفيد، الإفصاح في إمامة أمير المؤمنين، تحقيق مؤسسة البعثة، قم، ط١، ١٤١٠هـ، ج١، ص١٤٨.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، م. س، ج٨٩، ص٣٥.

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾، لكون هذه الآية جاءت جواباً على سؤال لرسول الله ﷺ، هل الآية هي لكل من جاهد في سبيل الله، أم لقوم دون قوم. فقال الإمام أبو جعفر عليه السلام: إنّه لما نزلت هذه الآية على رسوله سأل بعض أصحابه عن هذا فلم يجبه، فأنزل الله تعالى عليه عقب ذلك الآية وما تشتمل عليه من مواصفات، حيث أبان الله تعالى بها صفات المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فمن أراد الجنّة فليجاهد في سبيل الله على هذه الشرائط، وإلاّ فهو من جملة من قال رسول الله ﷺ: ينصر الله هذا الدين بقوم لا خلاق لهم[1]. ومثل هذا الكلام أيضاً يمكن أن يسمعه الباحث حول قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ..﴾.

يقول الشيخ المفيد: «**إنّ الله تعالى لا يعد أحداً بالثواب إلاّ على شرط الإخلاص والموافاة بما يتوجه الوعد بالثواب عليه، وأجل من أن يُعرى ظاهر اللفظ بالوعد عن الشروط لما في العقل من الدليل على ذلك. وإذا كان الأمر كذلك، فالحاجة ماسة إلى ثبوت أفعال الجميع في السبق والطاعة لله تعالى في امتثال أوامره ظاهراً وباطناً على وجه الإخلاص ثم الموافاة بها على ما ذكرنا حتى يتحقق الوعد بالرضوان والنعيم المقيم والفوز العظيم[2]، فأين يتاه بالذين يأخذون بالآيات وفق الرأي والهوى، ويطلقون العنان لأقلامهم ليقولوا على الله تعالى غير الحق؟ بل أين هم مما تنطوي عليه آيات الفوز العظيم، والفوز المبين، والفوز الكبير، من معانٍ ودلالات تحتّم على كل فقيه، أو باحث أن يتدبّر فيها ليدرك حقيقة ما يعنيه بيع النفس لله تعالى، أو أن يكون الإنسان من السابقين الأولين!؟، أو من الصادقين؟**

(١) الطوسي، تهذيب الأحكام، م. س، ج٨٩، ص٣٥.

(٢) المفيد، الإفصاح، م. س، ج١، ص٧٨.

وكيف كان، فإنّ ما نروم تبيانه في هذا المبحث، هو أن نستوفي الفكرة الأساسية منه، وهي أن الإنسان لكي يفوز فوزاً عظيماً، فلا بدّ أن يكون ممن وصفتهم الآيات، وهنا السؤال الحقيقي، كم هو عدد أولئك الذين ثقلت موازينهم وربحوا في تجارة البيع والشراء مع الله تعالى، كما هو مفاد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[1].

ذلكم هو بيت القصيد، أن يكون الإنسان على تجارة رابحة في ميدان الإيمان والجهاد لتكون له جنّات عدنٍ، باعتبار أن الفوز ليس منحةً إلهية للإنسان بمعزل عمّا يكون عليه في حياته، ذلك أن الله تعالى لا يخلف في الميعاد، وقد توعّد العاصين بأن يكونوا في جهنّم، كما قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴾[2].

أما من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً، والشكر هو الإثابة على العمل والقبول له، وقد روي عن النبي ﷺ: «**ومن أراد الآخرة فليترك زينة الحياة الدنيا**»[3]، فهو لم يقل طيّبات الدنيا، وإنّما قال الزينة بما هي حرام وإثم ومعصية لله تعالى.

مما تقدّم، نستطيع القول: إنّ سياق الآيات القرآنية في الفوز العظيم يرشد إلى أن هناك أفراداً في الأمة، في كل أمة، يستحقون أن يكونوا في مصاف ما أعدّ لهم

(١) سورة الصف، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٨.

(٣) في المجمع عن النبي ﷺ في معنى الآية: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ بعمله افترضه الله عليه لا يريد به وجه الله والدار الآخرة، عجّل له ما يشاء الله من عرض الدنيا وليس له ثواب الآخرة، وذلك أن الله تعالى يؤتيه ذلك ليستعين به على الطاعة فيستعمله في المعصية فيعاقبه الله عليه».
را: الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج٢، ص٢١٠.

من النعيم المقيم، لأن المواصفات التي تعرض لها الآيات تستبطن الإجابة على كثير من الأسئلة التي قد يخطر للبعض أن يسألها أو يناقش بشأنها، وذلك أن الآيات فيما تبدأ به وتنتهي إليه من فوز عظيم، أو مبين، أو كبير، هي غالباً ما ترشد إلى الأنبياء والأولياء والتابعين لهم بإحسان، بل إنها في كثير من سياقاتها ترشد إلى المصداق الأكبر في مجال التحقق الحياتي للإنسان، على اعتبار أن لكل وصف مصاديقه، كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[1]. فالآية، كما نرى، تأتي على ذكر الصدق في القول والعمل، وكلّنا يعلم أن مصداق هذا الوصف له تجلّياته في القرآن الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[2]، وهذا أمر إلهي يقضي باتباع الصادقين[3]، وهل يمكن أن يأمر الله تعالى بإطاعة من يأتي بالذنب أو المعصية، أو غير ذلك مما نهى الله عنه؟ وقد بيّن علماء الأصول أنه أمر يستحيل أن يجتمع مع نهي في كلام الله تعالى

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

(٣) هناك جملة من الآيات التي يستكشف الباحث من خلالها أن الصادقين قد عرّفوا في القرآن على النحو الذي لا يبقى مجالاً للشك بأن الصادق الذي يأمر الله تعالى باتباعه هو المؤمن على هدى الله، وهنا نسأل هل من الصدفة أن يكون رقم آية: ﴿يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، هو ذاته رقم آية: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾؟ هذا للتدبّر، ثم إن جملة الآيات كما أشرنا توضّح أن من يتوفّر على صفاتها لا يكون أي انسان اتفق، بل هو الإنسان الذي يأمر الله تعالى باتباعه. والآيات هي الآتية:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال الله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨].

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي فعل واحد؛ ما يعني أن يكون الصادق قدوة ومعصوماً، وهذا الإنسان المعصوم هو المصداق الأبرز فيما ترشد إليه الآية من صدق ونفع، ويمكن للباحث أن يتأمّل فيما ذكره المفيد في فهم هذا الكلام الإلهي ومدلوله في المسائل العكبرية[1].

إنّ الله تعالى لا يأمر وينهى في فعل واحد، فهذا أمر لا يقبل من الإنسان، فكيف يقبل من الله تعالى. وعليه، فإنّ معنى أن يكون الفوز محققاً للإنسان، أن يكون لهذا الفوز قدوة في حياة الإنسان، وإلاّ استحال تحقيق هذا الفوز. ولهذا، فإنّ الله تعالى قد خلق الخليفة قبل الخليقة، وجعله قبل الخلق ومع الخلق، وبعد الخلق[2]، هذا الخلق إنّما كان من الله تعالى بهدف إيصال الإنسان إلى كماله من خلال الطاعة لله ورسوله وأولي الأمر الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. وإن كنّا قد أغفلنا الحديث عن بعض المطالب، فذلك لم يكن سهواً منّا عن التفصيل في سياق هذا المبحث، وإنّما أردنا أن نوضّح الحقيقة التالية، وهي أن الفوز العظيم لا بدّ أن تكون الدنيا منطلقه وصيرورته تمهيداً للآخرة، وقد أخفق الكثيرون في تحقيق هذا

---

(١) يقول الشيخ المفيد في المسائل العكبرية في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. وقد ثبت أن المنادَى به غير المنادَى إليه، وأن المأمور بالاتباع غير المدعو إلى اتباعه، فدلّ ذلك على أن المأمورين باتباع الصادقين ليسوا هم الأمة بأجمعها، وإنّما هم طوائف منها، وأن المأمور باتباعه غير المأمور بالاتباع، ولا بدّ من تمييز الفريقين بالنص، وإلاّ وقع الالتباس وكان فيه تكليف ما لا يطاق، فلمّا بحثنا عن المأمور باتباعه وجدنا القرآن دالاً عليه في قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. فذكر سبحانه فعالاً تقتضي لصاحبها بمجموعها التصديق والصدق، ودلّ على أنه عنى بالصادقين الذين أمروا باتباعهم من جمع الخلال التي عددناها دون غيره.. ولم نجد أحداً كملت له هذه الخصال المذكورة في القرآن من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ أمير المؤمنين عليه السلام ...

را: أجوبة المسائل الحاجبية أو المسائل العكبرية، للشيخ المفيد، محمد بن النعمان، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص٦١ ـ ٦٢.

(٢) را: الصدوق، محمد بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص١٦.

الفوز لكونهم اختاروا غير سبيل المؤمنين، وزهدوا في الدنيا على غير وجه اليقين، واختاروا أن يكونوا من الخاسرين، فكان لهم ما أرادوا فيما اختاروه لأنفسهم من اجتهاد في الدين والدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[1]. أما الذين اتبعوا سبيل الله تعالى، فلهم جنّات عدنٍ، كما قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

(١) سورة غافر، الآية: ٦.

(٢) سورة غافر، الآيتان: ٨ ـ ٩.

الفصل الثالث

الفوز والرضا والفضل الكبير

◊ تمهيد الفصل

◊ المبحث الأول: الرضوان وسبل السلام

أ. الإيمان والرضوان

ب. الرضوان ونعيم الجنّة

◊ المبحث الثاني: الفضل والرضوان وثواب الأعمال

أ. الفضل والثواب في الدنيا

ب. الفضل والثواب في الآخرة

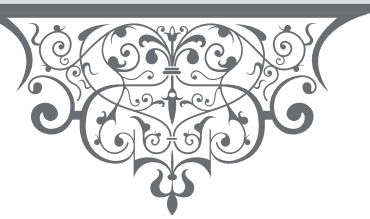

تمهيد الفصل

لا شكّ في أن ما تقدّم في معنى الفوز ليس كافياً ما لم يأتِ البحث فيه شاملاً لجملة من الآيات المباركة، التي عبّرت عن الفوز من حيث كونه درجة عالية خصّ الله تعالى بها المؤمنين والمؤمنات في الدنيا والآخرة، سواء على نحو البشرى، أم على نحو الرضا، أم الفوز العظيم، أو غير ذلك مما اختلفت التسميات القرآنية حوله، وقد سبق الكلام منّا في معنى أن يكون الفوز في الدنيا، أو في الآخرة فيما يكون عليه الإنسان من حالات التزام وولاء وطاعة لله تعالى ورسوله ﷺ، وفي هذا المعنى سنحاول قدر المستطاع أن نلمّ بجملة من الحقائق حول مدى العلاقة الوثيقة بين مفاهيم الفوز والرضوان، والفضل الكبير، حيث تبيّن لنا أن معظم العلماء والمفسرين قد لحظوا معنى الفوز والرضوان في سياق واحد، ولم يفصلوا بين المفاهيم، اعتقاداً منهم بأن الفوز العظيم، هو الخلاصة والنتيجة القصوى لما يكون من أعمال صالحة في حياة البشر، تؤدّي بهم إلى أن يكونوا على فوز عظيم في الآخرة فيما أعدّه الله تعالى لهم من منازل ودرجات تميّزهم عن سائر الخلق، ونحن وإن كنّا لا نختلف معهم حول هذا التوصيف، إلاّ أنّه يمكن أن يكون لنا رؤية أخرى وموقف مختلف لجهة القول: بأنّ الفوز العظيم له هذا التحقق على مستوى الأعمال، إلاّ أنّه جاء في سياق أوصاف مختلفة ودرجات متمايزة في آيات الله تعالى.

ويمكن لنا أن نستدلّ على رؤيتنا هذه من خلال جملة من الآيات القرآنية التي جاء فيها الفوز العظيم مختلفاً عمّا إذا كان فوزاً مبيناً، أو فوزاً كبيراً. إضافة إلى رؤية أخرى تتعلّق بحقيقة الرضوان، والرضا، والفضل الكبير، إلى غير ذلك مما جاءت

السياقات القرآنية مختلفة فيه، ومعبّرة عنه فيما توحي به من إشارات تدلّل على أنّ الفوز العظيم لكي يكون عظيماً، لا بدّ أن يتوفّر على جملة من الشروط والمواصفات تجعله كذلك باعتبار أنّ الآيات القرآنية تعدّد الكثير من المواصفات التي تسبق الوصول إليه، فإذا لم يتوفّر الإنسان على جملتها، فلن يكون فوزه عظيماً.

وكماسنلاحظ في ثنايا مباحثنا المقبلة أن الفوز العظيم قد سُبِق بالمغفرة والرحمة والرضوان، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، و﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾، إلى غير ذلك مما أعدّه الله تعالى للمؤمنين في الآخرة، هذا فضلاً عمّا سبق به هذا كله من دنيا يعيشها الإنسان، وقد جُعلت له ممرّاً ليُمتحن بها بل وليُمحّص بها ليكون مستحقاً ما وعده الله تعالى به، إذ إنّ أحداً لن يكون له الفوز العظيم، إلاّ إذا فاز في امتحان الدنيا، وكان له الخيار والإرادة في أن يتّخذ مما أنعم الله به عليه سبيلاً ووسيلة للفوز في الآخرة.

ولهذا، نجد الكثير من الآيات المباركة تربط بين حالات الدنيا والجزاء في الآخرة على النحو الذي يؤكّد أنّه لا فوز من خارج الدنيا لأحد من البشر. وقد تقدّم الكلام في معنى الهبوط الآدمي وما خُصّ به هذا الهبوط من مستقرّ ومتاع إلى حين، ومن هدى إلهي يُسدد الإنسان في طريق فوزه بالدنيا والآخرة معاً. وإذا كنّا قد أشرنا إلى بعض نتائج وحقائق هذا الهبوط، فإنّه لا يسعنا في هذا التمهيد إلاّ أن نقدّم في بحثنا هذا رؤية أخرى حول ما ينبغي الالتفات إليه في طريق الكدح إلى الله تعالى، وهي ما خُصّ به الإنسان من أوصاف في الآخرة، من رضوان، وجنّات عدن، ونعيم مقيم، ومساكن طيبة، والذي وصفه الله تعالى بالفوز العظيم في كثير من الآيات القرآنية.

وبما أنّ هذا المبحث لا يتّسع لبحث قرآني موسّع، فإنّه يمكن لنا الاكتفاء بالتدبّر في مدلول بعض الآيات المباركة لعلّنا نوفّق إلى اكتشاف المزيد من الدلالات من خلال ملاحظة السياق القرآني، حيث يتبيّن لنا أن الرضوان الإلهي له درجاته

ومنازله أيضاً، ولا يتوفر عليه إلاّ من كانت له خصائص ومواصفات ترتفع به إلى مصاف أن يكون على فوز عظيم، يقول الراغب الأصفهاني: «**إنّ الرضوان هو الرضا الكثير، ولما كان أعظم الرضا رضا الله تعالى خصّ لفظ الرضوان في القرآن بما كان من الله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾**[1]. **وقال الله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ ...﴾**[2]، **إلى كثير من الآيات التي تفيد الرضا الكثير والفوز العظيم لعباده الذين اصطفى**[3]، **كما قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ...﴾**[4]. **ومما ينبغي أن يُعلم أيضاً، هو أن الرضا قد يكون من العبد، وقد يكون من الله تعالى، فمن الأول، كما يقول الراغب: «أن يرضى العبد عن الله بأن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ومن الثاني أن يرضى الله عن العبد بحيث يراه مؤتمراً لأمره، ومنتهياً عن نهيه»**[5]، وهذا ما سبق أن توقّفنا عنده مليّاً، وظهر لنا جليّاً في مباحث الفوز، فيما عرضنا له من مبادئ وأسس لا بدّ أن يستند الإنسان إليها فيما يرومه من رضوان وفوز، وكانت القاعدة الأساس ما عبّر عنه القرآن من هدى إلهي وبيان نبوي من شأن الاهتداء به، أن لا يكون الانسان على خوف أو حزن، وأن يتحقّق له الفوز في الدنيا والآخرة...

إذن، التمهيد لهذا المبحث في الفوز والرضوان والفضل الكبير، هادف إلى التمييز بين مستويين من الكلام في دلالة الآيات المباركة، المستوى الأول: هو التعرّف إلى سياق الرؤية القرآنية ذات العلاقة بالمسار الدنيوي في ضوء الهدي الإلهي والبيان النبوي وما يتعلق بها من فوز ورضوان، طالما أن الله تعالى قد ربط ربطاً وثيقاً ومحكماً بين ما يكون عليه الإنسان من صفات وشروط، وبين تحقق الوعد

(١) سورة الحشر، الآية: ٨.
(٢) سورة النور، الآية: ٢١.
(٣) الراغب الأصفهاني، معجم ألفاظ مفردات القرآن الكريم، م. س، ص٢٠٢.
(٤) سورة الفتح، الآية: ١٨.
(٥) الراغب الأصفهاني، م. ع، ص٢٠٢.

له بأن يكون على فوز عظيم ونعيم مقيم، كما رأينا في مبحث الفوز، فإذا لم يتوفّر الإنسان على الصفات التي بيّنها القرآن، فلن يكون فائزاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم ...﴾[1] التي بيّن الله تعالى فيها في سياق الآيات الصفات التي ينبغي أن يتوفر عليها الإنسان ليكون ممن يستحقون وصف المجاهد في سبيل الله تعالى، وإلاّ كان ممن ينتصر الله تعالى به لدينه ولا خلاق له، لأنه لا بدّ أن تبذل النفوس والأموال في طاعته، وأن تهلك في مرضاته، كما أفاد القرطبي وغيره من المفسرين[2]. أضف إلى ذلك ما تمّ لحاظه في بحث سابق عن السابقين السابقين، والمهاجرين الذين كان لهم الفوز العظيم، بما كان لهم من السبق في الجهاد، لما أفاده ابن شهرآشوب من أن السبق في الآية، إن كان إظهار الإسلام فلا بدّ أن يكون مشروطاً بالإخلاص في الباطن، لأنّ الله تعالى لا يعد بالرضا والفوز العظيم من أظهر الإسلام ولم يبطنه، فيجب أن يكون الباطن معتبراً ومدلولاً عليه..[3].

أما على المستوى الثاني، فإنّه يكفي أن نتعرّف من خلال الرؤية القرآنية الموضوعية على الرضوان الإلهي والفوز العظيم والفضل الكبير في الآخرة على نحو ما بيّن القرآن في كثير من الآيات لجهة مضاعفة الأجر والثواب، وإعداد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، إذ يمكن للباحث أن يتحدّث عن حالة مخصوصة في الآخرة تكون لأولئك الذين ابتغوا الفضل من ربهم والرضوان، وكان لهم الوعد بأن يكون لهم الخلود في الجنان ورضوان من الله أكبر، والفوز العظيم، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) انظر: القرطبي، محمد بن أحمد، تفسير الجامع لأحكام القرآن، م. س، ج٨، ص٢٦٧.

(٣) المازندراني، محمد علي بن شهرآشوب، متشابه القرآن ومختلفه، (ت ٥٨٨هـ)، انتشارات بيدار، قم، ط٣، ١٤١٠هـ، ج٢، ص٧.

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]. فالآية، كما نلاحظ، ناظرة في سياقها إلى ما يكون للإنسان فيما لو توفر على خصائص وشروط ومواصفات تؤهّلة لأن يكون أهلاً لهذا الوعد، وطالما أن بحثنا في ما أعدّ للإنسان في الآخرة، فإنه يمكن أن نلحظ جملة الآيات التي اختلفت فيها الأوصاف، وتعددت فيها الألطاف، لنرى كيف أن السياق يختلف بين آية وأخرى فيما تشتمل عليه كل آية من مفردات وعبارات ومفاهيم تحمل كل باحث على التوقّف مليّاً عند دلالاتها، تماماً كما تميّزت هذه الآية برضوان من الله أكبر، خلافاً لآيات كثيرة ميّزت في الرضوان، بين كونه رضواناً، أو رضواناً من الله أكبر، وبين الفوز، بين كونه فوزاً مبيناً، أو فوزاً كبيراً، إلى غير ذلك مما يمكن التدبّر في سياقه للتعرّف إلى مدلولاته، لأنه لا شيء في القرآن إلاّ وله معناه ومراميه.

إذن، ونحن نقدّم لهذا الفصل، فإنّه لا ينبغي أن يغرب عن بالنا أبداً أنّه مبحث مزدوج، منه ما يتعلق بالفوز والرضوان، ومنه ما يتعلق بالفوز والفضل الكبير، لأنّ لكل مفردة قرآنية مدلوللها الخاص أو العام، ما يعني ضرورة التوقف عند منطوق الآيات ومفهومها، وهذا ما نودّ البحث فيه لعلّنا نوفّق إلى مزيد من اللطائف التي تنطوي عليها الآيات المباركة، لأنها آيات أُوحي بها من لدن حكيم عليم، ولا بدّ أنّها تنطوي على حقائق كثيرة، نسأل العليّ القدير التوفيق للاهتداء إليها. كما لا ينبغي أن يفوتنا أيضاً أن للعلماء وأهل التفسير آراء ومذاهب شتّى في فهم هذه الآيات، وخاصة فيما عرضوا له من مباحث في الثواب والعقاب، أو في الثواب والرضوان، أو في الثواب والتفضّل، وكانت لهم شروحات مستفيضة منها ما هو واضح لا لبس فيه، ومنها ما هو ملتبس ومحكوم للرأي ويحتاج إلى توضيح، وغايتنا في هذا المبحث، لا تتجاوز تبيين المجمل، أو تهذيب وتبويب المختلط المبعثر، كما هو شأن كل باحث

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

هادف إلى إصابة وجوه الآراء تقرّباً لوجهه الكريم، وطمعاً بلطفه العميم، وذلك من منطلق أنّ لكل باحث طريقته في استكشاف وجوه الآراء على النحو الذي يمكنه من الخلوص إلى نتائج جديدة في بحثه، وقد رأينا، كيف أن أهل التفسير لم يتوقفوا عند ما يعنيه الرضوان والفوز والفضل في ضوء ما جاءت به الآيات القرآنية، بل فسّروا كل شيء وفاق رؤية تجزيئية جمعوا فيها المفردات وأعطوها مدلولاً واحداً لخدمة أغراض شتّى، في حين أن القرآن يريد لنا أن نتدبّر في آياته لندرك معنى أن يكون الفوز العظيم لمن اختار أن يكون عظيماً في دينه وإيمانه وجهاده وفي كل حياته على نحو ما بيّنت الآيات في سياقاتها لجهة ما ينبغي أن يكون الإنسان عليه من مواصفات تسبق كل فوز عظيم، وكل نعيم مقيم...

المبحث الأول

الرضوان وسبل السلام

جاء في ميزان الحكمة، أن الله يُعبد بإحدى طرق ثلاثة: الخوف والرجاء والحب[1]، وما على المؤمن إلاّ أن يتنبّه لحقيقة الدنيا، وهي أنها متاع الغرور، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، كما ينبغي على كل مؤمن أن يعي أن الطريق إلى الله تعالى، هي طريق القلب الذي يقلّبه الرحمن الرحيم كيفما يشاء، وكيف لا يكون الأمر كذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[2]، وقد شاء الله تعالى أن يكون قلب المؤمن موطناً لحقائق الإيمان، وسراً لعرش الرحمن، فكان منه الحق والجهاد والخوف والرجاء ومبعث الحياة، فتلقّى من ربه كلمات، واختار الهدى والبيِّنات، فكانت له الذكرى، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[3]. ذلك هو معنى أن يكون القلب على حب الله تعالى، أن تكون له الهداية في طريق الرضوان والفوز والفضل الكبير، وقد تجلّت نعمة الله تعالى فيما خص به هذا الإنسان من هداية وبيان، وروح وجنان. يخرجانه من الظلمات إلى النور، ويهديانه إلى سبل الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾[4]. هدايةً توفقهم لمزيد من الطاعات، وترشدهم إلى الجنة ونعيمها الدائم والخالد، فإذا كان الإنسان لم يخلق سدىً ولم يترك هملاً، فإن

(١) محمد ري شهري، ميزان الحكمة، تحقيق دار الحديث، دار الحديث، طهران، ط١، ج٤، ص٣٦٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٣) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

هداية الله تعالى هي منار السبيل لإحياء القلوب بذكر الله تعالى، بحيث يكون منها الحب والرضا والكدح في سبيل الله تعالى. وقد جاء الأنبياء لإثارة دفائن العقول، وإحياء القلوب ليكون جهادها حباً، تنشرح به الصدور، وتُيسّر به الأمور، كما قال موسى في سورة طه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾[1].

لقد بيّن النبي موسى، كيف أنه فيما يطلبه، إنّما يطلبه لأجل أن يكون مسبّحاً وذاكراً لله تعالى، وهو بدأ من الصدر الذي هو موضع القلب، ليكون الحب هو طريق الحياة وسرّ العبادة، ومنتهى الفوز والرضوان، سواء في الدنيا، أم في الأخرة، على اعتبار أن موسى النبي والرسول عليه السلام دعا ربه ليكون على طريق الحق في رسالته مبتدأً من شرح الصدر وتيسير الأمر، وحققها بالتسبيح لله تعالى والذكر له، وهذا هو طريق الهداية بين المبدأ والغاية، وكم هو الفرق كبير بين أن تكون على خوف ورجاء، وبين أن تكون على حب تنتهي به إلى خالص الذكر والتسبيح الذي به يكون الرضوان والفوز العظيم، وهذا ما هُيِّئَ له الإنسان في ما خص به من خلافة وهداية وسرّ عظيم، فما بال الإنسان يعيش تجاذب الرهبة والرغبة، وينسى أنه على سرّ عظيم فيما عقد عليه قلبه، فيختار أن تكون له عبادة التجار، أو عبادة العبيد، وهو في سرّ شهادته ناطق بالقلب، وشاهد بالروح على كونه عبداً لله تعالى، وقد خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ ﴾[2].

إن معنى أن يختار الإنسان سبيل الحب إلى الحبيب، أن يكون حرّاً، كما قال الإمام علي عليه السلام: «**إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار، وإن قوماً عبدوا**

(١) سورة طه، الآيات: ٢٥ ـ ٣٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٦.

الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»[1].

لا شك في أن كلام الإمام علي عليه السلام ناظر إلى ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في علاقته بالله تعالى، وفي عبادته له، بحيث يختار طريق الحرية، وطريق الحق الخالص لتكون دنياه وآخرته تعبيراً عن هذا الحب لله تعالى، وكما قال الشهيد الثاني رحمه الله تعالى: «**واعلم أن الرضا بقضاء الله تعالى هو ثمرة المحبة لله تعالى، باعتبار أن مَن أحب شيئاً رضي بفعله...**»[2].

وهكذا، فإن تجليات حقائق الإيمان إنما تكون من هذا الحب الذي سرُّه التسبيح والذكر، وكيف لا يكون هذا سرّه، وقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[3]، فكانت المحبة سرّاً في العابد والمعبود، وسبيلاً إلى القلوب، في طيّ منازل الوجود من الملك إلى الملكوت، وإذا لم يكن للإنسان هذا السبيل، فعلى الأقل أن يكون له سبيل الخوف والرجاء وحسن الظن بالله تعالى، لقول الإمام علي عليه السلام: «**وإن استطعتم أن يشتد خوفكم من الله، وأن يحسُن ظنكم به، فاجمعوا بينهما، فإن العبد إنما يكون حُسْنُ ظنه بربّه على قدر خوفه من ربه، وإن أحسن الناس ظناً بالله أشدهم خوفاً لله تعالى...**»[4].

لقد فُتح باب الهداية، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، وهُدى إلى سبل السلام، فكان الرضوان والفوز العظيم لمن آمن وعمل صالحاً وجاهد في سبيل الله تعالى، ولا تزال الدنيا دار فناء وغرور منذ أن تحقق الهبوط واعتلى إبليس قمة المعاصي، وقد أبى الله تعالى إلاّ أن تكون للإنسان هدايته، فجعل من النبوة

---

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، قصار الحكم: ٢٣٧.

(٢) را: زين الدين بن علي (٩١١ـ ٩٦٥هـ) الشهيد الثاني، مسكن الفؤاد، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث. مطبعة قم ١٤١٧هـ، ص٣٣.

(٣) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٤) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م.س، الكتاب ٣٧.

والتشريع جزءاً من تقدير خلق الإنسان على حد تعبير العلامة اليزدي[١]، ليكون بمنأى عن تأثير الشيطان، ويختار سبل السلام والرضوان الذي جاء به الأنبياء لهداية العباد، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[٢].

أ ـ الإيمان والرضوان:

قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[٣].

إنّ الآية المباركة تفيد في جانب منها أنّ موالاة الكفّار لا تجتمع مع الإيمان، والمراد به الموالاة في الدين، كما يرى العلامة الطبرسي[٤]، حتى ولو كانوا أهل قرابة من أب أو أخ أو عشيرة، باعتبار أن القريب الحقيقي هو الدين، ولهذا نجد الآية تتحدّث عن حقيقة الإيمان الذي كتب في قلوب المؤمنين الذين يوالون في الله ويحادون في الله تعالى.

---

(١) اليزدي، محمد تقي المصباح، معارف القرآن، م.س، ج٤، ص١٦.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٢٢.

(٤) يقول العلامة الطبرسي: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾، أي ثبّت في قلوبهم الإيمان بما فعل بهم من الألطاف، فصار كالمكتوب، وفي هذا الإيمان كانت حياة القلوب، فاهتدوا إلى الحق، وعملوا بكل قواهم بالقرآن الذي هو حياة القلوب من الجهل.
را: الطبرسي، تفسير مجمع البيان، م. س، ج٩، ص٤٢٢.

وعليه، فإنّ معنى الآية فيما يفيده السياق، أنّ الإيمان هو مرتكز كل تحوّل في حياة الإنسان، هذا فضلاً عن كونه سبباً في الرضوان والصلاح والفوز في الدنيا والآخرة، وقد تقدّم الكلام في أن الهدى الإلهي هو مصدر وسبب كل سلام وطمأنينة في الدنيا قبل الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. فالإيمان، بما هو أصول وفروع وأحكام، هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]. وقد أفاد علماء التفسير أن السياق في الآية جاء بلحاظ الكلام عن الطيبات وأحكام الذين أوتوا الكتاب، وكما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في الكافي «**أنّ من يكفر بالإيمان بجحد الشرائع أو بتركها، أو ترك العمل بالأحكام الشرعية**[2]، **إلى كثير مما جاء في معنى هذه الآية، ولكننا نرى أن السياق يتحدّث عن الكفر بالإيمان الثابت الذي يعني الأصول والفروع، وغير ذلك مما تقتضيه حقيقة الإيمان من تولّي وتبرّي وكفر بالطاغوت، وهذا ما أفاده العلاّمة الطباطبائي، أنّ الكفر بالإيمان يقتضي وجود إيمان ثابت... فيأوّل معنى الكفر بالإيمان إلى ترك العمل بما يعلم أنه حقّ كتولّي المشركين والاختلاط بهم والشركة في أعمالهم مع العلم بحقيقة الإسلام، وترك الأركان الدينية في الصلاة والزكاة والصوم والحجّ مع العلم بثبوتها أركاناً للدين**»[3].

هذا ما تفيده الآية في جانب منها، أما الجانب الآخر، فهو ما لحظه السياق من إشارة إلى التأييد بالروح منه تعالى، والرضا عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، الذي أعقب قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾،

(١) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٢) جاء في تفسير الصافي، للكاشاني: أن معنى «من يكفر بالإيمان، الذي لا يعمل بما أمر الله به ولا يرضى به، والقمي قال: من آمن ثم أطاع أهل الشرك.

را: الفيض الكاشاني، م. س، ج١، ص٢٦٣. .

(٣) الطباطبائي، تفسير الميزان، م. س، ج٥، ص٢١٠.

وهذا يفيد بملاحظة السياق، أن الرضا إنّما هو نتيجة لصدق الإيمان في القول والعمل، في الأصول والفروع وفي كل ما يعنيه الإيمان لقول المعصوم عليه السلام: «**إنّ الإيمان عمل كله**» وليس مجرّد حالة يدّعيها الإنسان، وهذا الإيمان والإسلام هو الذي وصفه الإمام علي عليه السلام بقوله: «**إن الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل**»[1].

إذن، السياق يرشد، منطوقاً ومفهوماً، إلى أن الإيمان، أو ما عبّرنا عنه بالهدى الإلهي والبيان النبوي هو سبب في سعادة الإنسان وفوزه، وبأن يكون «**رضوان من الله أكبر**». وإذا كانت النصوص تتحدّث عن مآلات هذا الإيمان الذي كتب في القلوب، وحقق في الواقع، وترجم في الأعمال، في الحياة الآخرة فيما يؤول إليه من رضوان وجنّات تجري من تحتها الأنهار، فإنّ هذا كلّه إنّما يؤكّد على أنّ الرضا هو أمر دنيوي قبل أن يكون مآلاً في الآخرة وحالاً في الجنّة، والدليل على ذلك، هو قوله تعالى:

﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[2]. إنّ القرآن يرشد إلى أن الإسلام هو سبيل الفوز، وقيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أي من اتّبع رضا الله تعالى في قبول القرآن والإيمان وتصديق النبي صلى الله عليه وآله وسلم واتباع الشرائع، كل ذلك يؤدّي اتباعه إلى أن يكون الإنسان على طريق السلامة في الدين والدنيا والآخرة، ويكون الرضا عن الإنسان في كونه أطاع الله تعالى فيما أُمر به ونُهي عنه، في كل زمان ومكان. وبما أن الإسلام هو الرسالة الخاتمة والنهائية، فإنّ السلامة تكون في اتباعه لكونه كتاباً مبيناً ونوراً يهتدي به الخلق إلى سبل السلام...

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، قصار الحكم، ١٢٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٦.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2].

إذن، هناك جملة من الآيات التي تفيد في سياقها أنّ المعوّل عليه في الرضوان، سواء في الدنيا، أم في الآخرة هو اتباع الهدى والطاعة لله ورسوله قولاً وفعلاً، بحيث يكون ذلك بمثابة المقدّمات للرضوان والفوز العظيم، ومقتضى الإيمان الحقيقي، أن يكون الإنسان حيث أمره الله تعالى، بحيث يؤسس لحياته على أساس التقوى، وليس على أساس المعصية والخروج عن مقتضى الإيمان والشهادة لله تعالى. وقد أفادت الآية فيما عرضت له من مقابلة بين من اتبع رضوانه، وبين مَن باء بسخط من الله تعالى، حيث يشير السياق إلى أن الناس، سواء كانوا في الدنيا، أم في الآخرة، هم درجات عند الله تعالى، إذ ليس المجاهد في سبيل الله تعالى كالفار من الجهاد، وليس العامل في طاعة الله كالذي يأتي بالمعصية، وعلى رأي بعض المفسرين، ليس من اتبع الرضوان في ترك الغلول كمن باء بسخط من الله في فعل الغلول، وهو اختيار الطبري[3]، قال: لأنّه أشبه بما تقدّم في الآيات لقوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ... ﴾[4].

وكيف كان، فإنّ منطوق الآيات ومفهومها يؤكّد على أن الرضوان ليس حالة، أو وصفاً خاصاً بالآخرة، باعتبار أن اتباع الرضوان، هو الاتيان بحق الطاعة في

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٣) را: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، ج١، ص٥١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

الدنيا، والقيام بحق الله تعالى وحقوق الناس، وهذا ما ترشد إليه كثير من الآيات القرآنية بدأً من آية: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾، وانتهاءً بالآيات التي تتحدّث عمّا يكون للإنسان من أوصاف ومآلات ودرجات في الآخرة، ولعلّ في الآيات ما يدلّل على تحقق الرضوان في تحولات دنيوية فيما يختاره الإنسان من إيمان وجهاد وتقوى، وغير ذلك مما يجعل الرضوان والفوز متحققاً لكثير من المؤمنين في الحياة، تماماً كما يكون لغيرهم ممن لم يَأْمَنُوا السخط الإلهي وبئس المصير في الدنيا أيضاً، ولعلّنا لا نخطئ إن قلنا: إنّ مفاد كثير من الآيات مرشد إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وهو اتباع الرضوان فيما كان منهم في معركة بدر الكبرى، الذي تولّد عنه الانتصار للمؤمنين والهزيمة للكافرين، وهذا إن دلَّ على شيء، فإنّه يدلّ على مدى ما يكون للرضوان والطاعة والتقوى والإيمان من أثر في التحققات الحياتية والدنيوية للإنسان، فلا يُقال بأن الرضوان، أو ما يكون للإنسان من درجات أو تحققات، إنّما يكون حصراً له في الآخرة على نحو ما أفاد بعض المحققين بأنّ مجرّد الإسلام، أو العمل في بعض الطاعات، أو الإيمان ببعض الكتاب، لا بدّ أن يكون له معنى الفوز والرضوان في الآخرة، وهذا يمكن أن يردّ عليه بأن الإسلام كلٌّ واحد لا يتجزّأ، وأنّ الله تعالى لا يُطاع من حيث يُعصى، وقد جعل الله لكل شيء قدراً، ولكل علم باباً، وقد شاء أن تلزم الأسماء معانيها بأن تكون الدنيا على ما هي عليه مِن إيمان وكفر، وطاعة وعصيان، وأن لا يكون الرضا والسخط بالمال والولد، بل بالإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧.

إنّ الإسلام كلٌّ واحد، ومثلما أن هذا البيان الإلهي قد اشتمل على التعاليم والأحكام، وعلى أصول وفروع الدين، فكذلك هو اشتمل على آيات الولاية والطاعة، والثواب والعقاب، والفوز وغير ذلك مما يقتضي التدبّر فيه للتعرّف إلى حقيقة ما تفيده آيات الطاعة والولاية، لأنّ هذه الآيات تحتّم أن يكون لهذا الدين قيِّماً عليه ومترجماً له، باعتباره مستوراً بين دفّتين لا ينطق بلسان ولا بدّ له من ترجمان، وهنا نسأل: هل القرآن هو ترجمان نفسه؟ أم يقال بأنّ القرآن هو شريعة لكل وارد بحيث يصدر عنه الجميع ويؤوّلونه ويفسّرونه بحسب ما تنتهي إليه قرائح عقولهم؟ أم أنّ لهذا القرآن من يهدِ إليه، كما قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[1]. إلى غيرها من الآيات التي تؤكّد على وجوب أن يكون للقرآن هادٍ، كما له نذير، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ﴾[2]، لا شكّ في أنّ مطلق الآيتين ينفي ما زعمه بعض المسلمين أنّ القرآن كافٍ بذاته لأن يكون هادياً ومنذراً وحاكماً، وهذا ما عُبّر عنه بمقولة: «**حسبنا كتاب الله بعد نبيّه**»[3]، وقد أدّت هذه المقولة إلى أن يكون كل إنسان إمام نفسه فيما يراه من رضوان، أو إيمان، أو طاعة، أو دين[4]، وكانت النتيجة تحوّل المسلمين عن كونهم خير أمة ليكونوا على شرّ دين

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٧.

(٣) انظر: هارون، عبد السلام، سيرة ابن هشام، دار الرسالة، دمشق، (لا ـ ت)، ص٢٥٢.

(٤) يقول العلاّمة كمال الحيدري: «من الواضح أن العلم بظاهر القرآن لا يتوقف، عند كثير من المفسرين على البُعد المعنوي عند الإنسان، ولا يشترط أن تشرق نفسه بالطهارة المعنوية لكي يقف على شيء من ظاهر القرآن، ومن ثمّة نرى أن التفسير الظاهري للقرآن قد يكون ممتازاً بالرغم من صدوره من إنسان لا يملك تلك الدرجة العليا من التقوى والطهارة المعنوية، أما فيما يخص الوقوف على باطن القرآن، فالأمر مختلف تماماً حيث إن القرآن يتصدّى لبيان أنّ باطنه لا يصل إليه إلا المطهّرون، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾، وذلك استناداً إلى حديث الثقلين الذي بيّن أن القرآن وأهل البيت لن يفترقا أبداً»، فأهل البيت هم القرآن الناطق الذي لا يفترق عن الكتاب المكنون مطلقاً، وهم الذين عرفوا حقيقة الكتاب الذي لا ريب فيه...
انظر: كمال الحيدري، الإعجاز، محاضرات بقلم نعمة الجبائي، دار فراقد، إيران، ط٢، ١٤٢٦هـ، ص١٥٤ ـ ١٥٥.

وفي شرّ دار، كما كانوا في الجاهلية الأولى فيما آل إليهم وضعهم الديني والسياسي والحضاري، وفيما انتهوا إليه من فرق ومذاهب وأحزاب متنازعة ومتناحرة إلى حدّ الفناء، وذلك إنّما كان بسبب الكره لرضوان الله تعالى والتحوّل عن طاعته فيما أمر به ونهى عنه، لتكون الطاعة لأي إنسان اتفق تحت عناوين شتّى، وقد عبّر القرآن عن هذه الحقيقة، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[1].

إنّ مقتضى الإيمان أن تلحظ الطاعة في سياق ما جاء به أمر الله تعالى، وكذلك مقتضى الرضوان أن يؤخذ في سياق آيات الطاعة والولاية وما كان من أهل الإيمان في تجربتهم الرسالية والتاريخية، حيث تبيّن لنا أن آيات الفوز والرضوان في كثير من سياقاتها قد أتت على ذكر الأحداث والتجارب في سياق ما حُدِّد لها من أوصاف في الآخرة، كما نلاحظ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[4]، إلى غيرها من الآيات التي جاء السياق فيها ليدلّل على أنّ ملاك الرضا هو ما حققه الإنسان في دنياه من التزامات دينية، وتحققات إيمانية في ضوء الأحداث والتجارب التي عصف بها تاريخ الشعوب والأمم

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.
(٤) سورة البيّنة، الآية: ٨.

منذ أن تظهّرت حياة الإنسان على نحو ما أراده الله تعالى له من امتحان في هذه الدنيا. وهذا ما عبّر عنه العلماء وأهل التفسير بأن الآخرة ليست سوى تعبير عمّا يستحقه هذا الإنسان في دار امتحانه التي جُعلت قنطرة للآخرة التي تجسّد فيها الأعمال، وتنطق فيها الجوارح والأعضاء، فيكون فيها الرضا على الرضا، كما يكون النور على النور، هناك حيث تضاعف الحسنات، وتتمايز الدرجات، وتلتقي بشرى الدنيا مع بشرى الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]، تلك البشرى التي ملؤها الرضوان والفوز العظيم، وسرّها الإيمان، وهل كانت تلك البشرى لغير أولئك الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله تعالى؟

نعم، إنّها بشرى لهم عَبَروا بها دنيا الحياة بكل رضوان، فكان لهم من الله تعالى ما وعدهم به من جنّات، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2].

غاية القول: إنّ الإيمان والرضوان هما تجسيد حقيقي للهدى والبيان النبوي الذي خُصَّ به الإنسان لهدايته والبلوغ به إلى حيث يكون له الكمال والفوز العظيم، ومن أبصر في الدنيا بصَّرته هذه الحقيقة، وأرشدته إلى أن الإيمان والتقوى هما سرّ الرضوان الذي تحدّثت عنه الآيات القرآنية، وما ينبغي أن يُعلم في سياق هذا المبحث، هو أنّ الآيات لم تتحدّث عن فوز في المستقبل، أو في الآخرة، بل تنظر إلى المستقبل بعين التحقيق بلغة الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وغير ذلك من الآيات التي لم

(١) سورة يونس، الآية: ٦٤.

(٢) سورة التوبة، الآيات: ٢٠ ـ ٢٢.

تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، وإنّما تقدّم النتيجة المباشرة لما يكون عليه الإنسان من عمل أو طاعة، أو إيمان لتجعله مبصراً بمآله، ومدركاً لحاله فيما لو كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فالرضوان هو الطاعة لله ورسوله، والنعيم هو نعيم الولاية في الدنيا والآخرة، فمن كان له نصيب من الرضا كان فوزه محققاً بما أتبعه من رضوان، وحقّقه من إيمان في دنيا وصفها الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «**كأنّ الدنيا لم تكن وكأنّ الآخرة لم تزل**»[1]، وهذا ما عنينا به أنّ سرّ الرضوان هو ما تلقّاه الإنسان من كلمات ليكون له الفوز العظيم والنعيم المقيم.

ب ـ الرضوان ونعيم الجنّة:

إذا كان من مؤدّيات الإيمان والرضوان في الدنيا، أن يؤول أمر الإنسان إلى الفوز العظيم، فإنّ هذا المؤدّى إنّما كان بسبب قيام الإنسان بأمر الله ونهيه في الحياة الدنيا بعد أن جاءه الهدى واتّبع رضوان الله تعالى، فكان له هذا التحوّل في الفوز العظيم على النحو الذي جعله مستحقاً لما أعدّ له من الجنات والرضوان والنعيم المقيم.

إنّه النعيم الذي تجاوز به الإنسان المؤمن المغفرة والرحمة والرضوان إلى رضوان من الله أكبر، وقد أجمع أهل التفسير على أنّ الرضوان أكبر من الثواب، وهو إنّما يستحق الإحسان، ويدعو إلى الحمد على ما كان، كما قال العلامة الطبرسي في مجمع البيان[2]، هذا فضلاً عن إجماعهم على أن الفوز إنّما جيء به بدلالة الحصر للتدليل على أن الرضوان هو حقيقة كل فوز، بل هو أكبر من نعيم الجنّة على ما أفاده العلاّمة الطباطبائي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، يقول: «**إنّه رضوان لا يقدّر بقدر، ولا يحيط به وهم بشر، لأن رضواناً ما منه ولو**

(١) الآصفي، محمد مهدي، في رحاب الإمام الحسين عليه السلام، المجمع العلمي لأهل البيت عليهم السلام، ط١، ١٤٢٣هـ، ص٩٣.

(٢) الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، م. س، ج٥، ص١٩٢.

كان يسيراً أكبر من ذلك كله... لأنّ حقيقة العبودية التي يهدي إليها كتاب الله هي عبوديته تعالى حبّاً له، لا طمعاً في جنّة، ولا خوفاً من نار، وأعظم السعادة والفوز عند المحبّ أن يستجلب رضا محبوبه دون أن يسعى لإرضاء نفسه، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، تحصر الرضوان في كونه هو حقيقة كل فوز عظيم، حتى الفوز العظيم بالجنة الخالدة، إذ لولا شيء من حقيقة الرضا الإلهي في نعيم الجنّة كان نقمة لا نعمة...»[1]. فالرضوان، كما يرى كثير من العلماء، ليس مجرّد ثواب وحسب، بل هو أعلى مرتبة من الثواب، وقد جعله الله تعالى مقروناً برضاه، حيث قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، فأفاد أن الرضا هو فضيلة عظيمة، بل هو جماع الفضائل كلها، يقول الشهيد الثاني في مسكن الفؤاد: «**إنّ الله تعالى نبّه على فضله وجعله مقروناً برضا الله تعالى وعلامة له، وقد جعله النبي ﷺ دليلاً على الإيمان حين سأل طائفة من أصحابه مَن أنتم؟ قالوا: مؤمنون، فقال: ما علامة إيمانكم؟ قالوا: نصبر على البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضى بمواقع القضاء، فقال ﷺ: «مؤمنون وربّ الكعبة»**[2].

إنّ التدبّر في كلام الله تعالى، وخصوصاً فيما لحظه سياق الآيات من رضا ورضوان، ورضوان من الله أكبر، من شأنه أن يكشف للباحث عن لطائف لا بدّ من أن يستيقظ الإنسان لها، لأنّ كل مفردات الرضا تأتي في معرض ذكر الصفات والشروط التي لا يتوفر عليها كل الناس، وفي سياق المدح وتمايز الدرجات، كما قال الله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وعليه، فإنّ معنى الرضا يتجاوز كونه ثواباً ليكون شيئاً أكبر من ذلك اكتفى الذكر الحكيم بوصفه كونه رضواناً من الله أكبر، أو تنكير الرضوان، كما في قوله

(١) الطباطبائي، تفسير الميزان، م. س، ج٩، ص٣٣٩.

(٢) زين الدين بن علي، الشهيد الثاني، مسكن الفؤاد، م. س، ص٧٩.

تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[1]، حيث نرى أن الرضوان قد نكّر للتدليل على أنه شيء وراء الوصف والتعريف[2]، وهذا ما لحظته الكثير من الأحاديث عن أن للمتقين في الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، إلى غير ذلك مما يبعدنا عن مشهد الرؤية، ويجعلنا أمام مجرّد الوصف فيما ينطوي عليه من مشاهد حيّة لا سبيل إليها إلاّ بحبّ الله تعالى، كما قال الإمام الصادق للمفضل بن صالح: «**يا مفضل إن لله عباداً عاملوه بخالص من سرّه فعاملهم بخالص من سرّه، فهم الذين تمرّ صحفهم يوم القيامة فرغاً... وإذا وقفوا بين يديه تعالى ملأها من سرّ ما أسرّوا إليه، فقلت لما ذلك يا مولاي؟ قال: أجلهم أن تطلع الحفظة على مابينه وبينهم، يا هذا لا تغفل عن هذه المقامات الشريفة التي هي أنفس من الجنّة، كيف لا؟ وهي السبب في الوصول إليها، وإلى ما هو أكبر منها. إنّها السبب لرضوان الله تعالى، كما الله قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾**»[3].

وهكذا، فإنّ ملاحظة حقيقة هذا الرضوان وما يكون له من درجات، تجعل الإنسان حائراً في وصفه، وعاجزاً عن التعبير عنه لكون ما يرشد إليه الإمام الصادق عليه السلام هو من السرّ الذي لا سبيل للحفظة إليه، فكيف للإنسان أن يتحسّسهُ أو أن يتعقّله، باعتباره من حقائق البشرى في الدنيا والآخرة، ولعلّ في كلام الإمام عليه السلام ما يرشد أيضاً إلى أن الرضوان هو من حقائق الإيمان والحبّ الذي يُلقى للإنسان ليكون حبّاً في الله تعالى، وهذا لا يكون إلاّ للواحد بعد الواحد من الناس، كما قال

(١) سورة التوبة، الآية: ٢١.

(٢) الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، م. س، ج٢، ص٣٢٨.

(٣) انظر: الحلّي، أحمد بن فهد، (٨٤١هـ)، عدّة الداعي ونجاح الساعي، تحقيق القمّي، مكتبة الوجداني، قم، دون تاريخ، ص١٩٤.

الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[1]، وكان له من هذه المحبة ما يملأ الوجود والخلود معاً، ولا شكّ في أنّ تجلّيات هذه المحبة ليست محصورة في أن يكون الرضوان متميزاً في مكان أو في زمان، بل هي ممتدة في وجود الإنسان لتكون فيضاً في وجوده وسرّاً في ملكوته، كما قال المازندراني في شرح أصول الكافي: «**اعلم أيّها اللَّبيب أنّ الرضا من أعلى منازل المقرّبين، وأقصى مراتب السالكين، فإنّه ثمرة المحبّة، وهي ثمرة الأنس بالله تعالى، وهو ثمرة الصبر على فعل الطاعات، وترك المنهيّات وتحمّل المكاره، والمشاق، وهذا كله ثمرة الخوف من الله تعالى والرضاء بثوابه وإكرامه وأيضاً... واعلم أنه لعلوّ منزلة الرضا رفعه الله تعالى فوق جنّات عدنٍ وجعله أكبر من نعيمها، فقال الله تعالى:** ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2]، **فهو فوق نعيم الجنان، وغاية مطلب سكّانها، وإذا رضي العبد عن الله رضي الله عنه**»[3].

ذلكم هو معنى الفوز والرضوان في نعيم مقيم، لا صفة له إلاّ الرضوان، ولا معرفة به إلاّ من حيث كونه أكبر، فكان فوزاً عظيماً، وسرّاً عجيباً، خصّ الله تعالى به أولياءه، وأجلّهم عن أن تكون الحفظة عالمين بهم، أو مدركين سرّهم، باعتبارهم خُصّوا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لكنهم علموا بحقيقة السبيل، واتبعوا رضوان الله فيما أمروا به ونهوا عنه، فكان منهم الجهد والجهاد والحبّ في ذات الله تعالى، فحقّ لهم أن يكونوا على ما خُصّوا به من الرضوان في الدنيا والآخرة.

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٣) المازندراني، موسى محمد صالح، شرح أصول الكافي، م. س، ج١، ص٢٢٢.

إنّ من الحقائق القرآنية التي يجدر التوقف عندها والتدبّر فيها، ما أفاده سياق بعض الآيات ليس فقط من تنكير للأوصاف، وتعظيم للألطاف، فإنّ ما جاء الرضوان مسبوقاً به من رحمة ومغفرة، سواء في مجال وصف الدنيا والآخرة، أم في مجال البشرى للمؤمنين، حيث قال الله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[1]. وقال الله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[2].

نلاحظ أنّ الآيتين المباركتين تأتيان على مفردتي المغفرة والرحمة قبل الرضوان، مع لحاظ كون التنكير جاء واضحاً ليفيد حقائق جمّة لا داعي للتعرّض لها إلاّ فيما يحتاج إليه بحثنا، إذ في الآية مُثّلت الدنيا وبهجتها وزينتها بالمطر النازل من السماء يختلط به نبات الأرض، فيتحرّك إلى غاية ما يمكنه من النموّ، ثم يهيج فتراه مصفرّاً، ثم حطاماً، وهكذا حال الدنيا، فإنها إلى تصرّم بعد زينتها وكذلك الإنسان، فهو بعد مراحل نموّه إلى موت وبما أن المطلوب في سياق الآية المباركة، هو قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾، حيث نجد أن الآية تلحظ ما يكون من مصير في الآخرة للكافرين والمؤمنين، وقد سبقت المغفرة من الله تعالى الرضوان، هذا فضلاً عمّا وصفت به المغفرة دون العذاب، فقال المولى تعالى: ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ ...﴾، أما في المغفرة، فقال المولى تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾، وهذا لا يخلو من إيحاء إلى أن المطلوب بالقصد الأول هو المغفرة، وأمّا العذاب، ليس بمطلوب في نفسه، يقول العلّامة الطباطبائي: «**سبق المغفرة على الرضوان لا يحلّ إلاّ في القلوب المحبّة الطاهرة، وإلاّ لاستحال الرضوان**

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٢١ ـ ٢٢.

وتحقق العذاب الشديد في الإنسان نفسه، وهذا ما تقتضيه حقيقة المسابقة إلى المغفرة التي تتطلّب السباق في الحياة الدنيا مع الآخرين في سبل الخير، لأنّ الشيء لا يتسابق مع نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ..﴾[1]، فجعل قيمة الاستباق في كونه استباقاً نحو الخيرات، باعتبار أن لا قيمة له من حيث هو مجرّد استباق، هذا فضلاً عمّا تفيده الآية من جعل التكامل الإنساني في الحياة معلولاً للاستباق المذكور بفاء التفريع، فاستبقوا.. والهدف الأقصى هو الله تعالى.

إذن، الحقيقة التي يجب التوقف عندها مليّاً، هي ما تقتضيه عملية التطهير في الدنيا لتكون القلوب قابلة ليحلّ بها الرضوان، ما يعني ضرورة أن يتنبّه الإنسان لما يعنيه اتباع الرضوان في حياة الإنسان قبل آخرته، لأنّ ما في العالم الآخر هو مثال لما في عالم الدنيا، وليس يوجد شيئاً في ذلك العالم إلاّ وله تحققاته في الدنيا على نحو ما بيّن القرآن لجهة أن قوله تعالى لا يتبدّل، وأنّ عذابه لا بدّ أن يتحقق للكافرين، كما قال الله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[2]، ولا شكّ في أنّ كل ما وعد الله في كونه فهو كائن لاستحالة تكذيب ما جاء به القرآن من أخبار، ذلك هو معنى أن تكون الدنيا ميدان للسباق، وأن تكون المغفرة سابقة على الرضوان، وعلى الجنّة، لقول الطباطبائي: «**إنّ تقديم المغفرة على الجنّة في الآية، لأنّ الحياة في الجنّة حياة ظاهرة في عالم الطهارة، فيتوقف التلبّس بها على زوال الذنوب والأوساخ والقذارات**»[3]. والكلام ذاته يمكن أن يقال فيما لحظته آية البشرى، التي تقدّمت فيها الرحمة على الرضوان الذي نكّر فيها لكونه فوق الوصف والتعريف، ولعلَّ هذا التقديم ناظر إلى أن الرضوان هو منتهى ما يمكن

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

(٢) سورة ق، الآية: ٢٩.

(٣) الطباطبائي،، الميزان، م. س، ج١٩، ص١٦٥.

أن يكون عليه الإنسان فيما أعدّ له من نعيم، كما بيّنّا سابقاً، فتكون أسبقية الرحمة في الآية درجة من درجات الرضوان، أو الفوز في ميدان تحقق البشرى، لأنّ البشرى لا تكون في الفراغ، وإنّما في الواقع وعلى تحقّق أعمال يضاعف عليها الثواب، فيتأتّى للإنسان من خلالها أن يكون على بشرى في الدنيا والآخرة. أما حقيقة الرضوان والنعيم، فإنّها تبقى مجهولة لنا لكونها وصفت بأنها رضوان من الله أكبر، ولم يوضّح القرآن لنا كيف يكون رضواناً أكبر باستثناء قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

مما تقدّم يمكن لنا أن نعرض لجملة آيات قرآنية قد يتساءل الباحث عن سرّ اختلاف المفردات فيما ختمت فيه الآيات من فوز عظيم، وفوز مبين، وفوز كبير، وهي أوصاف ونعوت لا بدّ أنها لاحظة لمعانٍ جليلة، تماماً كما بيّن القرآن أنّ هناك رضواناً، ورضواناً أكبر، حيث قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾[2]، إذ لم يقل تعالى، هو فوز عظيم، وقد يكون لذلك فائدة جليلة يمكن للباحث أن يتدبّر في الآيات ليخلص إليها، وما نستظهره في هذا السياق، هو مجرّد رأي يمكن أن يكون له مكان، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزلل، فنقول: إنّ ذلك قد يعود إلى أسباب عدّة:

أولاً: نرى أن الآية تلحظ الرضوان، ولعلّها تعبّر عن درجة من درجات الفوز، لأن المبين هو الظاهر، في حين أن العظيم قد يشتمل على المبين، أما المبين فقد لا

(١) جاء في البرهان في تفسير القرآن عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: إذا صار أهل الجنّة في الجنّة، ودخل وليّ الله إلى جنّته، وكان لهم من النعيم ما تشتهي الأنفس، وتلذّ الأعين، فيقال لهم: يا أوليائي وأهل طاعتي ألا هل أنبئكم بخير مما أنتم فيه؟ فيقولون ربّنا وأيّ شيء خير مما نحن فيه؟ فيقولون ربّنا: نعم فأتنا بخير ممّا نحن فيه، فيقول لهم تبارك وتعالى: رضائي عنكم ومحبّتي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه، ثم قرأ الإمام قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.
را: هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، م. س، ج٢، ص١٤٥.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٣٠.

يشتمل على العظيم، بدليل أن سياق آية: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، قد أشير إليه بالفوز العظيم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، نرى أن آيات الفوز العظيم قد اشتملت على الكثير من المواصفات والخصائص، وهذا ما يحتّم أن يكون ختام الآية تعبيراً عنها، وتأكيداً عليها، وخاصة مع مجيء الآية بلحاظ سياق: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، الذي غالباً ما جاءت به الآية بالفوز العظيم.

ثانياً: نلاحظ أنّ آيات الفوز العظيم تلحظ في سياقها الخاص أو العام، صفات الرضى والرضوان، والفضل وجنّات عدنٍ، ومساكن طيّبة، إلى غير ذلك ممّا يمكن ملاحظته في كثير من الآيات، وخاصة حينما تكون الآية متقابلة مع آية أخرى، كما في الآية التي يتقابل فيها المنافقون مع المؤمنين، والتي أُشير فيها إلى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، حيث نرى كيف أن الآية قد اشتملت على كثير من الأوصاف والشروط التي تحتّم مسلكيّة في القول، والعمل مختلفة عن مسلكية أخرى قد تكون توفرت على شيء من الشروط. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يمكن ملاحظة آية الفوز المبين، التي أُشيرَ فيها إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فكان لهم هذا الفوز المبين، فإذا أضفنا هذه الآية وتمّ ضمّها إلى قوله تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾[1]، فإنّك تلحظ أن السياق يفيد درجة معيّنة من الفوز عبّر عنها القرآن بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[2]. ولا شكّ في أنّ الزحزحة عن النار ودخول الجنّة، ليست كمثل مَن كان له الرضوان، أو رضوان من الله أكبر، على نحو ما تبيّن لنا في بحوث الفوز العظيم، سواء في الدنيا، أم في الآخرة. فالآيات، في الفوز المبين، لا نرى أنها تأتي على جملة من المواصفات، وإن كانت تشتمل على

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

الإيمان والعمل الصالح والرحمة، وغير ذلك مما لا بدّ منه لكي يكون المتحصّل فوزاً، لقوله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾، وهذا ما ينبغي أن يكون موضع تدبّر الباحث في الشؤون الإسلامية، لأنّ مَن أخذ بالهدى الإلهي، وأتبعه تكويناً وتشريعاً، وكان له تجلّيات هذا الهدى، ليس كمثل مَن زُحزح عن النار، وأُدخل الجنّة، فإن قلتم: يمكن الاعتراض على ما تذهبون إليه، بالقول: إنّ هناك آيات جاءت بالفوز العظيم ولم تلحظ جملة المواصفات والخصائص التي تستندون إليها في تمييزكم بين العظيم والمبين، كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

فهذه الآية، كما ترون، لا تشتمل على رضوان، وفيها مواصفات الإيمان، والعمل الصالح، وتكفير السيئات، والجنان، والفوز العظيم... وبتفصيل أكثر نقول، إنّه لم يرد في الآية جنات عدن، ومساكن طيبة، ورضى الله عنهم ورضوا عنه، إلى غير ذلك مما أتت عليه الآيات، وخصّته بالفوز العظيم...؟

قلنا: لا بأس أن نقبل الرأي والتدبّر، ولكن بعد أن يفسّر لنا معنى التغابن الذي يجمع فيه الناس، ويكون فيه الموقف مختلفاً، لأنه بذاته يوم عظيم، ولا بدّ أن يكون الفوز فيه عظيماً، وذلك إنّما تذهب إليه بلحاظ كونه يوماً يجمع فيه الأولون والآخرون، الأنبياء والأولياء والعصاة والكافرون، باعتباره يوماً يغبن فيه أهل الجنة أهل النار، وحينما نقول أهل الجنّة، فإننا نقصد كل أهل الجنّة، وبكل درجاتها ومستوياتها، وأهل النار بكل درجاتهم أيضاً، فإذا كان الحال كذلك، فكيف لا يكون الفوز في هذا الموقف فوزاً عظيماً، وأهل الجنّة فيهم الأنبياء والأولياء يغبنون الطغاة والمترفين والمنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار، وهذا كما تعلمون بخلاف الآيات

(١) سورة التغابن، الآية: ٩.

التي جاء فيها الفوز بالمبين، وإنّ ما يدلّ على ما نذهب إليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾[1]، إذ من خلال ملاحظة السياق نجد أنّ الآية جاءت في سياق قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[2]. فالآية قابلت بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبين الذين كفروا واستكبروا، فجعلت من درجات المؤمنين والعاملين للصالحات أنهم على فوز مبين، فيبقى التدبّر لازماً فيما جاءت به الآيات للتعرّف إلى حقيقة ما ينطوي عليه الوصف من معنى، وهذا لا يكون ممكناً إلاّ بملاحظة السياق العام للآيات، الذي يُفيد حقيقة التمايز في الدرجات[3]، سواء في الدنيا، أم في

(١) سورة الجاثية، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٨.

(٣) قد يرى البعض أنه من التكلّف في الكلام أن نتوقف عند اختلاف المفردات القرآنية في خواتيم الآيات كما بيّنا في مدلولات الفوز العظيم والفوز المبين، والفوز الكبير، فنقول: لسنا نؤيّد التكلف أو القول بغير علم، لأنّ القول بغير علم جهل محقّق، ولكنّ الذي دعانا إلى التساؤل والمناقشة هو سياق الآيات وما عرضت له من مواضيع، سواء في الدنيا أم في الآخرة، وإذا كانت المفردات قد اختلفت، فهي مختلفة أصلاً في اللغة: لأنّ معنى العظيم، يختلف عن معنى المبين أو الكبير، فهذا الراغب الأصفهاني يميّز بين هذه المفردات، وقد توقّفنا مليّاً عند ما يعنيه وصف العظيم، حيث رأينا القرآن يقول النبأ العظيم، ولا يقول النبأ الكبير مثلاً، ما يدلّ على أن العظيم له امتياز خاص، بدليل أن الرضوان الذي هو فوق كل ثواب ذكره الله تعالى بالفوز العظيم. فإذا كان العظيم، قد استعير في اللغة لكل كبير، وإذا كان الكبير قد استعير للمعاني، باعتبار أن أقل استعماله هو في الأعيان، فكذلك المبين، فهو الكشف عن الشيء، وهو إنّما سمّي بياناً لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره، نحو ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾، وقد سمّي كما يقول الراغب ما يشرح به المجمل والمبهم في الكلام بياناً، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾، والبيّنة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أم محسوسة، كما يُقال، البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر. را: الراغب الاصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، م. س، ص٣٥١، ص٤٢٧.
إذن لم يكن الذي كان منا تكلفاً، وإنما هو تساؤل عن سرّ الاتيان بالفوز العظيم، ولماذا اختلفت المفردات في الآيات؟ فهل لذلك من دلالة؟ قلنا: نعم، لأنّ القرآن يريد للمتدبّر فيه أن يعقل عنه، وأن يكون له من القرآن الهدى، لقول الإمام علي عليه السلام: «وما جالس القرآن أحد إلاّ قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى، أو نقصان من عمى»، كما أن ما ذهبنا إليه هو بمثابة دعوة إلى التأمل والتدبّر، ولا ندّعي الإنجاز العظيم في هذا السياق، وإن كنّا نرى وجهاً لما نذهب إليه في وجود تمايز حقيقي بين المفردات لجهة ما ترمي إليه من دلالات والله وليّ التوفيق.

الآخرة، على اعتبار أنّ آيات الفوز العظيم تأتي متميّزة في سياقها العام والخاص، وتمنح لأهل الفوز المزيد من المواصفات والخصائص في الدنيا والآخرة، وهذا ما تفيده آيات دابة الأرض التي تخرج وتكلّم الناس وتكون بمثابة الحجّة على الطواغيت والمترفين، بحيث يتبدّى لنا أن الفوز العظيم له تجلّياته أيضاً في الدنيا والآخرة، بل وقبل يوم القيامة في يوم الرجعة يوم يُكلّم الناس في مشهد هو من مشاهد اليوم العظيم، الذي يُفرز فيه الناس بين فائز، وبين خاسر على نحو ما تبيّن لنا في مباحث سابقة. وإذا كان لا بدّ من الإشارة إلى دلائل أخرى في معنى هذا التمايز ودرجاته في الدنيا والآخرة، يمكن للباحث أن يتدبّر في الآية التي لحظ فيها الفوز بما هو فوز كبير حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[1]، فأتى الفوز فيها بوصف الكبير، ولعلّ هذا ناظر إلى كون السياق يتحدّث عن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، وهو فوز ربّما يأتي على درجة الفوز الكبير، لكونه لاحظاً لحقيقة الموقف الذي يكون عليه أهل الإيمان في مقابل الذين يفتنون الناس عن دينهم، لأن السياق لم تختلف فيه المفردة لمجرّد تغيير العبارة، وإنّما لا بدّ من ملاحظة حقيقة الموقف وما يكون عليه الإنسان من تحوّل في الحياة من خلال الإيمان والعمل الصالح والجهاد في سبيل الله تعالى، وذلك من منطلق حقيقة التمايز بين ما يخصّ به المجاهد عن القاعد، وقد فضّل الله المجاهدين على القاعدين درجة»[2]، وجعل لهم تمايزاً خاصاً، وهكذا في كثير من الآيات القرآنية نجد أن الإتيان بالمفردات في خواتيم الآيات لا يكون لمجرّد تغيير المفردة، وإنّما هو ينطوي على معانٍ جليلة يمكن للباحثين أن يتدبّروا فيها

(١) سورة البروج، الآية: ١١.

(٢) قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٩٥].

لعلّهم يكتشفون سرّ هذا التمايز بين أن يكون الفوز عظيماً، أو مبيناً، أو كبيراً. أما نحن، فإنّ ما قدمناه هو مجرّد رؤية وموقف يمكن الاعتراض عليه، ولكنه يبقى قابلاً للبحث والتدبّر على نحو ما بيّنّا في سياق هذا المبحث الذي أكّدنا فيه على أنّ الفوز العظيم إنّما يكون للإنسان المؤمن الذي يخشى الله تعالى فيكون له الفوز العظيم، بل والرضوان من الله تعالى لما أجمع عليه العلماء بأنّ هذا الرضوان هو سبب كل سعادة، وبه تنال كل كرامة، التي هي أكبر أصناف الثواب، ذلك الرضوان، كما يقول المجلسي في البحار، هو الفوز العظيم الذي تستحقر دونه كل لذّة وبهجة...[1].

ثمّ، إنّه ينبغي الالتفات أيضاً أن قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أتى في القرآن مرّة واحدة، وهذا ما يبيّن مدى ما لهذا الرضوان من تمايز عن سائر ما جاء من آيات القرآن، كما أنّه يعزّز من رؤيتنا بأن وصف هذا الرضوان بالفوز العظيم، كما يرى الزمخشري[2]، علامة فارقة في سياق الحديث عن آيات الفوز واختلاف مفردات استعمالاته في القرآن، وقد رأينا سابقاً كيف أن الاختلاف اللغوي يمكن الاستفادة منه في توجيه الرأي لاستخلاص الموقف والرؤية، خلافاً لما يذهب إليه البعض من جمع لهذه المفردات وكأنّها مفردة واحدة في القرآن الكريم.

---

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، م. س، ج٦٤، ص٣٥، وقا: مع الزمخشري، الكشاف، م. س، ج٢، ص٢٨٠.

(٢) يقول الزمخشري عن مشايخه: لا تطمح عيني ولا تنازع نفسي إلى شيء مما وعد الله في دار الكرامة، كما تطمح وتنازع إلى رضاه عني، وأن أحشر في زمرة المهديين المرضيين عنده، «ذلك»، إشارة إلى ما وعد الله، أو إلى الرضوان: أي هو «الفوز العظيم»، وحده دون ما يعده الناس فوزاً، وروى أن الله تعالى يقول لأهل الجنّة هل رضيتم. فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: أي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أدخل عليكم رضوان فلا أسخط عليكم أبداً... وعن الزمخشري أيضاً في ربيع الأبرار عن جابر أنّه إذا دخل أهل الجنّة الجنّة، قال الله تعالى تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا وما خير مما أعطيتنا؟ قال رضواني أكبر.
را: الزمخشري، تفسير الكشاف، م. س، ج٢، ص٢٨١. وقا: مع البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، م. س، ج٢، ص١٤٥.

المبحث الثاني

الفضل والرضوان وثواب الأعمال

إذا كان الرضوان هو غاية ما يطمح إليه الإنسان وتنزع إليه نفسه في الدنيا والآخرة، فإنّ هذا الرضوان، كما رأينا في المبحث السابق، يتميّز في كونه غير محسوس وغير معقول لكونه مما لا يقدّر بقدر ولا يحيط به وهم بشر. فهو رضوان لا توصيف له ولا تعريف كما بيّن القرآن، وخاصة الرضوان الذي هو أكبر من أن يحيط به عقل، أو أن يطاله وصف لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وقد بيّنا أنّ هذه آية وحيدة في القرآن تحيّرت بها العقول، وكلَّت عنها الألسن ما جعل العلماء والمفسرون يتوقفون عن القول فيها إلاّ أن يكون القول عجباً، والوصف تعبداً، فقالوا بالفوز العظيم الذي ليس بعده ملتمس مطلوب، كما جاء في كتاب العمدة لابن البطريق[1]، كاشفاً عن أنّ المحبّة لله تعالى وفي الله تعالى، هي سبيل الرؤية، وتمام القول، وخلاصة الوصف، بعد أن أبان الله محبّته بما تحصل، وعمّا تكون، ثمّ أبان محبّته لعباده ومحبّتهم له بماذا تكون، وهذا كلّه من الفوز العظيم الذي لا التماس بعده[2].

إذن، الرضوان هو سرّ الجنّة، كما هو سرّ القلب، وقد وُعِد به المؤمنون والمؤمنات في سياق أوصاف وشروط من شأن التحقق بها والتوفر عليها أن يكون للإنسان فوزاً ورضواناً، سواء في الدنيا أم في الآخرة، ذلك أنّ هناك الكثير من الآيات التي تبعث على التدبّر فيما يعنيه الفضل والرضوان من حيث أنّ هذين المصطلحين

(١) ابن البطريق، الأسدي الحلّي، العمدة، (٦٠١هـ)، تحقيق جامعة المدرسين، قم، ١٤٠٦هـ، ط١، ص١٥٨.

(٢) م. ع، ص١٥٨.

يأتيان في سياق واحد، كما قال الله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾[1]، وقد تقدّم الفضل على الرضوان لا لسبب، وإنّما لهدف، وهو أن يتحوّل الإنسان في طريق الإيمان والجهاد والتجارة مع الله تعالى، ليكون ممن استحقوا ويستحقون الفضل والرضوان، كما قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[2].

إنّ الفضل والرضوان ليسا وعداً بالجنّة وحسب، وإنّما هما أثر حقيقي، وثواب دنيوي أيضاً يلحق بالإنسان بما يأتيه من جهاد في المال والنفس، وبما يؤدّيه من قول وفعل، وبما يقولونه من صدق، وهذا ما يرشد إليه سياق الآية المباركة التي اشتملت على النصرة لله ورسوله من خلال الطاعة بكل ما أمر الله تعالى به ونهى عنه، بحيث يكون الصدق تجلّياً حقيقياً في الأقوال والأفعال. ولهذا، نجد أن ابتغاء الفضل والرضوان يأتي في سياق الإلتزام والطاعة والنصرة، وغير ذلك مما اشتملت عليه الآية لما تقدّم الكلام فيه من أنّ شروط الفضل والرضوان والفوز العظيم واستحقاق الثواب، إنّما يكون سبيله الدنيا قبل الآخرة، هذه الآخرة التي هي مظهر حقيقي لتجلّيات الفوز والفضل والرضوان، كما قال الله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[3].

صحيح أنّ الآية جاءت في سياق الكلام الإلهي عن الزينة وحبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة، من الذهب والفضّة إلى غير ذلك مما يعني

(١) قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

(٢) سورة الحشر، الآية: ٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥.

الدنيا ومتاعها، إلاّ أنّه لا ينبغي أن نسهى عن السياق العام للسورة المباركة، سورة آل عمران؛ التي تحدّثت عن فئتين التقتا، فئة تقاتل في سبيل الله عزَّ وجلَّ وأخرى كافرة، ثم تابعت الكلام في زينة الحياة لتوضّح في النهاية معنى أن يكون الخير كل الخير فيما يكون للإنسان من رضوان في الآخرة.

والحق يُقال: إنّه مثلما أن الرضوان له درجات وتمايزات في الدنيا والآخرة، فكذلك الفضل من الله تعالى هو له هذا التمايز من حيث كونه فضلاً عظيماً، أو مبيناً، أو كبيراً، إلى غير ذلك مما تمَّ التعرّض له في مبحث الفوز وما اشتمل عليه القرآن من مفردات وتمايزات حقّ أن يكون لها اختلاف وتباين في الدرجات، طالما عرفنا أن الرضوان هو أيضاً له هذا التمايز بين أن يكون رضواناً، أو أن يكون رضواناً من الله أكبر، الذي عجز العلماء عن تعريفه وتوصيفه، وكانت خاتمة كلامهم فيه أنّه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وهكذا، فإنّ ما نروم بحثه في هذا المبحث، هو التوقف على حقيقة ما يعنيه الفضل والرضوان في الدنيا، وما يكون للإنسان من ذلك في طريق كدحه إلى الله تعالى، باعتبار أنّ القرآن قد تعدّدت فيه مفردات الفضل بين أن يكون فضلاً فيما أنعم به على الإنسان في دنياه، وبين أن يكون فضلاً وفوزاً، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[2].

إنّ التدبّر في آيات الله تعالى يكشف لذي لبّ أن الفضل على الإنسان تلازم مع هدايته في التكوين والتشريع، فسبحان الذي قدّر فهدى؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[3]، وقال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ

(١) سورة الدخان، الآيتان: ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٧.

(٣) سورة الليل، الآية: ١٢.

فَهَدَىٰ ﴾[1]، فسبحان الله وتعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[2].

إنّ الله تعالى الذي وعد عبده بالمغفرة والفضل، وأيّده بروح منه بعد أن كتب الإيمان في قلبه، فجعله مهتدياً إلى سرّ وجوده، وجوهر خلافته، ومدركاً لسرّ هبوطه إلى الأرض ليقوم بشؤون الخلافة، ويحمل الأمانة، فلا يكون للشيطان سبيلٌ عليه، ولا منفذٌ إليه، بل يكون الإنسان الخليفة الذي اهتدى بهدي الله تعالى، وآمن بوعده له، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾[3].

لقد بيّن القرآن الكريم حقيقة الفضل على الإنسان في كثير من الآيات، منها ما هو متعلّق بالفضل على الأنبياء، ومنها ما هو متعلّق بالإنسان الذي هداه الله تعالى لما فيه الخير والرضوان في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴾[4]، وقال الله تعالى: ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾[5].

هناك الكثير من الآيات التي تلحظ الفضل على الإنسان في الدنيا، وهذا الفضل، كما قلنا، تلازم مع هداية الإنسان ليكون له الفوز والرضوان والثواب، وطالما أننا تحدّثنا في الفصول السابقة عمّا يعنيه الفوز والرضوان، فإنّ ما سبق يصلح لأن يكون مدخلاً إلى مبحث الفضل وثواب الأعمال، سواء في حياة الإنسان، أم في آخرته، لأنّ الثواب، هو، أمر متحقق للإنسان المؤمن، بعد أن بيّنا أن الرضوان هو شيء فوق الثواب، وبعضهم رأى كما ينقل عن العلامة المجلسي في بحار الأنوار، أنه قال: «**إنّما صار الرضوان أكبر من الثواب، لأنه لا**

(١) سورة الأعلى، الآيات: ١ ـ ٣.
(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.
(٤) سورة سبأ، الآية: ١٠.
(٥) سورة النساء، الآية: ٥٤.

يوجد منه شيء إلاّ بالرضوان، وهو الداعي إليه والموجب له...»[1]، كما أنّ هناك فرقاً كبيراً، كما بيّن العلماء بين أن يريد الإنسان ثواب الدنيا، وبين أن يريد ثواب الآخرة، ومن الناس من يكون له ثواب الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[2]، وهذا ما فصّل الكلام فيه الشريف الرضي رضوان الله عليه في مباحث حقائق التأويل[3] مبيّناً حقيقة ما يكون في الدنيا من الثواب، باعتبار أنّ الثواب كلّه من عند الله تعالى، وليس يوجد شيء منه عند الإنسان، خلافاً لما زعمه أهل الترف في تاريخ الإنسانية من أنّهم قد أوتوا هذا الثواب من عنديّاتهم، قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾[4]، سميعاً لأولئك الذين زعموا ما يكون لهم من ثواب، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، وبصيراً بحال هؤلاء وضعفهم فيما يزعمونه لأنفسهم، مفنّداً لقولهم على لسان أهل العلم[5]، حيث قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا

(١) المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م، ج٢٨، ص٨٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.

(٣) الشريف الرضي، حقائق التأويل، م. س، ص٢١٨.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٣٤.

(٥) إنّ سياق الآية جاء في الحديث عن يتامى النساء وما يتعلّق بهنّ من أحكام، إضافة إلى ما يكون بين الرجل والمرأة في الحياة الزوجية، وجملة الآيات توضّح أن المرتكز الأساسي للإصلاح ليس في الحياة الزوجية وحسب، بل في كلّ ميادين الحياة هي التقوى، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾ [النساء: ١٣١]، فإذا كانت الآية تتحدّث عن ثواب الدنيا والآخرة في سياق خاص، فليس معنى ذلك أنّها لا تتجاوزه، أو أنّه لا يمكن الاستفادة منها في موارد أخرى، كما أجمع عليه علماء الأصول من أن المورد لا يخصص الوارد، وإنّ العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وعليه، فإنّ منطوق الآية ومفهومها يرشد إلى حقيقة أنّ التقوى هي أساس كل سعادة، والتحصّن بها يؤدّي إلى أن يكون للإنسان ثواب الدنيا والآخرة، وكما يقول الطباطبائي: فليس الدين إلاّ طريق السعادة الحقيقية، فكيف ينال نائل ثواباً من غير إيتائه تعالى وإفاضة من عنده وكان الله سميعاً بصيراً».

انظر: الطباطبائي، الميزان، م. س، ج٥، ص١٠٦.

﴿يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[1]، فالآية ناظرة إلى أن الثواب الحقيقي الذي له امتداد الوجود والخلود هو ثواب الله تعالى، الذي هو خير مما يزعمه هؤلاء من مال وولد ونفوذ سياسي، ظنّاً منهم أنّه الفوز العظيم، وهو في جوهره الخسران المبين، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام[2].

هذه هي جملة المسائل التي نودّ التعرّض لها في هذا المبحث، وكلّنا أمل بالله تعالى أن نوفّق لتبيان معنى الفضل والرضوان وثواب الأعمال في هذا المبحث الذي قسّمناه إلى قسمين، الأول: هو البحث في الفضل والثواب في الدنيا، والثاني: هو الفضل والثواب في الآخرة، وكل من هذين المبحثين لا يستغني الباحث فيهما عن الربط بين الفضل والرضوان، طالما أنّ القرآن قد جاء في كثير من الآيات على ذكرهما في سياق واحد لما بينهما من اتصال في جوهر المسعى الإنساني والتحقق الرسالي على نحو ما سنرى في المبحثين إن شاء الله تعالى.

أ ـ الفضل والثواب في الدنيا

لا شكّ في أنّ موضوع الفضل في القرآن، هو من أهم المواضيع التي تحتاج إلى عناية خاصة، لكونه يشتمل على مبادئ جليلة في الفضل وثوابه، سواء في الدنيا، أم في الآخرة، وقد رأينا إيجاز الكلام في هذا الموضوع اقتصاراً منّا على ما يعنينا بحثه في سياق الفوز العظيم والخسران المبين، لأنّ الفضل في القرآن، بما هو تفضّل من الله تعالى على عباده، سواء في الدين[3]، أم في النبوّة[4]، أم في الرزق

(١) سورة القصص، الآية: ٨٠.

(٢) قال الإمام علي عليه السلام: ألا وإنّ من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحّة البدن، وأفضل من صحّة البدن تقوى القلب. ومن كتاب له إلى معاوية، قال: فاتّقِ الله فيما لديك، وانظر في حقّه عليك، وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته، فإنّ للطاعة أعلاماً واضحة وسبلاً نيّرة... فنفسك نفسك! فقد بيّن الله لك سبيلك، وحيث تناهت بك أمورك، فقد أجريت إلى غاية خُسر، ومحلّة كفر، وإنّ نفسك قد أوصلتك شرّاً، وأقحمتك غيّاً، وأوردتكَ المهالك، وأوعرت لك المسالك...

(٣) قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]. والإسلام هو رحمة للعالمين، وكذلك النبوّة.

(٤) من الفضل النبوّة، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

في الجنّة[1]، أم الرزق في الدنيا[2]، أم في الخلف في المال[3]، أم في المنّة على العباد[4]، أم في الرضوان، كما قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾[5]. فهذا الفضل كله على العباد من غير الممكن استيفاء البحث فيه من جميع جوانبه في هذا المبحث، هذا فضلاً عن أنّ ذلك غير مطلوب، طالما أنّ الغاية هي ملامسة الرؤية العامّة لموضوع الفضل توخّياً للفائدة في إطار الهدف الرئيس لهذا المبحث، الذي اقتصرت الغاية فيه على معالجة إشكالية الفوز والخسران من منظور القرآن. وبما أن الفضل الإلهي على الناس قد تلازم مع هدايتهم إلى سبيل الله تعالى ورضوانه، فقد اقتضى الأمر منّا أن نطلّ بالإجمال على هذا الموضوع بالشكل الذي يؤدّي بنا إلى توضيح الرؤية، واستخلاص الموقف الرسالي الذي يتعلّق بالإنسان ومدى التزامه وتحققه بالأمر الإلهي، قولاً وفعلاً، فيما يؤدّيه من أعمال، وقبل ذلك فيما يلتزم به من تقوى وإيمان، لأنّ الله تعالى ضمن للإنسان بفضله، أن لا يكون له خوف ولا حزن فيما لو اتّبع هدى الله تعالى وقام به خير قيام في شؤونه الخاصة والعامة، وفي دينه ودنياه...

لقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من الآيات التي تهدي الإنسان إلى فضل الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذه الآيات فيما تنطوي عليه من معانٍ ودلالات لا تفصل بين فضل الدنيا وفضل الآخرة، لكون الدنيا هي مزرعة الآخرة، هذا فضلاً عن كونها دار الاختيار والبلاء والعمل، وقد شاء الله تعالى أن تكون الدنيا على ما هي عليه من

(١) الفضل، الرزق في الجنّة وثواب الأعمال، قال الله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧١] يعني الرزق في الجنّة.

(٢) من الفضل أيضاً الرزق في الدنيا، قال الله تعالى ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] يعني الرزق في التجارة، كقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٣]، يعني الرزق والغنيمة، ونحوه كثير.

(٣) من الفضل أيضاً الخلف في المال، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، يعني الخلف في المال، مقابل ما يعد به الشيطان من الفقر.

(٤) قال الله تعالى في فضل المنّة: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [البقرة: ٦٤]، يعني لولا منّة الله تعالى.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٤٧.

النعمة والابتلاء والجزاء في المعاد، فمن اهتدى في الدنيا وتبصّر بها أبصرته، ومن بصّر فيها أعمته، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[1]. ومن هنا، نرى أن الفضل الإلهي على الإنسان هادف إلى تمكينه في هذه الحياة ليكون له الفوز في الدنيا والآخرة، بحيث يكون له الثواب في الدنيا والآخرة أيضاً نظراً لما يعنيه الفضل من ثواب، ويزيد عليه من حيث كون الفضل بلسان أهل اللغة، هو الزيادة عن الاقتصار، كما يرى الراغب[2]، وهو الإحسان ابتداءً بلا علّة، كما جاء في المعجم الوسيط[3]، وقد تفضل الله تعالى على الإنسان بأن جعله خليفة له وهداه النجدين، ومَنّ عليه بنعم الدنيا ليكون من الفائزين برضوان الله تعالى، فإذا كان للفضل هذا المعنى في القرآن، فإنّ ذلك يقتضي منّا أن نلحظ سياقات الفضل في القرآن، لنرى كيف أن الله تعالى قد أنعم وأفضل فيما وعد الإنسان به من فضل كبير، وفضل مبين في مسيرة تحققه الإنساني؟ ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً هو ما يُفيده سياق الآيات القرآنية من تمايز للفضل بين أن يكون كبيراً، أو مبيناً، إذ لم يأتِ القرآن على ذكره إلاّ بهذه الصفات، مؤكّداً على أن الله تعالى هو ذو الفضل العظيم، خلافاً لما جاء به سياق الآيات من فوز عظيم، وهذا يؤكّد للمتدبّر في القرآن أنّ للعظيم دلالة خاصة في آيات الله تعالى.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

(٢) يفصّل الراغب كلامه في الفضل، فيقول: «الفضل في المحمود أكثر استعمالاً، والفضول في المذموم. فهناك فضل من حيث الجنس، كفضل جنس الحيوان على جنس النبات، وفضل من حيث النوع كفضل الإنسان على غيره من الحيوان، وعلى هذا النحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾، وهناك فضل من حيث الذات كفضل رجل على آخر، فالأولان جوهريان لا سبيل للناقص فيهما، أن يزيل نقصه، وأن يستفيد الفضل كالفرس لا يمكنه أن يكتسب الفضيلة التي خصّ بها الإنسان، والفضل الثالث قد يكون عرضياً فيوجد السبيل على اكتسابه، ومن هذا النوع التفضيل المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ ﴾. وكل عطيّة لا تَلْزَم من يعطي يقال لها فضل نحو قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾، وهنا تكمن حقيقة الفضل الإلهي الذي يُعطي فضلاً منه ورحمة في الدين والدنيا. را: الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، م. س، ص٣٩٦.

(٣) انظر: المعجم الوسيط، انتشارات ناهد خسرو، طهران، إيران، إخراج مجموعة من الأساتذة، إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد، ج٢، ط٢، دون تاريخ، ص٦٩٣.

وهكذا، فإنّ معنى أن يكون الله تعالى هو المفضل وهو المنعم، وهو المحسن، أن يعي الإنسان أن الفضل بيد الله تعالى يؤتيه مَن يشاء، كما قال الله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1]. وقال الله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[2]. وهذا الفضل الذي خصّ به الإنسان في الحياة، سواء أكان ديناً، أم نبوة، أم رزقاً دنيوياً أم أخروياً، كما أفاد صاحب قاموس القرآن[3]، هو لاحق بالإنسان تكويناً وتشريعاً لما كتبه الله تعالى على نفسه من رحمة وهداية للإنسان، باعتبار أنّه لم يخلق سدى ولم يترك هملاً، بل جعله خليفة في الأرض وهداه إلى ما يكون له به الثواب في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[4].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[5]. وهذا ما توقّف عنده الشريف الرضي مليّاً، كاشفاً عن أنه لا تنافي بين حصول ثواب الدنيا مع ثواب الآخرة، لأنّ مَن يريد الآخرة بجهاده قد تحصل له الغنيمة في الدنيا، فيكون الله تعالى جامعاً له بين الأمرين.... وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾[6]، هو نظير قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾[7]، وإنّما

(١) سورة الحديد، الآية: ٢١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.

(٣) انظر الدامغاني، الحسين بن محمد، قاموس القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥، ط٢، ص٢٦١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.

(٦) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

قال سبحانه ذلك ترغيباً في العمل للآخرة، إذا كان يضاعف الاستحقاق عليه ويتكفّل في الزيادة فيه، تعظيماً لقدر ثواب الآخرة، ألا تراه تعالى كيف وصفه بالحسن ولم يصف ثواب الدنيا بذلك، لأن حاليهما مختلفان، فقال سبحانه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾، وهذا من غوامض القرآن، فاستيقظ له[1]. وإذا كان لنا من رأي في هذا الموضوع، فإنّه سبق لنا أن أشرنا إلى أنّ ثواب الدنيا والآخرة هو عند الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾.

وهذا ما عرضنا له في تمهيد الفصل، حيث رأينا أن البعض قد يتوهّم أنه سبب الفضل، أو أنّ هذا الفضل يكون له من عنديّاته، كما زعم قارون، لكن حقيقة الأمر ليست كذلك، لأنّ ما عند غير الله تعالى لا يكون ثواباً، بل طغياناً، وكفراً، وجهلاً بمواقع النعم، كما قال الله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[2]. فالفضل سواء أكان رزقاً، أم نبوّة،، هو من عند الله تعالى...

إنّ من أفضل نعم الله تعالى على الإنسانية في تاريخها، هو ما زيّنه في القلوب من الإيمان، وما بعثه لعباده من أنبياء ورسل للهداية إلى سبل السلام والثواب والرضوان، فقال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[3].

---

(١) الشريف الرضي، حقائق التأويل في متشابه التنزيل، مؤسسة البعثة، طهران، قم، ١٤٠٦هـ، ص٣٨٤.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٩. يقول الطوسي في تفسير هذه الآية: معناه ليعلموا أن الفضل بيد الله ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾، أي يعطيه من يحب ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ ممّن يعلم أنه يصلح له، ثم قال الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، معناه ذو تفضّل على خلقه وإحسان على عباده عظيم لا يحصى كثرة ولا يُعدّ.
را: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، م. س، ج٩، ص٥٣٨.

(٣) سورة الحجرات، الآيتان: ٧ ـ ٨.

لقد أردنا أن تكون هذه الآية المباركة مرتكزاً في مبحث الفضل والثواب في الدنيا، لقوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾، وذلك من منطلق أن إطلاق الفضل في الآية لجهة ما تفيده من إيمان وحبّ وزينة في القلوب، هو كاشف عن حقيقة إحاطة الفضل والنعمة بالإنسان لأجل أن يكون له كامل التحقق في صيرورته الوجوديّة، بحيث يكون مهتدياً إلى ما أراده الله تعالى به في الدين والدنيا، وهذا ما ذهب إليه الزمخشري في الكشّاف[١]، والطباطبائي في الميزان[٢]، والكاشاني في تفسير الصافي[٣]، والطبرسي[٤]، والطوسي[٥]، فهؤلاء جميعاً ذهبوا إلى القول بأنّ الطاعة للرسول ﷺ فيما يأمر به وينهى عنه، هي تستبطن كامل الثواب للإنسان، وقد سبق القول منّا بأنّ الطاعة لله ورسوله من مؤدّياتها في الدنيا والآخرة الفوز العظيم، لأنّ مقتضى الطاعة أن يكون الإنسان حيث أمره الله تعالى وأن لا يكون حيث نهاه، وقد حذّر الله تعالى في مخالفة أمره، فقال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ...﴾[٦]، إلى كثير من الآيات التي تمنع الإنسان من العمل خلافاً لأمر الرسول ﷺ لما يؤدّي إليه ذلك من عنتٍ ومشقّة، وقد أفاد الزمخشري في كلامه، وبلاغته المعهودة، وعبقريته المشهودة، أن الذين استثناهم بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي إلى بعضكم، ولكنه أغنت عن ذكر البعض ممن كانت صفتهم مفارقة لصفة غيرهم، وهذا من إيجاز القرآن ولمحاته اللطيفة، التي لا يفطن لها إلاّ الخواص...»[٧]، وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾،

(١) الزمخشري، الكشاف، م. س، ج٤، ص٣٥٢.
(٢) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج١٨، ص٣١٨.
(٣) الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج٢، ص٢٧٢.
(٤) الطبرسي، مجمع البيان، م. س، ج٤، ص١٣٢.
(٥) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، م. س، ج٤، ص٣٥٢.
(٦) قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، سورة النور، الآية: ٦٣.
(٧) انظر: الزمخشري، الكشاف، م. س، ج٤، ص٣٥٢.

والخطاب لرسول الله ﷺ، أي: «**أولئك المستثنون هم الراشدون المهتدون إلى كل خير...**»[١].

غاية القول: إنّ الفضل في الآية، الذي هو مصدر من غير فعله، أو مفعول له، كما رأى أهل اللغة، له امتداده في حياة الإنسان المؤمن، وفيه يكمن سرّ الثواب الإلهي للإنسان فيما لو اتبع الهدى، وأطاع الرسول والذين معه ممن تشملهم آية الفضل والرضوان في سورة الفتح[٢]، وشملهم الاستثناء في سورة الحجرات، وفي جميع الأحوال، يمكن القول: إنّ ما ينال الإنسان من الثواب في الدنيا، هو إنّما يكون نتيجة الطاعة، ولا بدّ أن هذا الثواب لاحق به إلى الآخرة ليكون له تمايزه عن سائر الناس، وخاصة أولئك الذين أرادوا أن يكون رأي الرسول الأكرم ﷺ تابعاً لرأيهم، واختاروا أن يكونوا على هدى أنفسهم وشياطينهم، وقد يكون من المناسب جداً في هذا السياق أن نعرض لما يعنيه الثواب والطاعة في جملة من الآيات والتي كانت سبباً في إثارة الكثير من الأسئلة حول ما إذا كان الثواب عاجلاً أو آجلاً في حياة الإنسان، طالما أن هذا الأخير لم يحرم في حياته قبل آخرته من أن يكون له نصيباً من الثواب، أو العقاب على ما كان منه من فعل، سواء فعل طاعة، أم فعل معصية، وهذا ما عرض له الشيخ المفيد في أوائل المقالات، بقوله: «**إنّ الله تعالى يثيب بعض خلقه على طاعتهم في الدنيا ببعض مستحقيهم من الثواب ولا يصح أن يوفيهم أجورهم فيها لما يجب من إدامة جزاء المطيعين، وقد يعاقب بعض خلقه في الدنيا على معاصيهم فيها ببعض مستحقيهم على خلافهم له وبجميعه أيضاً لأنه ليس كل معصية له يستحقّ عليها عذاباً دائماً...**»[٣].

(١) شبّر، عبد الله، تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٩، ط١، ص٦٤٧.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٨.
(٣) الشيخ المفيد، أوائل المقالات،، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ص١٣٢.

لقد سبق لكثير من الأمم والشعوب أن نالت الثواب، أو أصيبت بالعقاب، بما كسبت الأيدي، وهذا الثواب، أو العقاب، هو حقيقة يعرض لها القرآن في كثير من الآيات، كما قال الله تعالى في المؤمنين: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾[1].

وقال الله سبحانه في المعذبين: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ ﴾[2]. وقال الله تعالى: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾[3].

لذا، فإنّ ما نودّ التوقف عنده في هذا المبحث، هو الإشارة إلى أن الثواب والفضل في الدنيا ليس مجرّد مفردة قرآنية تعرض لحالة مجرّدة، وإنّما هو تحقق للفضل والثواب والرضوان أيضاً على النحو الذي يؤكّد أنّه مثلما يمكن أن تضاعف الحسنات في الآخرة، المشار إليه بحسن الثواب، فكذلك يمكن أن يضاعف العذاب في الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ ﴾، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ ﴾، وما كلام المفيد سوى تأكيد لمضمون الآيات القرآنية، وقد حقّ القول على كثير من الأمم والشعوب، فمنهم مَن أصيب بكل ذنوبه، ومنهم من أصيب ببعض الذنوب، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾[4]. وهذا تنبيه، كما يقول شبّر في تفسيره على أن المجازات بجميع

(١) سورة نوح، الآيات: ١٠ ـ ١٢.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١٦.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٤.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٩.

الذنوب يكون في الآخرة[1]، كقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ...﴾[2]، وهذا الكلام يمكن المناقشة فيه في ضوء ما يعرض له القرآن من عذابات لحقت بالأمم. فكان لها الاستئصال، ومنها مَن لحق بها العذاب ببعض الذنوب زجراً وردعاً لعلّهم يرتدعون عن المعاصي، وكثيراً ما بدّل الله الحسنة مكان السيئة بهدف أن يرعووا عن الذنب، ولكنهم كانوا يسيئون للفضل والنعمة، كحال أولئك الذين قالوا: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[3]. فكلام العلاّمة شبّر بأنّ المجازاة بجميع الذنوب يكون في الآخرة قد لا يكون محقاً، وإن كنّا نوافقه الرأي في أن بعض الأمم قد أُخذت ببعض ذنوبها. أما النقاش في نوعية العذاب ومقدار ما يؤول إليه في الآخرة، فهذا ما عرضنا له بالقول: إنّه يمكن أن يضاعف دون أن يخرج عن حدّ الاستحقاق لما أفاده ابن شهراشوب في تفسير قوله تعالى: ﴿... وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[4]، يقول: «**المعنى يضاعف العقاب له في كثرة الأجزاء لا أنه يضاعف استحقاقه، لأن الله تعالى لا يعاقب بأكثر من المستحق لأن ذلك ظلم**»[5].

خلاصة القول: إنّ الفضل والثواب في الدنيا له تحققات كثيرة في واقع الإنسان، وقد اشتملت عليه مئات الآيات القرآنية، سواء الفضل بحق الأنبياء والرسل، أو بحق الأمم والشعوب. فهو فضل الله تعالى على الإنسان ظاهراً وباطناً، ديناً ونبوّة ورزقاً في الجنة، ومثلما أن هذا الفضل والنعمة في الدنيا يلحق به الثواب والعقاب في الدنيا بحسب ما يكون عليه الإنسان من طاعة ومعصية، فكذلك يكون هذا الفضل والعقاب في الآخرة، وأيضاً بحسب ما يؤول إليه الإنسان

(١) شبّر، عبد الله، تفسير القرآن، م. س، ص١٦٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٥.
(٤) سورة الفرقان، الآيتان: ٦٨ ـ ٦٩.
(٥) ابن شهراشوب، المازندراني، متشابه القرآن، م. س، ج٢، ص١١٥.

من دنياه إلى آخرته، لأنه، كما بيّن الشيخ المفيد، ليس كل معصية يستحق عليها عذاباً دائماً، لكن أهل الطاعات لهم ديمومة الفضل والثواب لما بشّرهم به الله تعالى من نعيم الثواب في الآخرة، ومن الفضل الكبير، وبما كان منهم من طاعة لله تعالى والرسول ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾[1]، وقد لا تفي هذه الخلاصة بما كان ينبغي أن نعرض له في موضوع الفضل وما يكون للإنسان منه في دنياه قبل آخرته، إلاّ أننا، وبعون الله وتوفيقه، قدمنا رؤية واضحة حول ما ينبغي استيعابه من السياق القرآني حول الفضل والنعمة، باعتبار أن القرآن قد أكثر من استعمال مفردات: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾. وهم إنّما كانوا يبتغون ذلك في الدنيا لأجل الآخرة، لأنّ الدنيا هي متجر أولياء الله تعالى، ولا بدّ من صيرورة الإنسان في هذا الفضل ليكون من أهله، بحيث يتوفر الإنسان على كامل الشروط والمواصفات التي تؤهّله لأن يكون على فوز عظيم، أو مبين، أو كبير في الدنيا والآخرة، وهذا ما سنكمل بحثه في موضوع الفضل والثواب في الآخرة إن شاء الله تعالى.

ب ـ الفضل والثواب في الآخرة

كانت ولا تزال المدارس الكلامية والفلسفية تتجاذب الرؤى فيما يتعلق بالفضل والثواب في الآخرة، نظراً لما يثيره من إشكاليات في مجال الاعتقاد، وقد استبدّت كل فرقة بما تراه حقاً وفقاً لبراهينها وأدلّتها التي غالباً ما خالفت الكتاب والسنّة فيما ارتكزت إليه كل فرقة من قواعد للتدليل على

(١) سورة النساء، الآيتان: ٦٩ ـ ٧٠.

وجهة نظرها وصحّة اعتقادها. ولسنا في هذا المبحث نريد أن نستغرق في مباحث الفرق والمذاهب الإسلامية، وإنّما استجماع بعض الآراء والمواقف لمناقشتها في ضوء القرآن الكريم، لنرى مدى موفقية البعض في عرض رؤيته وأدلته في الفضل والثواب في الآخرة. وبما أنّ مرتكز بحثنا السابق كان الفضل والنعمة فيما مَنَّ الله تعالى به على الإنسان من إيمان وتحبيب له في مقابل ما كرّهه الله تعالى للإنسان من كفر وفسوق وعصيان، فإنّنا في هذا المبحث سنواصل الكلام في الفضل والثواب على قاعدة الاتصال بين فضل الدنيا وفضل الآخرة من خلال الربط المحكم إن شاء الله تعالى، بين قوله سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]، وبين قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2]، لا شكّ في أنّ المسوّغ لهذا الربط هو أن فضل الله تعالى له حقيقة الامتداد في وجود الإنسان، وهو يبدأ من الطاعة والامتحان في الدنيا، وينتهي بالفوز في الآخرة، وفي ضوء هذا الامتداد يكون لكل إنسان درجته، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[3]: وإذا كان الناس في حياة رسول الله ﷺ قد انقسموا بين مسترشد بآيات الله تعالى ومطيع لرسوله

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ٧ ـ ٨.
(٢) سورة الدخان، الآيات: ٥٢ ـ ٥٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.

فيما يأمره به، وبين متّبع للرأي، ومستند لنبأ الفسق، كما هو مضمون آية سورة الحجرات، فإنّ هذا الانقسام لا بدّ أنّه متحقق في الآخرة، بحيث يكون لكل فريق امتداده في الطاعة والمعصية، فينال كل فريق جزاؤه، فإن كان مطيعاً، فإلى الفوز والرضوان، وإن كان عاصياً، فإلى ما أعدّ له مما يناسب من العذاب والعقاب، بعد أن يكون هذا الإنسان بمعصيته قد أذهب طيّباته في الحياة الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[1].

وهكذا، فإنّ ما كان من الفضل في الآخرة والفوز العظيم لم يكن للإنسان من خارج ما اكتسبته يداه، بل هو بما اكتسب رهين، وبهذا يكون معنى الفوز والتفضل به في الآخرة، امتداداً للفضل والنعمة في الدنيا، ولعلّ أحداً من المفسرين لم ينتبه إلى حقيقة هذا الربط بين الفضل في آية الحجرات الذي أطلق الكلام فيه، وبين الفضل في آيات سورة الدخان الذي أطلق الكلام فيه أيضاً بما يفيد دلالة واضحة أن الفضل والثواب، سواء في الدنيا، أم في الآخرة، إنّما يكون للإنسان بما أُرشد له وأطاع فيه، خلافاً لمن يزعم، في تأويل آية الحجرات، أنّ الله حبّب إلينا الإيمان بحيث يسند فيه الفضل إلى الله تعالى في مقابل من ذهب إلى القول بأنّ التحبيب هو من باب اللطف بالعباد كما رأى الزمخشري، ورُدَّ عليه

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

تعسّفاً، متهمين إيّاه بأنّه قد تلجلج والحق أبلج[1]. وقد أفاد العلامة الطباطبائي في تفسيره فإنّه ليس في الفعل سوى ترشيد إلى وجوب التحرز عن بناء العمل

(١) جاء في كتاب الانصاف للإمام أحمد الإسكندري اعتراض ومناقشة للزمخشري فيما ذهب إليه حول معنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق، وإنّ حمل آية الحجرات على ظاهرها يؤدّي إلى أن يثنى عليهم بفضل الله تعالى، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ [الأعراف: ١٨٨].
يقول الزمخشري: إنّ الرجل لا يمدح بغير فعله، وحمل الآية على ظاهرها يؤدّي إلى أنّ يثني عليهم بفضل الله تعالى، وقد اعترض الإمام أحمد الإسكندري على كلام الزمخشري، بقوله عن الزمخشري أنّه تلجلج والحق أبلج، وزاغ والسبيل منهج، وقاس الخلق بالواحد الأحد متهماً إيّاه بالجرأة على تأويل الآية وإبطال ما ذكرته من نسبة تحبّب الإيمان إلى الله تعالى على حقيقته، وجعل مجازاً إلى آخر ما أفاده لإظهار رأيه بأنّ الله منح ومدح وأعطى وامتن. فلا موجود إلاّ الله وصفاته وأفعاله، وكأنّه يريد القول، وهو كذلك، بخلق الأفعال، وبأنّ ما يأتي به الإنسان هو فعل الله تعالى على جري ما ذهب إليه الأشاعرة وأهل الجبر، وهو يطارح الزمخشري بالقول: أخبرني عن ثناء الله على أنبيائه ورسله بما حاصله اصطفاؤه لهم لاختياره إياهم: هل بمكتسب أم بغير مكتسب، فلا يسع القول إلاّ أنّه اثني عليهم بما لم يكتسبوه، بل بما وهبه إيّاهم فاستهبوه. وإن عرج على القسم الآخر وهو دعوى أنّهم أثني عليهم بمكتسب لهم من رسالة أو نبوّة، فقد خرج عن أهل الملّة، وانحرف عن القبلة...
را: هامش الكشاف للزمخشري، ج٤، ص٣٥٢.
وكما نلاحظ أنّ الإمام أحمد يصادر على المطلوب، ويذهب إلى غير المرغوب، لإظهار أنّه موهوب، والحق الحقيق. هو أن أحداً لا يُصطفى ولا يُختار من غير أن يكون أهلاً للاختيار، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، ثم أنّ الزمخشري مثله مثل سائر علماء البلاغة وأهل التفسير لم يتلجلج، وسبيله منهج فيما ذهب إليه في فهم الآية وتفسيرها نظراً لما يعنيه الاستثناء بـ(لكن): التي وقعت في حاق موقعها من الاستدراك، إذ هي بذاتها تُشكّل دليلاً من القرآن بأن من يمدح إنّما يمدح لفعله، وإلا لم تلزم الأسماء معانيها على نحو ما بيّنا سابقاً من ضرورة أن يكون الرسول ﷺ قدوة وأسوة حسنة، فإذا كان الفضل مضافاً إلى الله تعالى كما يذهب الإمام أحمد فلا يبقى معنى لكثير من الآيات التي تحمّل الإنسان مسؤولية أفعاله، وكان قوله سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ...﴾ [الزمر: ٧]، غير ذي جدوى. وهكذا، فإنّ الفعل فعل الإنسان، وخير ما يمكن أن نذكره لتبيان وجه الحق هو قول الإمام الرضا عليه السلام: «من زعم أنّ الله فعل أفعالنا ثم يعذّبنا عليها، فقد قال بالجبر، ومن زعم أن الله فوّض أمر الخلق والرزق إلى حججه فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك، وختم الإمام عليه السلام كلامه بالقول: أما الطاعات فإرادة الله ومشيئته فيها الأمر بها والرضا بها والمعاونة عليها، وإرادته في المعاصي النهي عنها، والسخط لها والعقوبة عليها والخذلان بها. وما من فعل فعله العباد من خير وشرّ إلاّ ولله فيه القضاء، والقضاء هو الحكم على العباد بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، وكما يقول الفقيه الأصفهاني:

أيكلف الذنب العظيم عباده ... وبه يعذبهم فذا ظلمان
والله ليس بظالم لعباده ... وبذلك أنطق محكم القرآن

را: ابن شهراشوب، متشابه القرآن، م. س، ج١، ص١٩٣.

على الجهالة، إضافة إلى تنبيه المؤمنين على أن الله سبحانه أوردهم شرع الرشد ولذلك حبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فعليهم أن لا يغفلوا عن أنّ فيهم رسول الله ﷺ وهو مؤيَّد من عند الله، وعليهم أن يطيعوا الرسول ﷺ فيما يأمرهم به، وأن لا يصرّوا على إطاعة آرائهم وأهوائهم، فإنّه لو يطيعهم في كثير من الأمر جهدوا وهلكوا، باعتبار أنّ قوله سبحانه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ...﴾، عطف على قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وتقديم الخبر للدلالة على الحصر... والمراد بتحبيب الإيمان إليهم جعله محبوباً عندهم... وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾، بيان أنّ حبّ الإيمان هو سبب الرشد الذي يطلبه الإنسان بفطرته.. فعلى المؤمنين أن يلتزموا الإيمان ويتجنبوا الكفر والفسوق والعصيان حتى يرشدوا ويتّبعوا الرسول ولا يتبعوا أهواءهم[١].

كان لا بدّ من التعرّض للآراء بهدف تبيان حقيقة أن الفضل والثواب في الدنيا إنّما يكون على ما يختاره الإنسان، وليس على ما يلجأ إليه أو يكره عليه، بحيث يكون للإنسان ما يحققه لنفسه، سواء في الدنيا، أم في الآخرة، وإلاّ بطل الثواب، واستحال أن تلزم الأسماء معانيها؛ وعليه. فإنّه يمكن إحكام القول بأن الفضل والثواب أطلق في الآيات للتدليل على هذه الحقيقة التي مؤدّاها الاستحقاق ونيل الثواب تفضلاً من الله تعالى، وذلك من منطلق أن الثواب هو فضل من الله تعالى وإن كان استحقاقاً لما أفاده الشيخ الكاشاني في تفسيره[٢]، والعلامة الطبرسي في مجمع البيان[٣]، والعلامة الطباطبائي في الميزان[٤]، بأنّ الله سبحانه خلق الخلق وأنعم عليهم وركّب فيهم العقل وكلّفهم وبيَّنَ لهم من الآيات ما استدلّوا به على وحدانية الله

(١) الطباطبائي، تفسير الميزان، م. س، ج١٨، ص٣١٨.
(٢) الكاشياني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج٢، ص٢٣٣.
(٣) الطبرسي، مجمع البيان، م. س، ج٩، ص٣٢٣.
(٤) الطباطبائي، الميزان، ج١٨، ص٣١٩.

تعالى وحسن الطاعات، فاستحقوا به النعم العظيمة، ثمّ جزاهم بالحسنة عشر أمثالها، فكان ذلك فضلاً منه، وقيل إنّما سمّاه فضلاً، وإن كان مستحقاً، لأنّ سبب الاستحقاق هو التكليف والتمكين، وهو فضل منه سبحانه[1].

فالله تعالى هو المنعم والمفضل والمحسن، والفضل كلّه بيده، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[2]، وهو لا يفعل جزافاً، وقد تقدّم الكلام في أنّ الغاية هي للفعل وليس للفاعل، والمقصود هو تكميل الإنسان وبعثه في الحياة ليكون له الفضل والثواب، وقد شاء الله تعالى أن تكون الأمور بأسبابها، وهو عليم بمورد عطيّته، ولا يفعل جزافاً، كما أفاد الطباطبائي بقوله: «**إنّ الفضل منه تعالى مجرّد عطيّة ونعمة لا إلى بدل يصل إليه من العباد، لكن ليس فعلاً جزافاً، فإنّه تعالى عليم بمورد عطيته، حكيم لا يفعل ما يفعل جزافاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾**»[3].

إنّ فضل الآخرة مسبوق بفضل الدنيا، سبق العلّة للمعلول، والسبب للمسبّب، والفوز في الآخرة مسبوق بالفوز في الدنيا، كما قال الإمام علي عليه السلام: «**فزتُ وربّ الكعبة**»[4]، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال الإمام علي عليه السلام: «**ونشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، خاض إلى رضوان الله كل غمرة، وتجرّع فيه كلُّ غصّة...، ومن كتاب له إلى معاوية، قال: وأمّا قولك: إنّا بنو عبد مناف، فكذلك نحن، ولكن ليس أميّة كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق... ولما أدخل الله العرب في دينه أفواجاً، أسلمت له هذه الأمة طوعاً**

(١) الطبرسي، مجمع البيان، م. س، ج٢٩، ص١١٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٣.
(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٦.
(٤) المغربي، القاضي النعمان، شرح الأخبار (ت ٣٦٣)، تحقيق الجلالي، قم، دون تاريخ، ج٢، ص٤٤٢. وقا: مع الطبري، محمد جرير، المسترشد (توفي في القرن الرابع الهجري) تحقيق المحمودي، ١٤١٥هـ، ط١، قم، مؤسسة الثقافة، ص٤.

وكرهاً، وكنتم ممن دخل في الدين إمّا رغبة، وإمّا رهبة، على حين فاز أهل السبق بسبقهم، وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم...»[1].

إذن، الفوز في الدنيا والفضل فيها هو سبيل إلى الفوز في الآخرة، فينقسم الناس بين من حقّ لهم الوعد، ومن حقّ عليهم الوعيد، فليحذر الإنسان أن يذهب بطيّباته في الحياة الدنيا في المعاصي، في حين أنّ الله تعالى قد أحلّ له الطيّبات من الرزق، وإذا كان لا بدّ من الاستمتاع بالطيبات في الدنيا، فليأخذ بها الإنسان من وجوهها ومن حيث أحلّت له، بحيث يكون مطيعاً لأمر الله تعالى، باعتبار أن الحرام بيّن والحلال بيّن، فليرعوي عن الشبهات، لأنّ مَن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيها، وهذا ما أفاض الشريف الرضي في بيانه، قائلاً: إنّ المشتهى قد يكون حسناً، وقد يكون قبيحاً، لأنّه يكون من وجه يحلّ، ومن وجه يحرم، لأنّ حبّ ذلك هو إرادته، فقد يكون طاعة، وقد يكون معصية، فإن كان معصية، فالشيطان زينة ودعا إليه، وإن كان طاعة أو مباحاً، فالله تعالى زينة وأمر به المؤمنين...»[2].

لا شكّ في أنّ الكلام قد يطول فيما بين فضل الدنيا والفوز فيها، وبين فوز الآخرة ونعيمها من اتصال، وذلك بعد أن بان وجه الفرق في الفضل بين الدنيا والآخرة في القرآن الكريم وبعد أن أجمع الفقهاء وعلماء التفسير على أنّ الله تعالى يعلم بموارد عطيّته، ولا يفعل جزافاً، وإنّما لحكمة، وفي ضوء ما يكون عليه الإنسان من طاعة أو معصية، فإمّا أن يكون له الفوز العظيم، وإمّا أن يكون له الخسران المبين. وإذا كان بعض العلماء من أصحاب الفرق الإسلامية، قد اختلفوا في نعيم الجنة، هل هو تفضّل أو ثواب؟ فإنّ طائفة الإمامية أجمعت على أنّ كل ما يكون للإنسان، سواء في دنياه أم في آخرته، فهو فضل من الله تعالى، وهذا ما اختلف آخرون بشأنه، يقول الأشعري: «**اختلفوا في نعيم الجنة على مقالتين: قال قائلون: كلّ ما في الجنّة**

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، ص١٣٢.

(٢) الشريف الرضي، حقائق التأويل، م. س، ص٣٤٨.

ثواب ليس بتفضّل، وقال بعضهم: بل ما فيها تفضّل ليس بثواب..»[1].

أمّا الشيخ المفيد، فقال: «**إنّ نعيم أهل الجنّة على ضربين: ضرب منه تفضّل محض لا يتضمن شيئاً من الثواب، والضرب الآخر تفضّل من جهة وثواب من جهة أخرى، وليس في نعيم أهل الجنّة ثواب ليس بتفضّل على شيء من الوجوه. فأما التفضّل منه المحض، فهو ما يتنعّم به الأطفال والبهائم والبله إذ ليس لهؤلاء أعمال كلّفوها توجب من الحكمة إثابتهم عليها. وأما الضرب الآخر، فهو تنعيم المكلّفين، وإنّما كان تفضّلاً عليهم لأنهم لو منعوها (منعوه) ما كانوا مظلومين (مكلّفين) إذا ما سلف لله تعالى عندهم من نعمه وفضله وإحسانه يوجب عليهم أداء شكره وطاعته وترك معصيته، فلو لم يثبهم بعد العمل ولا ينعمهم لما كان لهم ظالماً، فلذلك كان ثوابه لهم تفضلاً. وأما كونه ثواباً فلأنّ أعمالهم أوجبت في جود الله وكرمه تنعيمهم وأعقبتهم الثواب وأثمرت لهم فصار ثواباً من هذه الجهة وإن كان تفضّلاً من جهة ما ذكرناه، وهذا مذهب كثير من أهل العدل من المعتزلة والشيعة، ويخالف فيه معتزلة البصرة والمجبرة والجهمية ومن اتبعهم...»**[2].

لقد سبق للشيخ الطبرسي في مجمع البيان، والعلامة الطباطبائي في الميزان، أن ذهبوا إلى هذا القول، ولعلّ إجماع الإمامية عليه، وهذا هو مفاد ظاهر الكثير من الآيات، والعباد وإن كانوا قد كلّفوا ووهبوا العقول، وأدّوا الأعمال، واستحقوا أن يكونوا على فوز وثواب، إلى أنّ ذلك كلّه هو بيد الله تعالى، وقد تفضّل عليهم بما لو قاموا الليل والنهار، وبذلوا المُهج والأرواح لما أدّوا شكر نعمة من نعمه. ذلك هو الله تعالى الذي خلق فسوّى، وقدّر فهدى، فأنّى للعباد أن يكونوا على ثواب دون فضل

(١) الأشعري، أبو الحسن، علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين (ت ٣٣٠هـ) دار المعارف، ط٢، ١٩٨٥، ج١، ص٢٩٥.

(٢) الشيخ المفيد، أوائل المقالات، م. س، ص١٣٢.

وتفضّل وقد قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما من الناس أحد يدخل الجنّة بعمله، قالوا ولا أنتَ يا رسول الله، قال ولا أنا إلاّ أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل**»[1]. وهذا إن دلَّ على شيء، فإنّما يدلّ على أنّ الفضل من الله تعالى هو مرتكز الفوز لمن آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، أما مَن كذّب وتولّى، والذي لا صدّق ولا صلّى، أو كذّب وعصى، فكما قال الله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[3].

هناك مسائل كثيرة عرض لها أهل العلم، وخصوصاً ما يتعلق منها بالمغفرة ودوام العذاب، أو انقطاعه، وغير ذلك مما ذهب العلماء فيه مذاهب شتّى بين قائل بغفران الكبائر والصغائر، وبين قائل بأن الله يغفر الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، هذا إضافة إلى ما اختلفوا فيه بين قائل بدوام العذاب، وقائل بانقطاعه. إنّ هذا كلّه سبق العلماء المسلمين، قديماً وحديثاً، أن عرضوا له في مباحثهم الكلامية والفلسفية، وقالوا فيه حقاً وباطلاً، ولو أنهم التفتوا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ...﴾[4]، لما تمادوا كثيراً في الشروح، ولأدركوا معنى الأخبار التي جاء بها القرآن، والتي يمتنع فيها الكذب ضرورة كما أفاد شبّر في حقّ اليقين[5]، مبيّناً أنّ الله تعالى قد وعد أنبياءه ورسله بالانتقام من أعدائهم وخلودهم في العذاب الدائم، وهو وعد من الله تعالى لأنبيائه يمتنع خلفه. أما قولهم، أي الذين يقولون بانقطاع العذاب، بأنّ الطاعات لا تنفع الله والمعاصي لا تضرّه،

(١) الشيخ الحويزي، تفسير نور الثقلين، (ت ١١١٢هـ)، تحقيق هاشم المحلاتي، مؤسسة إسماعيليان، قم، ١٩١٢، ج١، ص٧٠٦.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٣.

(٣) سورة طه، الآية: ٤٨.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٥) شبّر، عبد الله، حقّ اليقين في معرفة أصول الدين، مطبعة العرفان، صيدا، بيروت، ١٣٥٢هـ، ج٢، ص١٨٠.

كلام حق، بل الطاعات تنفع فاعليها والمعاصي تضرّهم، وقد بيّن الله تعالى في وعده ووعيده، أن يكون للإنسان جزاء أعماله، فإن عمل خيراً وأطاع الله ورسوله، كانت له الجنة والفضل الإلهي، وإن عمل شرّاً وكذّب الرسل، فحقَّ العقاب ولبث الأحقاب، التي ارتكز إليها البعض لتسويغ انقطاع العذاب، حيث رأى بعض العلماء كالرازي، وابن عربي، وغيرهم، أنّ قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾[1]، إنّما يعني توقيت لأنواع العذاب، وقد روي عن العياشي بإسناده عن حمران قال سألت أبا جعفر عن هذه الآية، فقال: هذه في الذين يخرجون في النار، وهم الذين خصّوا ببعض أهل المعاصي من فرق المسلمين الذين لا يخلدون في النار كما ذكر المفسرون، ووردت به الروايات على أن التجاوز لا يتحقق إلاّ قبل دخول جهنّم أو بعد الدخول مع الخروج عنها...[2]. هذا وقد أجمع، كما يرى الأشعري، أهل الإسلام جميعاً إلاّ الجهم، على أن نعيم الجنة دائم لا انقطاع له، وكذلك عذاب الكفّار في النار[3]، كما خالف المعتزلة في تخليد الفساق في النار، فقالوا: إنّ مَن دخل النار لا يخرج منها، خلافاً لقول أهل السنّة والجماعة، وقد وافق المعتزلة الخوارج في قولهم: هذا فضلاً عمّا ذهبت إليه طائفة بقولها: إنّ أهل الجنّة ينعمون فيها، وإنّ أهل النار ينعمون فيها، بمنزلة دود الخلّ يتلذّذ بالخلّ، ودود العسل يتلذّذ بالعسل[4].

نعم، إنّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ ...﴾ الذي اشتمل على لام العاقبة، يفيد بأنّ هناك من عاقبته النار مخلداً فيها، وهي ليست لام الغاية، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ ففي هذه خلق بغاية العبادة، فلا يقال بأن من خلق للعبادة هو غير من خلق لجهنّم، وإن كانت آيات

(١) سورة النبأ، الآية: ٢٣.
(٢) شبّر، عبد الله، حق اليقين، م. س، ص١٥٣.
(٣) الأشعري، أبو الحسن، مقالات الإسلاميين، م. س، ج٢، ص١٤٨.
(٤) م. ع، ص١٤٣.

الخلق لجهنّم، قد خصصت قطعاً بخروج المجانين والبله والصبيان وغيرهم ممّن لا صحّ لهم التكليف[١]. إنّ آية الخلق للعبادة مطلقة ولا تخصّ المؤمنين وحسب، بل كلّ مَن خلقه الله تعالى، وهذا الخلق هو أشبه ما يكون بمن دعا إلى إطعام كلّ الناس، فأبى بعض القوم الطعام من مائدة العبادة والثواب، فقد حسن الغرض منه وصحّ، كما يقول الشيخ الطبرسي[٢]، وإذا كان البعض قد خلق لجهنّم، فهو إنّما يكون له ذلك بكفره، وليس بما أراده الله تعالى له بعلمه القديم بعاقبته. من هنا، نحن نرى أنه لا وجه لما قيل بأنّ هناك خلق لجهنّم، وخلق للعبادة على النحو الذي يُفهم منه أنّ الهداية لم تكن لجميع المكلّفين، كما زعم القرطبي في تفسيره[٣] أو أنّ الله خلق للنار أهلاً بعدله، فهذا كلّه ترجيح من غير مرجّح، فضلاً عن قيام الدليل على خلافه في أنّ الجنّ والإنس خلقوا للعبادة، وإن كانوا تكوينياً خاضعين ومنقادين لإرادته، وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ ناظراً إلى عموم الهداية في الفضل والتشريع، ومن خلق لجهنّم من الجنّ والإنس، فلم يرد الله تعالى إضلاله مسبقاً، وإنّما علم الله تعالى أنه لا يؤمن ويصير إلى النار[٤].

غاية القول: إنّ الله تعالى ليس بظلاّم للعبيد وقد خلق الإنسان ليكون طائعاً

---

(١) ذهب القرطبي إلى القول بأنّ آية الخلق للعبادة محمولة على المؤمنين فقط، اعتقاداً منه أنّ مَن خلق لجهنّم لم يُخلق للعبادة، وهذا فهم يتناقض تماماً مع منطوق الآيات ومفهومها، ومع العدل الإلهي، لكونه يقوم على اعتقاد بأنه يجوز أن يضلّ الله العباد إلى غير ذلك ممّا أسّس له في مدارس الجبر والتفويض. وإذا كان الله تعالى قد أخبر بأنّ قوماً خلقوا لجهنّم، فإنّ ذلك لا يستفاد منه أن الله تعالى خلقهم ليكونوا كذلك، لأنّه إن صحّ قوله، فلا يبقى معنى للتكليف والحساب، فضلاً عمّا يكون في ذلك من ظلم..!؟

را: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث، م، س، ج٧، ص٣٢٤. وقا: مع الشوكاني، محمد بن علي، ت ١٢٥٠هـ، فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية في علم التفسير، مطبعة عالم الكتب، ج٥، ص٩٢.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان، م. س، ج٢، ص٣٦٢.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م. س، ج٧، ص٣٢٤.

(٤) الطبرسي، مجمع البيان، م. ع، ص٢٠٥.

مختاراً لمصيره، فلو أضلّ أحداً مسبقاً لما صحّ التكليف له، هذا فضلاً عمّا خصّ به الإنسان من فضل ونعم[١].

يبقى أن نشير إلى ما اختلف العلماء فيه من غفران الكبائر والصغائر، فرأى قوم أنه كان يجوز أن يعفو الله عن الكبائر لولا الأخبار، وأنكر آخرون، كما اختلفوا في غفران الصغائر، بأي شيء هو، فقال قائلون: يغفرها الله سبحانه تفضّلاً من غير توبة، وقال قائلون: يغفرها لمجتنبي الكبائر باستحقاق، وقال آخرون: لا يغفرها إلاّ بالتوبة. أما في الكبائر، فالمعتزلة على ثلاثة أقوال: قائل يقول: كل ما أتى فيه الوعيد فهو كبير، وكل ما لم يأتِ فيه الوعيد فهو صغير، وقال قائلون: كل ما أتى به الوعيد فيه كبير، وكل ما كان مثله في العظم فهو كبير، وكل ما لم يأتِ فيه الوعيد أو في مثله، فقد يجوز أن يكون كلّه صغيراً، ويجوز أن يكون بعضه كبيراً وبعضه صغيراً... وقال «**جعفر بن بشير**»: كل عمل كبير، وكل مرتكب لمعصية متعمداً لها فهو مرتكب كبير[٢].

هذه هي جملة الأقوال، فيما يتعلّق بنعيم الجنّة والفضل فيها، وقد عرضنا لهذا الأمر لما له من علاقة بالفضل والفوز والثواب والعقاب، على اعتبار أنّ البعض يتحدّث عن استحقاق في مقام التفضّل الإلهي، وهذا ما حسمه الشيخ المفيد قاطعاً بأنه وإن كان ثواباً فهو تفضّل من الله تعالى. ويكفي في ختام هذا المبحث أن نعرض لما ذهب إليه العلاّمة السبزواري في مقام الحديث عن غفران الذنوب،

(١) سنرى في مباحث الفضل والثواب وغفران الكبائر، كيف أن المسلمين قد ذهبوا مذاهب شتّى، في التأويل والتفسير، وخاصة في مجال غفران الكبائر، وكان من الممكن أن نتحدّث عن دوام العذاب وانقطاعه في جهنّم لولا أن المبحث هادف إلى تبيان معنى الفضل والثواب وما يكون للإنسان في ذلك، سواء في الدنيا، أم في الآخرة، وهذا الذي دفعنا إلى أن نذكر بإيجاز الرأي حول ما يعنيه الخلق لجهنّم دون أي تفصيل يخرج في المبحث عن كونه محدوداً في ما اخترناه له مضموناً ومنهاجاً وإشكالية، على أمل أن نبحث دوام العذاب وانقطاعه في مبحث مستقلّ إن شاء الله تعالى.

(٢) أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، م. س، ج٢، ص٣٥٢.

لنرى كيف أنّ هذه المسائل لا تزال موضع بحث وتدبّر عند العلماء، وخاصة في عصرنا الحاضر، وستبقى كذلك طالما أنّ القرآن يجري في حياة البشر مجرى الشمس والقمر، إذ هو يقول في ردّه على المعتزلة: إنّ الله تعالى يغفر الذنوب عن الكبائر من دون توبة، لأنّ العقاب حقّه، فجاز إسقاطه، ولأنّه لا ضرر عليه في تركه فحسن إسقاطه، وقد جاء في الدعاء: «**يا مَن عُبد فشكر، ويا من عُصي فغفر**»، وجاء أيضاً: «**اللهمّ إنّ الطاعة تسرّك والمعصية لا تضرّك، فهب لي ما يسرّك واغفر لي ما لا يضرّك يا أرحم الراحمين**»، خلافاً للمعتزلة الذين منعوا المغفرة عن الكبائر من دون توبة، كما مرَّ معنا في توصيف الأقوال ومذاهب الرجال. فإن قيل: والكلام للعلاّمة السبزواري، «**يجوز أن يحمل على المغفرة عن الصغائر وعن الكبائر بعد التوبة**»، قلنا: هذا خلاف الظاهر ولا يُصار إليه بلا دليل من السمعيات من الكتاب والسنّة[1].

إنّ ما يذهب إليه الفيلسوف يمكن مناقشته في ضوء ما أشار إليه من أن العقاب حقّ لله تعالى، ويمكن بمقتضى الرحمة والقدرة، أن يسقط لانعدام الضرر، ولكن النقاش ليس هنا، وإنّما فيما أفاده من أنّه لا دليل في السمعيات على أنّ هذا الحق لا يسقطه إلاّ بعد التوبة، وقد ردّ على المعتزلة قولهم، لكونهم يحدّون من قدرة الله تعالى، وهو القادر على ما يشاء، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[2].

كما يمكن أن يُقال أيضاً: إنّ رحمة الله وسعت كل شيء، وأن إبليس تشرئبّ عنقه لرحمته يوم يُرحم العباد إلى غير ذلك مما يدلّ على سعة رحمة الله تعالى، نحن نرى أنّ هذا شيء ثابت في القرآن والسنّة، لكن الذي يشكل عليه هو أن القول لا يبدّل

(١) السبزواري، ملا هادي (١٢١٢، ١٢٨٩هـ)، شرح الأسماء (الجوشن الكبير) تحقيق حبيبي، مؤسسة إنتشارات، ١٣٧٥هـ، ص٧٣٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

لديه، وما هو بظلاّم للعبيد، كما جاء في آيات كثيرة يخبر فيها القرآن عن مصير أصحاب الكبائر، فهل نقول: إنّ القول، أو الوعيد، وهو خبر يمتنع عليه الكذب، يبدّل بحيث تكون المغفرة لأصحاب الكبائر من دون توبة؟ وهل إذا لحقت المغفرة من دون توبة أحد العصاة، سواء من أصحاب الكبائر، أم من أصحاب الصغائر، تقتصر عليه، أم تشمل سائر من ارتكب الكبيرة وحقّ عليه الوعيد؟ وهل من العدل والحكمة أن تلحق المغفرة بأحدهم دون الآخرين، طالما أن الجميع لم يتوبوا؟!!

نعم إنّ الله قادر على كلّ شيء، وإن شيئاً لا يخرج عن إرادته في هذا الوجود، ولا يُقيّد بقيد، ولا يُحدّ بحدّ، لأنّ إرادته مطلقة، وله أن يسقط العذاب من دون توبة، ولكن ألست ترى معنا أن الله تعالى قد وضع موازين العدل والحكمة لتكون فيصلاً بين الناس، بحيث تكون الجنّة للمطيعين، والنار للعاصين، إلاّ إذا تابوا، كما قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾[1].

ثمّ إنّه كيف يمكن أن يُسقط الله تعالى عذابه لكونه حقّاً له من دون توبة مع قدرته على ذلك؟ وقد جاء في السمعيات في الكتاب والسنّة أنّ مَن يلتحق بالتوبة عن سيئاته حين يحضره الموت لا تُقبل منه، وخاصة إن كان ممّن يتجرّأون على الله تعالى، ولا تلحق بهم الشفاعة من النبي وآله ﷺ، وهو القائل: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2].

إنّ ما أخبر به الله تعالى، فهو كائن لا محالة، وطالما أنّ التوبة هي سبيل النجاة، فإنّه يمكن القول بأنّ مقتضى العقل والحكمة أن لا تكون المغفرة إلاّ للذين تابوا أو

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٦٠ ـ ١٦٢.

(٢) سوة النساء، الآية: ١٨.

نالوا الشفاعة[1] وإلاّ فإنّه يمكن أن يسقط العذاب وتطال المغفرة كل مَن عصى

(١) لقد ناقش العلماء في موضوع التوبة، وخاصة الإمامية خالصين إلى الآتي:
أولاً: لا توبة لمن يتوب عن قريب، ويداوم على المعصية بتساهل واستكبار، وتسويف وتكرار إلى حين يرى الآخرة، وقد جاء في هذا المعنى روايات كثيرة. را: الميزان، ج٥، ص٢٥٨.
ثانياً: ليست التوبة للذين يعملون السيئات، أو يموتون وهم كفار، والكفر هنا يشمل الشرك والنفاق...
ثالثاً: ميّز الفقهاء بين الذين يعملون السوء وهم عصاة المؤمنين، وبين الذين يعملون السيئات وهم المنافقون لتضاعف كفرهم وسوء أعمالهم...
رابعاً: لا خلاف بين الفقهاء في أنّ الله تعالى لا يعذّب أهل الطاعات من المؤمنين، ولا التائبين من المعصية، والكافر خارج عن المشيئة لإخبار الله تعالى أنّه لا يغفر الكفر، فلم يبقَ تحت المشيئة إلاّ مَن مات مؤمناً موحّداً وقد ارتكب كبيرة لم يتب منها، وقد ذهب البعض إلى القول عن الربيع: إنّ الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. هذه هي جملة من أقوال العلماء في معنى التوبة وفيما تصحّ فيه وله، ويمكن مناقشة هذه الأقوال في ضوء ما نرى أنّ الأدلّة ليست كافية، لإدخال المؤمن العاصي تحت المشيئة فيما لو مات ولم يتب. والكلام هنا في الكبائر وليس في الصغائر، لأنه لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.
واختصاراً للقول، وخروجاً عن السياق للتدليل على أن الكبيرة هي مثار البحث الجدل، وخاصة بين المعتزلة ومَن يخالفهم الرأي والمذهب والعقيدة... وانطلاقاً من ذلك، نرى أنّه لا وجه لما ذهب إليه الفقهاء في التمييز بين الذين يعملون السيئات والذين يموتون وهم كفّار طالما أن الذي أعدّ لهؤلاء جميعاً هو العذاب الإلهي خلافاً لما ذهب إليه الطبرسي من أنّ اسم الإشارة أولئك يعود إلى الأقرب وليس إلى الذين يعملون السيئات، إذ لو كان الأمر كذلك لجاء بالظاهر أو المضمر للتمييز بينهما كما هي عادة القرآن في ذلك. وهذا ما تجاوزه العلاّمة الطباطبائي في بحوثه ولم يقل فيه شيئاً، ولكنّه قال بالفحوى ما قد يكون مخالفاً لرأيه، بدليل قوله: إنّ التوبة للمؤمن العاصي إذا مات على المعصية من غير استكبار ولا تساهل، والتوبة يمكن أن تتحقّق منه تعالى بعد الموت لشفاعة الشافعين، ولا شفاعة لمن مات على الكفر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١]، ونفي الناصرين هو نفي للشفاعة في حقهم... را: الميزان، ج٥، ص٢٥٠.
ثم إنّه ما معنى أن يدخل المؤمن العاصي، فيما لو كان مستكبراً تحت المشيئة، وقد أخبر الله تعالى أنّه أعدّ العذاب الإلهي للذين يعملون السيئات والذين يموتون وهم كفار معاً؟ والخبر كما رأينا لا يجوز فيه النسخ، ويمتنع فيه الكذب، ولا يجوز رفع اليد عن الظهور إلاّ بقرينة، أو دليل من القرآن على أنّ العذاب الأليم يعود إلى الكفّار وليس إلى الذين يعملون السيئات كما رأى الطبرسي، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فإذا لم يجتنبوا وأصرّوا على المعصية واستكبروا، فإنّه لن يغفر لهم، والخطاب هو للمؤمنين وليس لسواهم... والله أعلم.
خلاصة القول: إنّ منطق الإمامية في مغفرة الكبائر من دون توبة، وخلافهم مع المعتزلة في ذلك مرتكزه أن الله يعامل العباد برحمته لا بعدله، وهو إنّما يخوّفهم بما أعدّ لهم من العذاب الأليم فيما لو ماتوا دون توبة، وهذا ما نرى فيه حسن ظنّ بالله تعالى، وهو كذلك، إلاّ أنّه يبقى القول جائزاً بأن الله تعالى يعذّب الذين يعملون السيئات ويصرّون عليها حتى ولو كانوا مؤمنين، ويمكن أن لا تشملهم المشيئة، لأنّ الله أخبر بالعذاب وليس مجبوراً على التوبة لما أفاده العلماء بأنّ الله له أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، إن شاء ثاب وغفر، وإن شاء عذّب في سقر... فإذا قال المعتزلة بعدم المغفرة إلاّ بعد التوبة، فهم إنّما يرتكزون في ذلك على الأخبار الصادقة، وليس قولهم تقييداً لإرادة الله المطلقة، أو اجتهاداً مقابل النصّ، ومثلما أنّه ينبغي تصديق الإخبار بأنّ الكفّار لا تقبل توبتهم، فكذلك ينبغي قبول الإخبار أيضاً بأنّ الذين يعملون السيئات والكبائر بإصرار واستكبار لن تقبل توبتهم، وأمرهم إلى الله تعالى... أما ما قاله بعض العلماء بإدخال المؤمن العاصي تحت المشيئة، فهذا ليس أمراً أو شأناً إنسانياً، وإنّما هو أمر وشأن إلهي، فهو تعالى إن شاء عفا، وإن شاء عذّب، له المُلك من غير استثناء، كما يرى العلامة الطباطبائي في مبحث التوبة...
وعليه، فإنّ الدعاء: «يا مَن عُبد فشكر، ويا مَن عُصيَ ففغر»، يجوز أن يُحمل على المغفرة عن الصغائر والكبائر بعد التوبة، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فقد يؤدّي القول بخلافه إلى أن يطمئنّ الإنسان العاصي، سواء أكان مؤمناً أم غير مؤمن إلى عفو الله تعالى وتجاوزه عن سيئاته، فيستهين بالمعصية اطمئناناً منه لرحمة الله تعالى، وقد حصل أن اندفع بعض مَن تسمّى بالعلم وليس به إلى القول بأنّ الله تعالى لم يَرُدّ توبة فرعون لأنّ رحمته تسع كل شيء، متمثلاً على ذلك بالأخلاق الإنسانية الفطرية في الجود والكرم والرحمة ليرحم فرعون النادم!؟ فكيف بمن هو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، إلى غير ذلك مما نجده في كتب القوم تنزيلاً للرحمة الإلهية إلى رحمة الإنسان!؟ وكأنّ هؤلاء لم يعرفوا حكم الزاني، أو اللواط، ليدركوا معنى أن يكون الرجم أو الحرق، هو جزاء مَن يفعل ذلك، فهل يقول هؤلاء إنّ هذه الأحكام هي مورد رحمتهم، أم هي مورد رحمة الله تعالى؟ والله أعلم بحقائق الأمور.
را: الطباطبائي، الميزان، م. س، ج٤، ص٢٥٣، وقا: السبزواري، شرح الأسماء، م. س، ص٧٣٠، وقا: شبّر، عبد الله، حق اليقين، م. س، ص١٨١ ـ ١٨٢.

وكفر، وتولّى وأدبر، وإذا كان هذا مما يمكن الذهاب إليه في ضوء سعة رحمة الله تعالى، فما يكون معنى القَسَم الإلهي في قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1]. أو كما جاء في الدعاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كُميل: «**فبالیقین أقطع لولا ما حکمت به من تعذیب جاحدیك، وقضیت به من إخلاد معانديك، لجعلت النار کلّها برداً وسلاماً، وما کان لأحد فیها مقرّاً ولا مقاماً...**».

وهذا ما فصَّل العلاّمة اليزدي الكلام فيه، بقوله: «**وإذا لم يكن الابتلاء بالعذاب والشقاء الأخروي أمراً لازماً لسوء الاختيار، لكانت الرحمة الإلهية الواسعة تقتضي عدم ابتلاء أي مخلوق بالعذاب، ولكن هذه الرحمة نفسها اقتضت خلق الإنسان متميّزاً بخصوصية الاختيار، واللازم من اختيار طريق الإيمان أو الكفر، هو الوصول للمصير الحسن أو السيّئ، مع ملاحظة هذا الاختلاف بينهما، وهو أنّ الوصول لحسن العاقبة تتعلّق به الإرادة الإلهية أصالةً، وأما المصير الأسود، فتتعلّق به الإرادة التبعيّة، وهذا الاختلاف نفسه يقتضي ترجيح جانب الخير في التكوين والتشريع...**»[2].

(١) سورة هود، الآية: ١١٩.

(٢) اليزدي، محمد تقي المصباح، العقيدة الإسلامية، دار الحق، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ج٣، ص١٦٧ـ١٦٨.

الفصل الرابع

الخسران المبين في القرآن الكريم

◊ تمهيد الفصل

◊ المبحث الأول: الخسران المبين: المفهوم والدلالة

أ. الخسر والخسران في اللغة والإصلاح

ب. الخسر والخسران: المفهوم والدلالة

◊ المبحث الثاني: الأخسرون أعمالاً والخسران المبين

أ. الأخسرون أعمالاً في القرآن الكريم

ب. الخسران المبين في القرآن الكريم

تمهيد الفصل

إذا كان الفوز المبين، والعظيم، يكمن في أن يتبع الإنسان الهدى الإلهي الذي جاء به الأنبياء والرسل، والذي هو أساس تحقيق الإنسان فيما استخلف فيه ولأجله، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، فإنّ الخسران المبين ليس شيئاً غير أن يكون الإنسان قد خاف وحزن بما اختاره من بدائل لهدى الله تعالى، وقد قيل للإمام علي ذات يوم، صف لنا العاقل، فقال عليه السلام: هو الذي يضع الشيء مواضعهُ، قيل: فصف لنا الجاهل: قال: قد فعلت»[2]، وهذا يعني أنّ الجاهل هو الذي لا يضع الشيء مواضعهُ، فكان ترك صفته صفة له، إذ كان بخلاف وصف العاقل..

وهكذا، يمكن أن يُقال فيمن خسر دينه ودنياه، أنّه لم يفز فيهما بما أتاه الله تعالى من نعَم ظاهرة وباطنة، فكان حاله كحال الإنسان الجاهل عن علم، الذي يأتي بالذنب والمعصية ويخاطر بنفسه في معصية ربه، وفي المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كل ذنب عمله العبد وإن كان عالماً فهو جاهل حتى خاطر بنفسه بمعصية ربه، فقد حكى الله سبحانه قول يوسف لإخوته ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾[3]، فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله تعالى.**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٨. وقال الله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

(٢) الإمام علي، نهج البلاغة، م.س، قصار الحكم: ٢٣٥.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٩.

إذن، الخسران المبين، هو عدم الفوز بما جاء به الأنبياء، واتّباع الهوى، وغير ذلك مما ينعكس خوفاً وحزناً وخسراناً مبيناً في الدنيا والآخرة، ونحن إنّما نمهّد لهذا الفصل في ضوء ما عرضنا له في مباحث الفوز العظيم، وكان من الممكن تضمين هذا الفصل في المباحث السابقة، إلاّ أنّنا وجدنا أنّ هناك الكثير من المطالب التي يمكن الاستقلال في بحثها، بل رأينا أنّ هذا الفصل يمكن أن يكون كتاباً مستقلاً لما ينطوي عليه هذا المبحث من إشارات ولطائف قرآنية تدعو الباحث إلى مزيد من التدبّر في سياق الآيات لاستخلاص الكثير من النتائج والعبر. كما أنّ مما دفعنا إلى الاستقلال في هذا المبحث أيضاً، هو أننا لم نجد في سياق آيات الفوز العظيم ما يجمع الخسران معه، وإنّما اقتصرت الآيات على ترشيد الإنسان إلى ما يكون به الفوز عظيماً ومبيناً، وكبيراً، إضافة إلى مباحث الرضا والرضوان، وغير ذلك مما اهتدينا إليه في المباحث السابقة.

لذا، فإنّ هذا المبحث يتضمّن معالجة وافية إن شاء الله تعالى لموضوع الخسران المبين في القرآن الكريم، على النحو الذي نستطيع معه تظهير المعاني الحقيقة الكامنة في كثير من السياقات القرآنية، على اعتبار أنّ الخسران له علاقة بالنفس الإنسانية، تماماً مثلما أن الفوز يعني فوز الإنسان في نفسه ودينه، وذلك من منطلق أن الآيات في موضوع الخسران جاءت على نحو الاستعارة والتشبيه والتمثيل، لتدلّل على أن الفوز أو الخسران لا يكون بما يتوفّر عليه الإنسان من تقنيات مادية، بل بما يكون له من فوز في الدين، وفي كل ما هو روحي وإنساني وأخلاقي، إذ لا اعتبار، كما هو ظاهر الكثير من الآيات القرآنية، لما يفوز أو يخسر به الإنسان مادياً، وهذا ما سنعرض له في مبحث اللغة إن شاء الله تعالى.

لقد ذكر العلامة المجلسي في بحار الأنوار، كما ذكرنا في المبحث السابق، أنّه في اتّباع الهُدى الإلهي يكون الفوز العظيم، وفي تركه الخطأ الكبير والخسران

المبين[1]، وهذا هو منطلق البحث أساساً، لأنّ قيمة الإنسان فيما استخلف فيه أن يكون على بصيرة مما شهد به في عالم روحه قبل أن يكون على ما عليه من اختلاط بعالم الدنيا، وما يمكن أن يجود به هذا العالم على الإنسان من شهوات وملذّات، وبمقدار ما يكون للإنسان من ثبات في عالم روحه وشهادته بمقدار ما يكون قادراً على الاهتداء بأمر الله تعالى، وقد استخلف الإنسان ليكون حرّاً مختاراً، وهو إنّما طلب الحريّة لنفسه ليكون حاملاً للأمانة التي حملها الإنسان وكان ظلوماً جهولاً..[2].

إذن، من عالم الحق الشهادة، ومن حيث المبدأ يكون المنتهى، ولهذا، قال الإمام علي عليه السلام: رحم الله امرءاً علم من أين، وفي أين، وإلى أين، وهو قولٌ ينطوي على مدلولات هامة في سياق تحوّلات الإنسان نحو مصيره المحتوم، والذي جعله الله تعالى، بما يؤول إليه، مرتبطاً بما يهتدي به الإنسان في طيّ مراحل وجوده، وفي كشف معالم خلوده. هناك حيث يكون للإنسان معنى الفوز والخسران، إذ لا عبرة بشيء في هذا العالم إلاّ أن يكون موصلاً إلى الغاية، ومحققاً للفوز في الدنيا والآخرة، وقد بيّنا في بحوثنا السابقة أنّ حقيقة الفوز إنّما تكون بما يبقى للإنسان، ويبقى الإنسان له من أعمال صالحة، وإيمان يشكّل رأسمال حقيقي للإنسان في كلّ تحوّلاته. أما الخسران المبين، فهو أن يتحول الإنسان عن ذات نفسه ليكون خاسراً في الدنيا والآخرة، لأنّ الإنسان فيما يختاره لنفسه من إيمان وعمل وسلوك غالباً ما يتوهّم أنه السبيل إلى الفوز الحقيقي، وتكون النتيجة الخسران المبين، وذلك

(١) المجلسي، بحار الأنوار، م. س، ج٨٩، ص٢٥.

(٢) إنّ حمل الأمانة اقتضى أن يكون الإنسان حرّاً، وقد حمل الإنسان الأمانة باختياره ولم تُعرض عليه، وهذا من أهمّ الحقائق القرآنية الذي ينبغي التدبّر فيها، وإذا كان الإنسان ظلوماً جهولاً، فهذا لا يعني أنّ الإنسان أكره على حمل الأمانة، وبإمكانه أن ينفي الظلم والجهل فيما لو اختار أن يكون على مستوى المسؤولية ومارس حريته فيما أمره الله تعالى به ودعاه إليه. لأنّ مقتضى الأمانة أن لا يقصّر الإنسان في إرادته الحرّة، وإلاّ كان ظالماً...

كلّه إنّما يكون له بسبب ما اعتقده وهماً، وتلبّس فيه زعماً، هذا فضلاً عمّا يمكن أن يختاره الإنسان من متاع وزينة في الدنيا يتعصّب لها ويأخذ به متاع الغرور إلى أن يكون واهماً أنّ ما هو فيه من نعمة مادية هو حقيقة النعمة، إلى غير ذلك مما ابتلي به الإنسان في دار الامتحان، ويكون مآله فيه إلى الخسران.!؟

وكيف كان، فإنّ تمهيدنا هذا هادف إلى تبيان معنى أن يكون الإنسان على خسران مبين فيما يختاره لنفسه، سواء في الدين، أم في الدنيا، لأنّ سياق الآيات القرآنية يكشف لكل متدبّر أنّ الحياة الماديّة مهما بلغت للإنسان، لا تشكّل فوزاً، أو خسراناً حقيقياً، باعتبار أنّه قد يكون الإنسان على فقر مادي ويكون فائزاً، وقد يكون على غنىً في الحياة، ويكون خاسراً، ما يعني أنّ مقياس الفوز والخسارة ليس ما يتوفّر عليه الإنسان من متاع وزينة، وإنّما بما يحققه لذاته من إيمان وتقوى، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، فالتقوى هي ميزان التفاضل، وهذه لا تكون إلاّ في ضوء ما أمر الله به ونهى عنه. وبما أنّ الله تعالى قد هدى الإنسان تكويناً وتشريعاً إلى ما تكون به سعادته، منذ أن استخلفه في الأرض، فإنّه لن تكون للإنسان تحولاته الحقيقية إلاّ إذا اتبع هذا الهدى الإلهي وأخذ به في جميع شؤون حياته، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾، وهذا قول يفيد الحصر، لكونه ينفي أن يكون الهدى فيما قد يزعمه الإنسان لنفسه بوحي في هوى نفسه، أو من شيطانه الذي أقسم على التلبّس بالوسوسة والاحتناك ليعدل الإنسان عن قصده، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1]. إنّه هدى الله تعالى الذي فيه منجاة من كل هلكة، وقد أنعم الله تعالى به على الإنسان في مواجهة الشيطان، الذي توعّد الإنسان أن يضلّه، وأن يكون له منه نصيباً مفروضاً، وهذا ما سنتوقّف عنده مليّاً في هذا المبحث، لكون الشيطان الذي لعنه الله تعالى،

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦.

فسق عن أمر ربّه، وأقسم على تغيير خلق الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾[1]. ومن هنا، ينكشف لنا معنى الخسران المبين ودور الشيطان فيه، طالما أن الفوز المبين، كما أشرنا سابقاً، إنّما يمثّل قمّة الانتصار على الشيطان فيما يوسوس به ويدعو إليه من تغيير خلافاً لما أمر الله به ونهى عنه، كما أن قمّة الخسران تتجلّى في كون الإنسان يسمع لهتافه ويستجيب لندائه، وهذا ما سيكون مثار بحوثنا المقبلة، التي سنتعرّض من خلالها لجملة من السياقات القرآنية لاستخلاص الموقف الرسالي مما يسعى الإنسان إليه في دنياه، ويكون له من خلاله الفوز أو الخسران، ذلك أنّ الإنسان في كثير من أموره يختلط عليه الأمر ويعتقد أنّه على فوز عظيم، ويكون، في حقيقة الأمر، على خسران مبين، ويحسب أنّه يحسن صنعاً، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[2].

وانطلاقاً من ذلك، نرى أنّ هذا التمهيد، وأي تمهيد، لا يمكنه أن يستوعب كامل المطالب التي يمكن أن يعرض لها الباحث، بل هو مجرّد إشارة إلى جوهر البحث الذي يراد معالجته في طور الإشكالية الكبرى، التي أشرنا إليها آنفاً، وهي إشكالية متقوّمة بما يندفع إليه كل إنسان في حياته، رغم اختلاف الميول والأهداف عند البشر، بين مَن يرى أنّ الخسران إنّما يكمن في التخلّي عن الدنيا لحساب الآخرة، وبين مَن يرى أن الخسران ليس من متعلّقاته أبداً أن يتخلّى الإنسان عن الدنيا، لقوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾[3].

(١) سورة النساء، الآيتان: ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧٧.

وهكذا، فإنّ الإشكالية ستبقى قائمة ومتحققة طالما أنّ الإنسان يضطرب في فهم دنياه وآخرته، في حين أن الآية واضحة فيما ترشد إليه وتدلّل عليه، فهي لا تمنع الإنسان من الدنيا، بل تدعوه إليها، ولكنّها في الوقت عينه تطالبه بأن يتخذ من هذه الدنيا وسيلة وسبيلاً إلى الآخرة ليكون له الفوز العظيم في الدنيا والآخرة. أما ما يذهب إليه البعض من زهد وتزهيد في الدنيا، ظنّاً منه أنّ الخسران المبين كامن في الالتفات إليها، فذلك ليس ممّا يمكن اعتباره إلاّ إذا أدّت الدنيا بالإنسان إلى أن تكون منتهى بصره كحال الذي يتبصّر فيها لذاتها دونما اعتبار لما وراءها. بيد أنّ هذا الذي نذهب إليه لا يقلّل من قيمة الدنيا وما جعلها الله تعالى عليه من دار ممرّ لدار مقرّ، فهي دار لا بدّ من التحقق فيها والتمتّع بنعيمها، ولكن يبقى الأساس لاعتبار الدنيا هو ما أمر الله تعالى به، لأنها دار ومستقر إلى حين، كما أنّها متجر أولياء الله تعالى إلى رضوانه وليس من الخسران أبداً أن يتوفّر الإنسان على نعمها طالماً أن النعمة هي طريق وسبيل إلى الفوز بالآخرة. أما إذا اتبع الشيطان فيما ادّعاه لنفسه وأقسم عليه، فلا بدّ أن يكون حال الإنسان إلى الهوان والخسران، بحيث يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[1]، فالدنيا ليست شيئاً نكراً، ولا هي مجرّد دار امتحان وابتلاء، بل هي دار تطلب بها الآخرة لما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام حينما جاءه أحد أصحابه شاكياً أمره، وقال: والله إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها، فقال عليه السلام: تحبّ أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعيالي، وأصلّي بها وأتصدّق بها وأحجّ وأعتمر، فقال الإمام عليه السلام: ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة»، ومثل هذا نقل عن الإمام الباقر عليه السلام في امتداح الدنيا، بقوله: «**نعمَ العون الدنيا على طلب الآخرة**»[2].

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) انظر: الشيرازي، مكارم، سؤال وجواب، إعداد الحوزة العلمية، قم، ط٢، ١٤٢٩هـ، ص٣٧.

المبحث الأول

الخسران المبين: المفهوم والدلالة

أ ـ الخسر والخسران في اللغة والاصطلاح

يقول ابن منظور: خسر: خِسرَ خَسراً، وخَسَراً وخُسراناً، وخسارة، وخَسَاراً، وخاسر، والخسار والخسارة والخَيسَرَى: الضلال والهلاك، والياء فيه زائدة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾[١]، الفاء: لفي خسر، لفي عقوبة بذنبه، وأن يخسر أهله ومنزله في الجنة، وقال الله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[٢]، وفي الحديث: ليس من مؤمن ولا كافر إلاّ وله منزل في الجنّة وأهل وأزواج، فمن أسلم سَعِدَ وصار إلى منزله، ومن كفر صار منزله إلى من أسلم وسَعِد، وهذا هو مَفاد قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾[٣]، ويقال: خسر التاجر، وضع في تجارته، أو غنى، والأول هو الأصل، وأخسر الرجل إذا وافق خسراً في تجارته...[٤]. وجاء في المعجم الوسيط، أن خسر الشيء، نقصه، ونسبه إلى الخسران، وفلان خسّر فلان، أبعد عن الخير، وفي التنزيل: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾[٥]، أي غير إبعاد من الخير أي غير تخسير لكم لا لي[٦]. وأفاد الطريحي في هذا المعنى، أي كلّما دعوتكم إلى الهدى ازددتم تكذيباً،

(١) ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج٢، ص١١٥٦.
(٢) سورة الحج، الآية: ١١.
(٣) سورة الزمر، الآية: ١٥. ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج٢، ص. ن.
(٤) م. ع، ص. ن.
(٥) سورة هود، الآية: ٦٣.
(٦) المعجم الوسيط، م. س، ج١، ص٢٣٣.

فزادت خسارتكم، والتخسير: الإهلاك، يُقال: خسر الرجل في تجارته خسارة بالفتح، والخسران المبين، أي النقصان المبين..[١].

وإذا كان لا بدّ من الوقوف على حقيقة المعنى للخسر والخسران، فإنّ خير من استعرض الكلام فيه، هو الراغب الأصفهاني، الذي رأى بأن الخسر والخسران هو انتقاص رأس المال، ويُنسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خسر فلان، وعلى الفعل، فيقال: خسرت تجارته، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، ويستعمل في المقتنيات الخارجة كالمال والجاة في الدنيا، وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسية، كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب، وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين... وكل خسران ذكره القرآن فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلق بالمقتنيات الدنيوية والتجارات البشرية[٢].

فالقرآن لم يتحدث عن الخسر والخسران بما هو نقص في المال والحياة بل بما هو ضلال في الإيمان والعمل، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[٣]، فالآية جاءت بتنكير الخسر لتظهر معنى الخسران ودلالاته في النفس والعمل، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٤]، ولا شكّ في أنّ خسارة النفس ليست خسارة في الأثمان، وإنّما هي خسارة في الأعيان، ما يعني ضرورة التدبّر في حقيقة الاستعارة التي جاء بها القرآن ليدلّل من خلالها على معنى الخسران المبين، سواء في الدنيا، أم في الآخرة، ولعلّ من أفضل مَن عرض لمعنى هذه الاستعارة وما تفيده من دلالات، هو الشريف الرضي في مجازات القرآن، حيث رأى، أنّ الخسران

(١) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، مادة «خسر»، م. س، ج٢، ص٣٤٧.
(٢) الراغب الأصفهاني، معجم ألفاظ مفردات القرآن الكريم، م. س، ص١٤٨.
(٣) سورة العصر، الآيتان: ٢ ـ ٣.
(٤) سورة الزمر، الآية: ١٥.

المتعارف، إنّما هو أثمان المبيعات، وذلك يخصّ الأموال والنفوس إلاّ أنه سبحانه لمّا جاء بذكر الموازين وثقلها وخُفتها جاء بذكر الخسران بعدها، ليكون الكلام متفقاً، وقصص الحال متطابقاً، فكأنّه سبحانه جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة، إذا كانوا يوصفون بأنّهم يملكون نفوسهم، كما يوصفون بأنهم يملكون أموالهم، وذكر خسرانهم لها لأنهم عرّضوها للخسارة، وأحبوا لها عذاب النار، فصارت في حكم العروض المتلفات، وتجاوزوا حدّ الخسران في الأثمان إلى حدّ الخسران في الأعيان..[1].

إنّ المتدبّر في القرآن الكريم فيما يأتي فيه من سياق للخسر والخسران، يلحظ حقيقة هذا المعنى الذي يتجاوز الربح والخسارة في متاع الدنيا وأموالها، إلى ملاحظة حقيقة ما يكون فيه الخسران، لأنّ كل خسران في مجال الدنيا وما يكون فيها يهون مع خسارة الإنسان لنفسه، وقوله تعالى يدلّل على هذا المعنى ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، الذي يفيد عموم الخسارة، بل مطلق الخسارة، إلاّ الذين ربحوا دينهم وإيمانهم، الذي هو في الحقيقة رأس مالهم في الدنيا والآخرة.

نعم، هناك آيات عرضت لمعنى انعدام العدالة في الكيل في الحياة الدنيا، أو في بخس الناس أشياءهم، أو غير ذلك مما يتعارفه الناس من موازين في الحياة الدنيا، إلاّ أن الميزان الحقيقي هو ميزان الأعمال، ولهذا قال الله تعالى: ﴿هَلۡ نُنَبِّئُكُمۡ بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾، ولم يقل بالأخسرين أموالاً، أو أثماناً، كما أنه لم يقل بالأخسرين عملاً، لكون التمييز لا يأتي الا مفرداً، وهذا كلّه إنّما جاء به ليدلّل على أن الخسارة إنّما تكون شاملة من جميع الجهات فيما لو خسر الإنسان عمله ورأس ماله الحقيقي، الذي به أيضاً يكون الفوز بالنفس والعمل معاً.

(١) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ص١٤٢.

لذا، فإنّ المتتبّع لسياقات الآيات القرآنية، يمكن أن يهتدي حتماً إلى حقيقة ما يهتمّ به القرآن، في مجال الخسر والخسران، وقد أوضح الإمام علي عليه السلام هذا المعنى بقوله: «**معاشر الناس اتّقوا الله، فكم من مؤمَّل لا يبلُغُهُ، وبانٍ لا يسكنُهُ، وجامع ما سوف يتركه، ولعلّ من باطل جمعه، ومن حقّ منعه أصابه حراماً، واحتمل به آثاماً، فباء بوزره، وقدم على ربّه، أسفاً لاهفاً، قد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين**»[1].

فالإمام عليه السلام كما نلاحظ، يستعرض حالات الإنسان في دنياه، ويطالعهُ بالتقوى فيما أمر به ونهى عنه ليكون فيما أتاه الله تعالى من مال وجاه من الرابحين غداً، يوم يكون الثمن موازين الأعمال وخفّة وثقل الميزان، وكل خسارة دون هذه الخسارة، فهي فوز، لقوله عليه السلام: «**ما خيرٌ بخير بعده النار، وما شرّ بشّر بعده الجنّة**»[2]. فالمقياس في الفوز والخسران هو ما يحصده الإنسان في دنياه لآخرته، ويأخذ به من أسباب في الإيمان والعمل، كما قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إنّما الأعمال بخواتيمها**». ولهذا، فإنّ ما يذهب إليه أهل اللغة في معنى الخسر والخسران ليس منحصراً بما تؤديه اللغة، بل فيما تأتي به الآيات القرآنية التي أوضحت هذا المعنى على حقيقته، لأنّ ما تعارفه الناس هو أن يكون الخسران في المقتنيات الخارجة كالمال والثروة، وهذا ما ادّعاه ويدّعيه أهل الترف في كل زمان، حيث إنهم يتعصبون لمواقع آثار النعم، ويدّعون أن الخسران إنّما يكون بالفقر وعدم التوفّر على المال والثروة، ولكن القرآن لا يقيم وزناً لذلك، سواء توفّر الإنسان عليه، أم لم يتوفّر عليه، مبيّناً أنّ الرأسمال الحقيقي للإنسان، الذي به يخسر ويربح أو يفوز، هو الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فإذا لم يكن الإنسان على شيء من ذلك، فإنّه يكون خاسراً بكل المقاييس بما في ذلك مقياس الدنيا، وهذا كلّه

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، قصار الحكم: ٣٤٤.
(٢) م. ع. قصار الحكم: ٣٨٧.

مرتبط بما أفدناه بتمهيدنا لهذا المبحث بالهُدى الإلهي، الذي هو أساس وسبب كل فوز أو خسران في الدنيا والآخرة، فإذا أخذ الإنسان به كان الفوز لنفسه بعمله، وإن لم يأخذ به كانت له الخسارة المحققة حتى ولو امتلك الدنيا وما فيها. ولهذا، نجد الإمام عليه السلام يعظ الناس بضرورة أن يتنبّهوا أو ينزجروا عمّا يظنّونه سبيلاً للفوز، وهو في حقيقته خسران في الدنيا والآخرة، على نحو ما بيّن الإمام عليه السلام في أنّ التقوى هي مطلع كل خير، وسبب كل فوز، ومنجاة من كل خسران.

أما ما يعنيه الخسر والخسران في حقيقة المصطلح، فهو لا يتجاوز ما عرض له أهل اللغة من أن الخسران المبحوث عنه ليس خسران الأثمان، وإنّما خسران الإيمان والأعمال، الخسران الذي تكون النفس ثمناً له في نار جهنّم، والعمل الذي يؤدّي بصاحبه إلى أن يكون خاسراً في الدنيا والآخرة، ذلك أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[2]، ناظر إلى الأعمال وليس إلى الأثمان، لأنّ الدار الآخرة هي دار تجسّم الأعمال، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، إذ لا قيمة في تلك الدار لما قد يحسبه الإنسان فوزاً أو خسراناً، بل القيمة للعمل الحسن، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3]، إذ لم يقل أكثر عملاً، بل أحسن عملاً، فلا يكون للمال أو الثروة، أو الجاه دور أو قيمة فيما تُزان به الأعمال غداً، وحينما نقول الأعمال، فليس مجرّد الأعمال، وإنّما بما قرنت به الأعمال من إيمان، كما قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. والثقل للموازين إنّما يكون في ذلك اليوم بحسب الإيمان والأعمال، وليس بالأثمان والأموال..!؟

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الكهف، الآية» ٧.

إذن، المصطلح للخسر والخسران، هو حقيقة ما تعارفه الإنسان في سياق العمل، وليس في سياق حالات الدنيا ومعروضاتها، لأنه ليس من الخسران أن يخسر الإنسان ماله أو تجارته فيما لو فاز بنفسه، أو كانت الدنيا، بما توفرت عليه من مال وزينة ومتاع، سبيلاً إلى النجاة من النار والفوز في الجنّة، وهذا ما التبس أمره على كثيرين فيما ظنّوه أنّه فوز في الدنيا، وقالوا: إنّما نحن في فوز في المال والولد والثروة والجاه لكون ذلك مما أنعم الله به علينا، وجعله خاصاً بنا، فلو أنّ الله تعالى لم يرده لنا لما توفّرنا عليه، ولا كان لنا سبيل إليه، وبما أنّ الأمر خلاف ذلك، فذلك دليل على أنه الرضا والفوز، وهذا ما صحّحهُ القرآن، مبيناً أنّ الفوز والخسران إنّما يكون في ميزان التقوى والهدى وليس في ميزان المال والثروة، وهذا ما عبّر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله: «**فارعوا عباد الله ما برعايته يفوز فائزكم، وبإضاعته يخسر مبطلكم، وبادروا آجالكم بأعمالكم، فإنّكم مرتهنون بما أسلفتم، ومدينون بما قدمتم، وكأن قد نزل بكم المخوفُ، فلا رجعة تنالون، ولا عثرة تقالون، استعملنا الله وإيّاكم بطاعته وطاعة رسوله، وعفا عنّا وعنكم بفضل رحمته...**»[1].

كما أنّه يمكن الاستفادة من القرآن ذاته ما يفيده الخسر والخسران من حيث المصطلح، وخاصة في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾[2].

لقد لاحظ أهل اللغة هذا المعنى لمصطلح الخسران، فيما أفاده ابن منظور، والطريحي، لجهة ما يعنيه التخسير من إبعاد للرحمة والمغفرة عن قوم نبيّ الله صالح عليه السلام، وخاصة أنّ القرآن يعرض لهذا المعنى في سياق ما تفيده الآية المباركة من بينات، وفيما أتاه الله تعالى من رحمة، وهي النبوّة، ما يعني أن التخسير المشار إليه ليس مجرّد ثمن تعارف عليه الناس في الحياة، وإنّما هو البيان

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م.س. الخطبة: ١٩٠.
(٢) سورة هود، الآية: ٦٣.

والبصيرة التي انعدمت عند قوم النبيّ صالح عليه السلام من حيث تعبدهم بما كان عليه الآباء وتقليدهم لهم، فيأتي التخسير في الآية ليدلّل على ثبات الموقف عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وخسارة قومه فيما يزعمونه لأنفسهم من هداية، ولهذا، قال ابن منظور، والطريحي، أن التخسير إنما هو لهم وليس للنبي، لأنّه على بيّنة من ربّه، وقد أتاه الله النبوّة، فلا يُعقل أن يكون المراد بالتخسير إبطال ما أتاه الله تعالى إيّاه، كما أفاد صاحب تفسير الصافي، بل هو تخسير لهم من حيث عنادهم وعدم اهتدائهم إلى بيّنات الله تعالى التي جاءهم به النبي صالح عليه السلام[1].

إذن، الخسر والخسران، سواء من حيث اللغة، أم من حيث الاصطلاح، له مدلول واحد، هو الاعتبار له من حيث كونه يلحق بالإنسان من جهة نفسه وعمله، وليس من جهة ما يكون عليه من فوز وخسران في المال والثروة. وإذا كان القرآن قد لحظ هذا المعنى اللغوي، فهو جاء به في صيغة استعارة ليدلّل من خلاله على أنّ النقص، أو الهلاك، أو الضلال هو الأساس في جوهر هذا المصطلح، باعتبار أنّ هذا كلّه لا يكون إلاّ لجهة النفس وما تؤول إليه من تحولات في الدنيا والآخرة، هذا فضلاً عمّا يرشد إليه المصطلح من رأسمال حقيقي لا ينبغي أن يخسره الإنسان في تحولاته الإنسانية، وهو الإيمان والعمل الصالح الذي به يُقاس الفوز والخسران، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[2]، سواء جاء بمعنى الاستهزاء من القوم، أم بمعنى إفادة الخسران لهم، ناظر في دلالته، منطوقاً ومفهوماً، إلى الخسر والخسران على مستوى الإيمان، وليس على مستوى الأثمان، والمعروضات التي كانوا يركنون

(١) قال صاحب تفسير الصافي: «أنّ البيّنة هي البصيرة، والرحمة هي النبوّة، ولكن الذي لا نرى له وجهاً، هو ما ذهب إليه العلاّمة المفسّر من معنى للتخسير، بين أن ينسب إلى القوم، أو غير أن يخسر النبي بإبطال ما منحه الله به، وهذا لا يستفاد من ظاهر الآية، لأنّ مَن يُؤتى النبوّة لا يحتمل في حقه نسبة التخسير إليه.

را: الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج٣، ص. ن.

(٢) سورة النازعات، الآية: ١٢.

إليها فيما يعتبرونه فوزاً، فهي كرّة خاسرة بما تؤدّي إليه من تحولات كانوا يعتقدون أنها لن تكون، فإذا بها كائنة، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾[1]، أحياءً بعدما كانوا أمواتاً. وهذا إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على أنّ الاعتبار للخسران إنّما يكون من جهة البيّنات وعدم الإيمان بها، سواء أكانت تعني المبدأ أم المعاد، أم ما بينهما لجهة الطاعة أم المعصية لله تعالى فيما أمر به ونهى عنه، لأنّ الدنيا هي دار تكليف الإنسان، وكل ما يكون للإنسان فهو يأتيه بلحاظ كونه مطيعاً، أو عاصياً على نحو ما بيّنا في بحوثنا السابقة، من أنّه لا فوز ولا خسران إلاّ في ضوء هدى الله تعالى، وهذا ما ظهّره القرآن جليّاً فيما أتى عليه من خسران للأنفس دون اعتبار لما هو عليه الإنسان في ظاهره، وقد بيّن المعصوم عليه السلام هذا المعنى بقوله: «**وقد خسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً**»[2]. فالصفقة هي صفقة فوز وخسران بلحاظ المأمور به والمنهي عنه، وأبرز دليل على ذلك هو ما أتى عليه القرآن من قَسَم شيطاني لتغيير دين الله تعالى ليكون الإنسان، فيما لو اتبعه، خاسراً في الدنيا والآخرة، وليس مجرّد خسارة في مال أو جاه، أو غير ذلك، وإنّما خسران مبين فيما يؤدّي إليه من عذاب أقلّه خسارة النفس والأهل فيما يصير إليه الإنسان في منتهى أمره من خسران على مستوى النفس والعمل معاً يوم القيامة...

ب ـ الخسر والخسران، المفهوم والدلالة:

إذا كان الفوز هو الظفر بالخير مع حصول السلامة، كما أفاد أهل اللغة، فإنّ الخسران هو الظفر بالشرّ، وإن توهّمه الإنسان خيراً، وهو الهلاك على مستوى النفس والعمل كما تقدّم الكلام فيه من أنّ كل خسران لحظه القرآن إنّما جاء به بلحاظ المعنى والروح وليس

(١) سورة النازعات، الآية: ١٤.

(٢) دعاء عرفة، للإمام الحسين عليه السلام، موسوعة الإمام الحسين، تحقيق باقر العلوم، طهران، ١٤٢٥، ط١، ص٣١٥.

بلحاظ الربح أو الخسارة المادية. كما لا يخفى أيضاً أنّ القرآن قد لحظ هذا المعنى المادي، فيما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾[1]، وفيه إشارة إلى تحرّي العدل في الوزن وترك الحيف فيما يتعاطاه الإنسان في الوزن[2].

وانطلاقاً من ذلك، نرى أنّ الإشارة إلى الوزن والميزان فيما يتعاطاه الإنسان من تجارات هو يقرّب إلى الأذهان معنى ميزان الأعمال، ويجعل الإنسان متحسّساً لحقيقة الخفّة والثقل فيما أعدّ له من ميزان يوم القيامة، ولهذا نجد علماء اللغة يمثّلون ويشبّهون على تجارة الإنسان، ويرون أن الخسر هو انتقاص رأس المال، وأنّ الربح هو زيادته، فيُقال، خسر فلان، أو خَسِرت تجارته، وبما أنّ هذا ما يمكن التعويض فيه لكونه خسارة في المكاسب المادية، فإنّ هناك خسراناً تحدّث عنه القرآن لا جبر له ولا تعويض لكونه يتعلق بأعمال الإنسان ونفسه. ولهذا، نجد القرآن في كثير من الآيات لا يأتي على تجارة المكاسب، إلاّ بالقدر الذي يهدي الإنسان إلى ضرورة ان يتحرّى العدالة فيما يتعاطاه من رزق وتجارة، أمّا ما يتعلّق بخسارة النفس والعمل وحبط الحسنات، وغير ذلك مما يدخل في موازين يوم القيامة، فقد جاءت آيات كثيرة تخرج الخسر والخسران عن كونه شأناً دنيوياً، لتجعل منه شأناً أخروياً، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾[4].

وهكذا، فإنّه من خلال ضمّ آيات الخسر والخسران المبين إلى بعضها البعض، يمكن أن تتظهَّر لنا مدلولات كثيرة، قد لا يكون بالإمكان استفادتها من تفسير الآيات فيما لو فسّرنا آية بآية، باعتبار أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، ويصدّق بعضه بعضاً،

(١) سورة الرحمن، الآية: ٩.
(٢) الراغب الأصفهاني، معجم ألفاظ القرآن الكريم، م. س، ص١٤٧
(٣) سورة الزمر، الآية: ١٥.
(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠٥. الطباطبائي، الميزان، م.س، ج١٣، ص١٤٧

ومن شأن ضمّ الآيات إلى بعضها، إضافة إلى التدبّر في السياقات الخاصة بها، أن يخلص الباحث إلى معانٍ أخرى، ودلالات مختلفة عمّا يمكن استفادته من سياق واحد، أو من آية واحدة. وعلى سبيل المثال لا الحصر، يمكن للباحث أن يعرض لسياق آية تحرّي العدالة فيما يتعاطاه الإنسان من تجارة في حياته الدنيا، ولكنه لا يستطيع أن يتلمّس معنى الخسارة في النفس منها، لكونها تعرض لشأن حياتي في ما يتعاطاه الناس، ويؤدّونه من أعمال وتجارات. ومن هنا، نرى أنّ القرآن ينتقل بالإنسان المتدبّر فيه من الخسارة على مستوى الأثمان، إلى الخسارة على مستوى الأعيان بعد أن يكون الإنسان قد خسر نفسه وعمله فيما كان منه في حياته الدنيا، وكثيرون هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم في الدنيا قبل الآخرة، وبما أنّ هذه مثال لتلك، فإنّه يمكن للإنسان أن يتمثّل هذا المشهد وأن يتحسّسه ليدرك معنى أن تكون النفس هي الخاسرة بعيداً عمّا يكون لها من جاه أو مال، أو ثروة، أو غير ذلك مما يدّعيه أهل الخسران في دنياهم قبل آخرتهم...

لقد أوضح علماء الأصول في بحوثهم أن لمنطوق القرآن دلالته، كما لمفهومه، وقد أشرنا في مبحث الفوز إلى أنّ الفرق بين المنطوق والمفهوم، هو أنّ الأوّل ما دلّ عليه اللفظ في محلّ النطق، أما المفهوم، فقد اصطلحوا عليه بأنّه ما دلَّ عليه اللفظ في غير محل النطق. وفي جميع الأحوال لا بدّ أن يبقى السياق حاكماً، سواء في المنطوق أم في المفهوم، على اعتبار أنّ التبادر في النطق قد يكون واضحاً فيما هو نصّ، في حين أنّه قد لا يكون كذلك فيما هو ظاهر أو مؤوّل. وتبقى للآيات دلالاتها من خلال المعنى المتبادر والراجح، لأنّ الراجح من اللفظ المنطوق، يقدَّم على مرجوحه، وتوضيحاً لذلك يمكن أن نشير إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾[1]. فالباغي يطلق على معنيين، أحدها مرجوح وهو الجاهل،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

والثاني راجح وهو الظالم، لأنّه هو الظاهر المتبادر من سياقه، وكذلك الحال فيما لو تدبّرنا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1]، فهذه الآية لا يتبادر منها غير أنّ الله تعالى محيط بعباده وقادر عليهم، ولا يفارقهم في تدبيره ورحمته، وهذا صحيح، كما يرى صبحي الصالح، نصل إليه من طريق اللفظ[2].

هذا فيما يتعلّق بالمنطوق، أما المفهوم، فقد بيّنا سابقاً، أنّ علماء الأصول قد اتفقوا في تعريفه، فقالوا: إنّ المعنى الذهني هو المنفذ الوحيد لدلالته، ويسمّى مفهوم موافقة إذا وافق المنطوق في حكمه، ومفهوم مخالفة إذا لم يوافقه به. فهو إن دلّ على المعنى الأوّل سمّي فحوى الخطاب، وإذا دلّ على الثاني المساوي سُمّي لحن الخطاب، كما اتفق العلماء أيضاً، على أنّ هذا المفهوم، أي مفهوم المخالفة هو على أنواع، فمنه ما هو وصفي، ومنه ما هو شرطي، ومنه ما هو حصري...[3].

كان لا بدّ من توضيح هذه المفاهيم لأجل أن لا يختلط الأمر بين ما هو منطوق بدلالة اللفظ عليه، وبين ما هو مفهوم بانصراف الذهن إليه، فنقول: إنّ آيات الخسر والخسران في القرآن، منطوقاً ومفهوماً، ترشد من خلال سياقاتها المختلفة إلى أنّ التجارة الحقيقية هي مع الله تعالى، وأنّ رأس مال الإنسان الحقيقي هو الإيمان بالله تعالى وتصديقه فيما أوحي به إلى أنبيائه ورسله من آيات، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) را: صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، م. س، ص٣١٠، وقا: مع العلاّمة مغنيّة، علم أصول الفقه، م. س، ص١٠٥.

(٣) م. ع، ص٣١٥. إنّ الذي يعنينا في هذا المبحث هو مفهوم الموافقة والمخالفة دون غيره لما يذهب إليه بعض علماء الأصول من تضعيف وتوهين لأنواع أخرى لا طائل للتوقّف عندها.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

بِٱلصَّبۡرِ ﴾[1]، إذ إنّ هذه الآية يُستفاد منها مفهوماً ومنطوقاً، أنّ الإنسان خاسر إلى أبد الدّهر إلاّ أنّ يقيم حقّاً، أو يدفع باطلاً في ضوء الإيمان والعمل الصالح، وقد بيّن علماء التفسير أنّ آيات الخسران في كثير من دلالاتها تخبر عن حال المكذبين بلقاء الله تعالى، الذين خسروا أنفسهم بما ضيّعوه من أسباب النجاة، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۘ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[2]، إلى غيرها من الآيات التي تخبر عن حال الخاسرين الذين اتخذوا من الشياطين أولياء، كما قال الله تعالى: ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴾[3].

وهكذا، فإنّ مفهوم الخسران في القرآن، كما يُظهر لنا من سياق الآيات القرآنية، لا يلحظ ما يمكن أن يلحق بالإنسان من خسارة في الدنيا إلاّ بمقدار ما يكون لهذه الخسارة من علاقة بالإيمان والعمل الصالح، فإذا كمل إيمان الإنسان وعمله، ومن ثمّ نفسه، فإنّه على فوز عظيم في الدنيا والآخرة، وهذا ما ترشد إليه آيات القرآن، مفهوماً ومنطوقاً، على اعتبار أنّ الآيات تظهر مفهوم الخسران لا بالفحوى أو اللحن وحسب، وإنّما تعطيه أبعاده في الآخرة على النحو الذي يبدو معه أنّ الخسران يلحق بالإنسان بسبب عقيدته وإيمانه وعمله، ومن جهة نفسه، وليس من أية جهة أخرى، وغالباً ما تكون حالات الإنسان المادية سبباً في هذا الخسران، يقول الطباطبائي: «**إنّ الإنسان إذا أخطأ الطريق، وأصاب غير الحق وسكن إليه فصار كلّما لاح له لائح من الحق ضربت عليه نفسه بحجاب الإعراض وزيّنت له ما هو فيه من الاستكبار وعصبيّته الجاهلية، فهو أخسر عملاً وأخيب سعياً، لأنه خسران لا**

(١) سورة العصر، الآيات: ١ ـ ٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
(٣) سورة النساء، الآيتان: ١١٧ ـ ١١٨.

يرجى زواله ولا يطمع في أن يتبدّل يوماً سعادة، وهو قوله تعالى في تفسير الأخسرين أعمالاً وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً[1].

ذلك هو معنى الخسران في القرآن، أنّ الإنسان تأخذه العزّة بالإثم، ويستكبر عن أمر الله تعالى، ويكذّب بلقائه، ويتّخذ من الشيطان وليّاً، ويقتل الناس سفهاً بغير علم، ويُحرّم ما أحلّ الله، ويُحلّل ما حرّم الله تعالى، وفضلاً عن ذلك كله، يعبد الله على حرف، إلى غير ذلك مما انطوت عليه آيات الخسر والخسران، ومَن كانت هذه حاله في الدنيا، فلا بدّ أن يكون حاله إلى خسران النفس والأهل يوم القيامة، وخفّة الميزان، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[2].

إذن، مفهوم الآيات، وكذلك ما ترشد إليه من مدلولات في الدنيا والآخرة لجهة ما يؤول إليه الإنسان من خسران، لا يتوقف المتدبّر لهذه الآيات عند ما تعنيه من مفاهيم ومدلولات في الآخرة وحسب، بل هي تكشف له أيضاً عن حالات الإنسان وخسرانه في الدنيا، لأنّ الدنيا مزرعة الآخرة، والخسران في الآخرة هو نتيجة لما يكون عليه الإنسان في دنياه وفي ذات نفسه، فضلاً عن إيمانه وعقيدته. ولهذا، نجد الكثير من الآيات القرآنية تتحدّث عن الخسران بلحاظ كون الإنسان في الدنيا يأتي بالأعمال والأموال التي تؤدّي به إلى أن يكون خاسراً، تماماً كما تظهر لنا في معنى الفوز العظيم ومفهومه، إذ ليس يوجد في البين من فراغ، فإمّا أن يأتي الإنسان بما يؤدّي به إلى السعادة، وإمّا أن يكون حاله على خسران مبين في الدنيا والآخرة، وإنّ مما يدلّ على ما نذهب إليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ

(١) الطباطبائي، الميزان، ج١٣، ص٣٩٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٣.

﴿فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[1]. فالآية ناظرة في ظاهرها إلى أن الذين نسوا ما جاء به الأنبياء والرسل يتمنّون لو أن تكون لهم كرّة ليعملوا غير الذي كانوا يعملون، وقد بيّن القرآن أنّه لو كانت لهم هذه الكرّة لكانت كرّة خاسرة لأنّهم سيعودون إلى ما كانوا عليه لعلم الله تعالى بهم، وذلك أن الله لا يبدّل القول لديه وما هو بظلاّم للعبيد.

غاية القول: إنّ مفهوم الخسر والخسران في ضوء ما تقدّم، لا يلتبس فيه الأمر على متدبّر بصير، سواء أكان اللفظ يدلّ عليه في محلّ النطق، أم دلّ عليه اللفظ في غير محلّ النطق، لأنّه مفهوم ظهّره القرآن في ضوء دلالته الأخروية ليدلّل من خلال ذلك على أن الإنسان إنّما يكون فائزاً، أو خاسراً في ضوء ما يؤول إليه من مصير وعاقبة، فإمّا إلى فوز عظيم، وإمّا إلى خسران مبين، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2].

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

المبحث الثاني

الأخسرون أعمالاً والخسران المبين

قبل الشروع في هذا المبحث لا بدّ من الإشارة إلى أنّ منهجنا في بحث الفوز والخسران، هو الارتكاز إلى الاتجاه الموضوعي في فهم الآيات القرآنية، سواء من خلال سياقها الخاص، أم من خلال السياق العام، وهذا إضافة إلى ما يقتضيه البحث من إحاطة ممكنة، بما ذهب إليه أهل العلم والتفسير في ضوء مناهجهم المختلفة. وهذا المنهج، كما بيّنا سابقاً، في مبحث مبادئ الفوز وقواعد المنهج، قوامه ضمّ الآيات في الموضوع الواحد إلى بعضها البعض واستخلاص رؤية، أو موقف تهدف الآية أو السورة إلى بيانه، على اعتبار أنّ التفسير التجزئي أو الترتيبي قد يكون كافياً لتبيان معنى الآية فيما تنطوي عليه من مدلولات خاصة، لكنه ليس كافياً لتبيان الموقف من الموضوع الذي يراد بحثه، وإنّما لا بدّ من التقدّم خطوة باتجاه الموضوع لاستكناه حقيقة الموقف القرآني، أو الرسالي حول قضيّة من قضايا الدنيا والآخرة. كما أنّه ينبغي الإشارة أيضاً في سياق هذه الرؤية المنهجية إلى تسجيل ملاحظات عدّة حول الموضوع الذي نحن بصدد البحث فيه وعنه، فنقول: إنّ الفقهاء وعلماء التفسير في كثير من تفاسيرهم وشروحاتهم القرآنية، غالباً ما لحظوا المعنى، أو المفهوم الخاص للآية، فلم يتوسّعوا في التفسير ليأتوا على كامل المفردات التي تتعلق بالخسران في القرآن، باستثناء بعض المفسرين، ومنهم العلاّمة الطباطبائي، الذي أعطى هذا الموضوع حيّزاً مهماً في تفسيره، ولكنه اقتصر فيه على المقارنة بين الآيات من خلال التعرض للمفردات وما تعنيه

في سياقاتها المختلفة، لأنّ العلاّمة اختار لتفسيره أن يكون سياقياً ليس إلاّ[1]. هذا أولاً.

ثانياً: إنّنا في ضوء ما أسّسنا له من مبادئ وقواعد منهجيّة، نرى أنّ الآيات القرآنية لم تأتِ في سياق التوصيف للأحداث، بل هي في مقام الإخبار على النحو الذي يُستفاد منه أن التحقق بالخسران ليس لمجرّد حديث عن رؤية أو موقف، وإنّما هو مصير يلحق بالإنسان في ضوء ما يكون منه من عقيدة وعمل وسلوك يتحقق به في الدنيا قبل الآخرة، لأنّ ما يكون له في الآخرة، من فوز أو خسران، هو جزاء عمله الذي أخبر القرآن عن أسبابه ومتعلقاته في الدنيا. فالقرآن ليس كتاباً تنظيريّاً، أو كتاب يرسم ملامح للحياة كأي كتاب يخطّه الإنسان تبصراً بحاضره ومستقبله، بل هو كتاب يهدي للتي هي أقوم، ويبيّن مصائر العباد في الدنيا والآخرة. ولهذا، نجد أنّ الآيات القرآنية، سواء تحدّثت أو أخبرت عن أهل الكتاب، أو عن المشركين، أو عن المنافقين، أو عن الذين آمنوا، أو عن الناس جميعاً، فهي إنّما تخبر عن تحولات في الماضي والحاضر والمستقبل، فضلاً عمّا تخبر عنه من مصائر في الآخرة التي هي دار الحيوان بلغة القرآن، وهذا ما اقتضى منّا في كثير من الأحيان أن نلحظ السياق في القرآن مع أسباب النزول لكون ذلك يوضح للباحث مسار تحوّل الآية، من حيث هي آية خاصة بمورد معيّن، لتكون آية حيّة في مطلق الزمان والمكان، لما أفاده المحقق العلاّمة «**معرفة**» في التمهيد عن الإمام الباقر عليه السلام: «**ولو أنّ الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية، لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السموات الأرض..**»[2]. وبما أنّ الأمر ليس

(١) انظر الطباطبائي، الميزان، م. س، ج١، ص١٠.

(٢) يقول العلاّمة معرفة: «لقد قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله على تطبيق القرآن الخاص حسب مورد نزوله، وقاتل الإمام علي عليه السلام على تطبيقه العام على مشابه القوم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ فيكم مَن يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، وهو الإمام علي عليه السلام».

را: معرفة، محمد، تلخيص التمهيد، دار الميزان، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص٤٦٣.

كذلك، باعتبار أن المورد لا يخصص الوارد فلا بدّ أن يكون للآية القرآنية امتدادها في ضوء ما تتشابه به الوقائع والحوادث، تماماً كما تتشابه قلوب الرجال فيما يكون من حق وباطل، ومن خير وشرّ، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ ...﴾[1].

أما الملاحظة الثالثة، التي نودّ الإشارة إليها، فهي تتعلّق بتقسيمات هذا المبحث، إذ إنّه سبق للفقهاء والمفسرين أن تباحثوا في شأن الخسر والخسران والأخسرين كمفردات قرآنية تنوّعت واختلفت في سياقات متعدّدة ومتنوّعة، إذ منها ما جاء في سياق واحد، ومنها ما اختلفت سياقاته وتعددت على نحو ما سنرى في هذا المبحث. وباختصار نقول: إنّ ما نعنيه باختلاف السياق، وتعدد أو تنوّع المفردات لم يأتِ في القرآن لمجرّد الاختلاف في العبارة، وإنّما لتأكيد موقف، وإظهار رؤية حقيقية حول ما ينبغي أن يتعلّمه الإنسان ويتدبّر فيه لجهة ما يرمز إليه اختلاف المفهوم والدلالة، ذلك أنّ ما جاء فيه السياق لا بدّ أن يكون مثار تدبّر من خلال الربط بين الأسباب والمسببات، وقد تبدّى لنا أنّ سياق آية الخسران المبين، تختلف عن سياق ما جاء به السياق في آية الأخسرين أعمالاً، أو في آية الذين خسروا أنفسهم، أو آية: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾. وأكثر ما يتبدّى لنا هذا المعنى وما يؤدّيه من حيث المفهوم والدلالة حينما نتبصّر في حقيقة الموقف إزاء أي تحوّل في الخسر والخسران، فنلاحظ مثلاً، أنّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾[2]، ناظر في ظاهره إلى أن سوء العذاب إنّما يكون في الدنيا، وله تعلّق سببي مع الخسران في الآخرة، بل هو مقدمة، وله تحقق دنيوي بكل ما يؤول إليه الإنسان في الآخرة. وهكذا، فإنّ ما أردنا بحثه هو إظهار الفروق والتميّزات التي تكتنفها الآيات بهدف التعرّف إلى مزيد من الحقائق. واللطائف

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥.

القرآنية، لعلّها تشكّل إضافة جديدة إلى البحوث القرآنية، وقد رأينا أن يقسّم هذا المبحث إلى قسمين، قسم يتعلّق بالأخسرين أعمالاً، وآخر بالخسران المبين لما نراه في ذلك من تمايز في المعنى والمدلول، فضلاً عمّا يتمايزان فيه من سياق في آيات القرآن الكريم..

أ ـ الأخسرون أعمالاً في القرآن الكريم:

لقد بيّن علماء اللغة والتفسير أن الخسران أبلغ من الخسر، وأنّ الأخسر، على وزن أفعل، أبلغ من أن يُقال: خسر فلان، باعتبار أن هناك مَن هو خاسر، ومَن هو أخسر، وهناك رابح، وهناك أربح، وأحياناً يأتي الخسر أو الخسران بصيغة مفعول المطلق، كما قال الله تعالى: ﴿خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ مع ما يعنيه المطلق من تأكيد للفعل من جميع جهاته وحيثياته، ومن يتدبّر في القرآن يرى أن للمفعول المطلق تمايزاً خاصاً يؤكّد القرآن من خلاله على ما يريد للإنسان أن يلتفت إليه، كما قي قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، فالخسر، أو الخسران، سواء جاء بمعنى الغبن، أو النقص، أو الهلاك، أو الضلال، يتجاوز معناه كونه مجرّد نقص أو هلاك في مال أو تجارة إلى خسارة النفس، وخسارة الأعمال، ولهذا قال الله تعالى: ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾، ولم يقل الأخسرين أثماناً، أو أموالاً، أو غير ذلك، ما يدلّل على أنّ العمل وكل ما يأتيه الإنسان بوحي نفسه وإرادته هو المعيار للحكم عليه بالخسارة أو الربح، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[1]. فالخسران جاء الإنسان من جهة انعدام الهدى، وليس من جهة ما يكون له من متاع في الدنيا. وعليه، فإنّ الآيات تلحظ أن يكون للإنسان عذاب في الدنيا، ولكنها في جوهرها، ومن خلال سياقها، تظهر

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦.

أن المسار في الربح والخسارة إنّما يكون بالنفس والدين، وكل ما عدا ذلك يأتي تبعاً لذلك، فإذا لم يتوفر الإنسان على الهُدى والدين والاستقامة فيهما، فلن يكون بمنأى عن الخسران حتى ولو كانت الدنيا ملك يديه. وقد لحظ القرآن هذا المعنى، وشرحه العلاّمة الطباطبائي فيما قابل به بين من لم يصب مسعاه في الدنيا، ويأمّل أن يعوّض عن خسارته ولديه متسع لذلك[1]، وبين من يظنّ أنّه على حق ويمنعه حجاب نفسه من التبصّر في حقائق الأمور بما يتأتّى له من إعراض وتزيين وغير ذلك مما يجعله على استكبار وعصبيّة يمنعانه من أن يرى الحق حقاً والباطل باطلاً، وهذا هو مفاد: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، يقول العلاّمة الطباطبائي: «**وحسبانهم عملهم حسناً مع ظهور الحق وتبيين بطلان أعمالهم إنّما هو من جهة انجذاب أنفسهم إلى زينات الدنيا، فيحبسهم ذلك عن الميل إلى اتباع الحق والإصغاء إلى داعي الحق**[2]**، ومنادي الفطرة. كما قال الله تعالى:** ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ...﴾[3].

إنّ من يكون شأنه كذلك، فهو حتماً ضالّ عن السبيل في مسعاه، ولهذا الضلال منشأه في النفس وليس في الواقع، وهذا يؤكّد لمتأمّل بصير أنّ حقيقة التجارة هي فيما تربح فيه النفس، وليس فيما يتوهّمه الإنسان أنّه تجارة رابحة. ولهذا قال الله تعالى: ﴿...هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾[4]، فالآية ـ كما نرى ـ ناظرة إلى أنّ الرأسمال الحقيقي في حياة الإنسان هو الإيمان والجهاد في سبيل الله تعالى، وهذا لا يتنافى إطلاقاً مع ما أعدّ للإنسان من نعم في دنياه، ولكن هناك فرقاً كبيراً بين أن تكون النعم المادية سبيلاً إلى التجارة الرابحة في النفس والعمل، وبين أن تكون النعم حائلاً بين الإنسان وبين ما أعدّ له في دار الحيوان.

---

(١) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج١٣، ص٣٩٤.

(٢) م. ع، ص. ن.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٤.

(٤) سورة الصف، الآيتان: ١٠ ـ ١١.

إذن، الأخسرون أعمالاً، هم الذين ضيّعوا ما يكتسب به الإيمان، واشتروا الضلالة بالهُدى، وما ادّعوه لأنفسهم من حسن الصنع، هو عين الهلاك والضلالة، وهو الذي حال بينهم وبين أن يكون لهم التجارة الرابحة في الإيمان والجهاد، وإذا كان ثمّة معنى آخر يمكن تبيانه، فهو ما أشار إليه القرآن في خطابه للرسول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾[1] الذي يفيد الأخبار عمّا يؤول إليه أمر هؤلاء من خلال السعي، وسوء العذاب، وحبط الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2].

وكما أشرنا سابقاً إلى أنّ الأخبار يمتنع فيها الكذب، ولا يطاله النسخ، بل إنّ مآلهم إلى ما أخبر الله تعالى هو حق وصدق، وهذا لا يستفاد منه أن ضلال السعي وحبط الأعمال لا أثر دنيوي له، بل له أثر بيِّن، كما قال الله تعالى في كثير من الآيات انّ الدنيا رغم ما يكون لهؤلاء منها من إمهال واستدراج يمكن أن تكون مجالاً لتعلّق العذاب بهم كما قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾[3]، يقول الكاشاني في تفسيره[4]، والعلامة الطبرسي في جوامع الجامع[5]، والشيخ الطوسي في التبيان[6]، والعلامة الطباطبائي في الميزان[7]، أنّ سوء العذاب هو ما لحق بهم من قتل وأسر في يوم بدر، ما يعني أن الخسران لحق بهم قبل أن يكونوا الأخسرين في الآخرة، الذي أفادت الآية أنّهم أشدّ الناس خسراناً لفوات المثوبة واستحقاق العقوبة، وهذا ما يفيده السياق أيضاً حيث سبق

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة النمل، الآية: ٥.
(٤) الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج٢، ص٢١٥.
(٥) الطبرسي، جوامع الجامع، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٢٠، ج٢، ص٦٩٩.
(٦) الطوسي، التبيان، م. س، ج١٨، ص٧٥.
(٧) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج١٣، ص٣٩٤.

الآية الإخبار بأنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة زيّنت لهم أعمالهم فهم يعمهون، وهم الذين استحقوا أن يكون لهم سوء العذاب في الدنيا قبل نيلهم ما يستحقون من عقوبة في الآخرة، والتي هي أخسر لبقائها ودوامها..!؟

هناك آيات كثيرة تفيد هذا المعنى لجهة تحقق الخسران في الدنيا قبل الآخرة للذين كذّبوا بلقاء الله تعالى، أو كذّبوا بآيات الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ...﴾[1]، وكانت عاقبة أمرهم خسراً بما عصوا وكانوا يعتدون. وقد بيّن القرآن كيف أنّ كثيراً من الأمم قد أصابها العذاب في الدنيا قبل الآخرة كقوم فرعون وعاد وثمود وقوم لوط، وغيرهم كثير ممن أصابهم القحط والجدب والخسف والطمس وغير ذلك مما استحقوا به العذاب في الدنيا والخسران في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[2].

وهكذا، فإنّ الإخبار عن الخسر والخسران في الدنيا والآخرة هو مما يستحق التوقّف عنده مليّاً بعد أن تبيّن لنا أن الخسر لا يلحق بالإنسان من حيث كونه فقيراً أو غنيّاً، وإنّما بسبب ضلاله وفساده في نفسه ودينه وعمله، فإذا ما حقّت الخسارة للإنسان في الدنيا إيماناً وعملاً، فإنّه سيكون الأخسر غداً، بحيث يكون له الخسران المبين في الدنيا والآخرة لما أفاده القرآن الكريم بأنّ فتنة الإنسان في الدنيا، سواء بالمال أو الجاه، أو الولد، لا منجاة منها إلاّ بالإيمان والتواصي بالحقّ والصبر، وإلاّ استحال الأمر من الخسر إلى الخسران المبين، الذي لا خسران بعده، كما في قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾[3]، بعد التأكيد والإشارة باسم الإشارة بأنّهم الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون، إذ لا أحد أبين وأكثر خسراناً منهم، لكونهم خسروا بفتنة الدنيا، وبكفران الآخرة،

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٦.
(٣) سورة هود، الآية: ٢٢.

يقول الطباطبائي: «**إنّ فرض أنّهم أخسر بالنسبة إلى الدنيا، فذلك لكونهم بكفرهم وصدّهم عن سبيل الله حرموا سعادة الحياة التي يمهدها لهم الدين للحق فخسروا في الدنيا كما خسروا في الآخرة لكنهم في الآخرة أخسر لكونها دائمة مخلّدة. وأما الدنيا فليست إلاّ قليلاً. كما قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ...﴾[1]، ولا يخفى أيضاً أنّ الأعمال تشتدّ وتتضاعف في الآخرة نتائجها...**»[2].

غاية القول: إنّ الأخسرين أعمالاً ليسوا فقط أولئك الذين ضلّ سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وإنّما يضاف إليهم كل مَن اشترى الضلالة بالهدى، وكذّب بآيات الله تعالى ولقائه، وسمع لهتاف الشيطان، كما سنرى في مبحث الخسران المبين، إذ إنّ الإنسان قد يخسر لسبب ما في الحياة الدنيا، أو يكون له عذاب بالفتنة أو ما شابه، مما يعرض للإنسان من بلاء فيما يأتيه من أعمال، ويختاره من أهداف، فيسدل على نفسه حجاب المعصية والذنوب والعصبية التي تؤول به إلى الخسران. ولهذا فإنّ أكثر الآيات التي جاءت في سياق إظهار الخسارة قد جاءت بتعبير الهداية، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[3]، ذلك هو معنى الأخسرين أعمالاً، وهؤلاء ليسوا فقط مَن نزل القرآن فيهم، كقريش، وإنّما هو لكل من كذّب وتولّى وسعى في الأرض فساداً، كما بيّن الله تعالى في آية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ...﴾، فهم الأخسرون أيضاً لكونهم قد ضيّعوا أسباب الإيمان بعنادهم وقولهم غير الحق، وهم يعرفونه أما إذا كانت آية الأخسرين أعمالاً قد نزلت في فجرة قريش كما أفاد ابن مردويه عن ابن الطفيل عن أمير المؤمنين، فإنّ آيات أخرى، وهي كثيرة قد جاءت

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٢) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج١٣، ص٢٩٤.

(٣) سورة يونس، الآية: ٤٥.

لتفيد الأخسرين أعمالاً من أهل الكتاب، ومن كل الناس، وعلى الأخص أولئك الذين واجهوا الأنبياء وتربّصوا بهم شرّاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾، لا في الدنيا وحسب، بل في الآخرة أيضاً، لكون ظاهر الآية يُفيد حقيقة الجعل بأنهم في أشدّ الخسارة، بل هم أخسر من كل خاسر بعد أن عاد سعيهم به برهاناً قاطعاً عن أنهم على باطل، والنبيّ إبراهيم عليه السلام على الحق، أوجب مزيد الدرجات له، واستحقاق أشدّ العذاب لهم، على اعتبار أنّ السياق يبيّن أنّ هذه المشهديّة للخسران لم تكن إلاّ بعد أن قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وهو ما تحقق عياناً لردّ كيدهم وتحقّق خسارتهم، وهذا الأثر للأخسرين أعمالاً ليس مخصوصاً بزمان دون زمان، وإنّما هو لاحظ لكل الأزمنة، ولكل الحالات، فحيث يكون الحق يكون الفوز العظيم، وحيث يكون الباطل وادّعاء حسن الصنع والعناد والتكذيب بآيات الله يكون ليس الخسران وحسب في الدنيا، بل الخسران في الآخرة، وأشدّ العذاب بما يتوفّر لهؤلاء من ديمومة العذاب الذي قد يهون معه عذاب الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

إنّ سياق آية: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2]، يشير بصراحة إلى أوضاع ومراتب هؤلاء الذين يرون حسن الصنع لأعمالهم، فجاء اسم الإشارة ليوضّح دلالة السياق لنفهم أنهم ليسوا مجرّد أناس أخطأوا الهدف، وضلّوا السبيل، بل أناس واعون ومدركون لما يؤدّونه من قول وفعل في الحياة الدنيا، وهذا ما يفيده ظاهر دلالة اللفظ في محل النطق، حيث نجد التساؤل عن الأخسرين أعمالاً: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾، ثم يأتي الجواب، فإنهم الذين ضلّ سعيهم، وكفروا بآيات الله ولقائه، كما قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾، إنّه جواب كاشف عمّا يؤول إليه هؤلاء من مصير، سواء في الدنيا، أم في الآخرة، كما جرى مع النبي إبراهيم وسائر أنبياء الله تعالى، الذين حقّ القول في أعدائهم في الدنيا قبل الآخرة بالعذاب والهوان لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ لفظ الأخسرين لم يأتِ إلا لانتفاء التماثل بين أن يكون الإنسان خاسراً، أو أخسّر للدلالة على تحقق مرتبة هؤلاء في كونهم متميّزين عمّن حقّت له الخسارة فيما يأتيه من فعل أو قول.، قد يكون في الدنيا، أو في الآخرة، ولكن لا يكون له الجزاء في جهنّم على نحو ما يكون لمن كذّب وكفر بآيات الله تعالى، وهذا ما أجاب به العلاّمة اليزدي على تساؤل لماذا هم الأخسرون؟ قال: «**إنّهم الذين بطلت أعمالهم في الحياة الدنيا لكنهّم يظنّون واهمين أنّ أعمالهم حسنة جداً.. فإذا كان هؤلاء من المستضعفين فكرياً فمن المرجوّ أن لا ينالهم العذاب، وعلى أي حال إن خسر هؤلاء فهم خاسرون وليسوا أخسرين، فأخسر الناس من كانوا ذوي عقل وشعور وفهم عالٍ جدّاً، لكنّهم رغم ذلك يكفرون ويفرحون بأعمالهم، أي يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً. فهم ليسوا الأخسرين لأنهم يعلمون قبح أعمالهم لكنّهم يتمادون في ذنوبهم وعصيانهم. إنّما لكونهم يظنّون أنهم يقومون بأعمال حسنة، ويبقى الجواب عن هؤلاء متعلّقاً، كما يرى العلاّمة، بسنّة شديدة ومؤلمة من سنن الله تعالى، إذ من سننهِ تعالى أن يصل الأمر بالإنسان إلى مستوى أن يفقد القدرة على تمييز الحسن من القبيح جرّاء سوء العمل والذنب، بالرغم من أنّه من أهل العلم والمعرفة، لكنّه يقع في الضلال، ويدّعي حسن الصنع والصواب، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ ﴾[1]، وهذه سنّة**

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

بالغة الإنذار، وتستحقّ التأمّل بالنسبة للعلماء، فإذا لم نعمل بلوازم علمنا ونؤثر الضلال عامدين، فإنّ الله يعاقبنا في الدنيا والآخرة، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ربّ عالم قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه**». إنّ من جملة النماذج التي يقدّمها العلاّمة اليزدي في القرآن، نموذج بلعام بن باعورا الذي كان عالماً بآيات الله تعالى، وعنده الاسم الأعظم، ولكنه انسلخ من آيات الله تعالى واتّبع هواه، فكان من الغاوين[1].

كما نلاحظ أيضاً أنّ آية الأخسرين أعمالاً لم تأتِ على مفردة الخسران المبين، وهذا ربما يعود إلى أنّ مرتبة الخسران المبين، هي المصير الأسوأ للذين يعملون على تغيير خلق الله تعالى كما أقسم الشيطان، وهذا ما سيكون موضع بحثنا في البحوث القادمة لتبيان مع الخسران المبين الذي استحقه ويستحقه كل من اتخذ الشيطان وليّاً من دون الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾[2]، لا شكّ في أنّ لهذه الآية دلالتها الخاصة، وتمايزها الخاص عن آية الأخسرين أعمالاً الذين لهم مواطن لقاء كثيرة مع الذين أقسموا على تغيير خلق الله تعالى وأمره ونهيه. وربما تكون آيات سورة النساء، مفسَّرة بآيات سورة الكهف، نظراً لما للشيطان من دور في تزيين الأعمال لتظهر للإنسان بحسن الصنع، كما قال الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ

(١) را: اليزدي، محمد تقي المصباح، السير إلى الله تعالى، ترجمة الخاقاني، دار الولاء، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ص٢٦١ـ٢٦٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٩.

(٣) سورة النمل، الآية: ٢٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤٣.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾[1]. وهنا تبدو لنا اللطيفة القرآنية حول الأخسرين أعمالاً الذين بلغ بهم الأمر حدّ العلم والبصيرة بما يأتونه من أفعال وفساد، فاستحقوا جزاء جهنّم لكونهم الأخسرين أعمالاً بما أتوا به من أعمال وهم متمكنين من النظر والاستبصار ولكنهم لم يفعلوا، ولم يرعووا عن أعمالهم، فصحّ فيهم قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾[2]. وختاماً نقول: لعلّنا أحكمنا الكلام في ما تدبّرنا به من آيات، فإن كان صواباً فهو بتوفيق من الله تعالى، وإن كان خطأً فهو من أنفسنا، نسأله التوفيق والعصمة والهداية.

نعم، هناك سياقات مختلفة للآيات القرآنية، فمنها ما جاء متفقاً، ومنها ما جاء ليفيد المزيد من الخسران للإنسان فيما لو كذّب بآيات الله تعالى ولقائه، كما جاء في إفادة الأخسرين للمزيد من العذاب، لأنّ الآية ذاتها جاءت في سياق آخر، لتفيد الخسران في الآخرة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[3]، وهذه الآية، كما نلاحظ تضيف مدلولات أخرى إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾[4]. فالآية جاءت بعبارة الأخسرين لتفيد مضاعفة العذاب والعقوبة

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٣) سورة النحل، الآيتان: ١٠٨ ـ ١٠٩.
(٤) سورة هود، الآيات: ١٩ ـ ٢٢.

بحقّ الذين يصدّون عن سبيل الله تعالى، في حين أنّ سياق ألأولى جاء ليفيد تحقق الخسارة لكون سياق الأولى يفيد الطبع على القلوب، والغفلة عن التدبّر في عاقبة الأمر، أمّا سياق الآية الثانية، فهو يكشف عن مداليل أخرى تتجاوز إيثار الحياة والغفلة إلى الصدّ عن سبيل الله، فهم يستجمعون في نفوسهم وسلوكهم، في القول والفعل، ما يوجب لهم ديمومة العذاب والخسران الأكبر، لأنّ الفرق بين الخسر والخسران هو أن الخسران أبلغ وأقوى من الخسر، ولهذا اختلف التعبير باختلاف السياق، ولأجل أن لا نطيل الكلام ندعو الباحثين إلى التدبّر في سياق آيات الخسران في القرآن، سواء جاءت بلفظ الخاسرين، أم بلفظ «**الخاسرون**»، أم الأخسرون، أم الخسر، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، إلى غير ذلك من الآيات التي لا بدّ من أن تلحظ في سياقاتها، ذلك أن كل آية لها ما يميّزها عن سواها فيما تأتي به من سياق، ويبقى السؤال الأبرز والأهمّ فيما نحن بصدده، هو، هل أن الخسران ينجبر بالتوبة قبل الموت؟

لا شكّ في أنّ ما تحدّثنا عنه في المبحث السابق عن الفوز قد أجاب عن مضمون هذا السؤال، ولكن يمكن إضافة ما هو مناسب إلى ما تقدّم فنقول: إنّ التوبة فيما لو حصلت قبل معاينة الآخرة، فإنّ الله يقبل التوبة عن عباده، لكونه التوّاب الرحيم، وقابل التوبة وغافر الذنب، وقد سبقت رحمته غضبه، ولكن هذه الرحمة الواسعة، وهذه التوبة عن العباد تبقى مرهونة بما يقدم عليه العبد من أوبة قبل أن يحق القول فيه ويدخل في ضمير الخبر الإلهي بالعذاب. أمّا إذا لم يبادر العبد إلى التوبة قبل الموت، وكانت المعاصي والذنوب تصدر عنه وتأتي منه باستكبار وتعنّت وعناد وغير ذلك مما يدخله في دائرة الجرأة على الله تعالى، فإنّ توبة الله عنه قد لا تكون محقّقة نظراً للإخبار بأن الذين يعملون السيئات حتى يعاينون الآخرة والذين يموتون وهم كفّار، قد أعدّ الله تعالى لهم العذاب الأليم، وكما يقول العلاّمة شبّر: «**إنّ الله تعالى نفى التوبة عمّن سوّفها إلى حضور الموت ومن مات كافراً، وسوّى بينهما**

في نفيهما لمجاوزة كل منهما وقت التكليف والاختيار...»[1]، هذا فضلاً عن أن إخبار الله تعالى لا يطاله النسخ، ولا يبدّل القول لديه، فمن استحق العذاب كان له العذاب، ومَن استحقّ التوبة والرحمة كان له ذلك بحيث يعود الله تعالى عليه بالمغفرة والرحمة. أما القول: بأنّ هذا العذاب هو حقّ لله تعالى وله أن يسقطه رحمة بعباده، ولغناه عنه، فذلك يصحّ من قائله ارتكازاً لسعة رحمة الله تعالى، ولكن الخبر الإلهي يبقى متقدّماً على هذا وقد توعّد الكفّار والمنافقين والمشركين وكل مَن واجه الأنبياء بأن يكونوا في جهنّم خالدين وصدق الله العظيم، بقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ ...﴾[3].

ب ـ الخسران المبين في القرآن الكريم:

أجمع المفسّرون لكتاب الله تعالى على أنّ مفهوم الخسر والخسران المبين له دلالات كثيرة ومتنوّعة في القرآن، وقد سبق القول، أنّ هذا التنوّع في معنى الخسران ناشئ عن كون الاختلاف في السياق يحتّم ملاحظة هذا التنوّع في المدلولات على اعتبار أنّ سياق الآيات القرآنية تارة يلحظ الجانب الاجتماعي والسياسي، وبشكل عام الجانب الدنيوي بالهداية إلى تحرّي العدالة في الوزن، وعدم الحيف.. وطوراً يلحظ الجانب الروحي والمعنوي والمصيري للإنسان. ومن هنا كان بحث أهل اللغة فيما يعنيه الخسر والخسران في مختلف السياقات القرآنية، تماماً كما فعل الدامغاني في قاموس القرآن، الذي كشف أن الخسر في القرآن يأتي على خمسة

(١) شبّر، عبد الله، تفسير القرآن، م. س، ص١٢٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٧.

أوجه وهي: العجز[١]، والغبن[٢]، والضلال[٣]، والنقصان[٤]، والعقوبة[٥]. وبما أنّ موضوع بحثنا في هذه الفقرة هو الخسران المبين، فلا بدّ أن نكتفي بالبحث عمّا يعنيه الخسران المبين من ضلال وعقوبة، لأنّه ليس من فراغ أن يأتي القرآن بمفردات الخسران المبين، وهذا ما كان موضع عنايتنا في البحوث السالفة فيما أشرنا إليه من فوز عظيم، وفوز مبين، وهنا في هذا المبحث نجد أنّ القرآن لم يأتِ على استعمال مفردات الخسران الكبير، أو الخسران العظيم، بل اكتفى بذكر وإطلاق الخسران المبين على ما يؤول إليه الإنسان في دنياه وآخرته من غبن ونقصان وضلال وعقوبة، لأنّ الخسران المبين يستجمع كل هذه المعاني بما تنطوي عليه من تحققات ومتعلّقات في الدنيا والآخرة، باعتبار أنّ الخسران المبين ليس بعده خسران أبداً، وهذا ما لحظه أهل اللغة والتفسير فيما انطوت عليه كلمات وحروف الخسران المبين، فهي خمس كلمات: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾، وتشتمل على أنّ: أداة التنبه، وذلك بالإشارة إليه، وهو: تأكيده بأداة الحصر، وأل تعريفه، والخسران المبين: وصفه بأنّه بيّن وواضح وليس بعده خسران أبداً[٦].

ولكي لا يتكرّر الكلام، ويحدث الإطناب فيما نروم بيانه، فإننا سنكتفي بإيراد

---

(١) قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، فهذا من الخسر بما هو عجز...

(٢) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الزمر: ١٥]، فالآية ناظرة إلى الخسر بما هو غبن بأن يصير الأهل والأنفس للغير...

(٣) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، يعني لفي ضلال، ومثله قوله تعالى: ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

(٤) قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩]، يعني لا تنقصوا الميزان، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣]، أي تنقصون.

(٥) قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، أي لحوق العقوبة بالإنسان بسبب ذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، أي في العقوبة.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، م. س، مادة خسر، وقا: مع الراغب الأصفاني، م. س، ص١٤٧.

جملة من الآيات التي يدلّل فيها السياق على أن الخسران لا بدّ أن يتمايز بين أن يكون نقصاناً في الدنيا فيما يتعاطاه الإنسان من رزق وتجارة، وبين أن يكون غبناً وضلالاً وعقوبة للإنسان في دنياه وآخرته حتى ولو كان رابحاً في تجارات الدنيا ومكاسبها. قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[1]، وقال الله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[2].

فالآية الأولى، كما تبيّن للمفسّرين، تأتي في سياق ذكر أوصاف الناس وما يكونون عليه من حال ومنطق ومجادلة بغير علم، بين قائل بغير علم ومتّبع لكل شيطان مريد، وبين مجادل بغير علم ولا هُدى، ولا كتاب منير، وبين مَن يعبد الله على حرف، كما هو مفاد الآية موضوع البحث، فهي تشير إلى أنّ الخسران يلحق به في الدنيا والآخرة لكونه على طرف أو شكّ في دينه، كالذي يكون على طرف الجيش، فإن أحس على ظفر قرَّ وإلاّ فرَّ، على حدّ تفسير الكاشاني[3].

يقول الشيخ الطبرسي في تفسير الآية: «**لما تقدم ذكر الكفار وما تعاطوه من جدال، ذكر سبحانه حال مقلّدة الضلال والدعاة إلى الضلال، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، أي على ضعف في العبادة ونفاق فيها..**»[4]. فإذ كان حال المنافق الذي يعبد الله تعالى بلسانه دون قلبه، أو يكون على شكّ في عبادته كما جاء عن مجاهد[5]، يؤول إلى الخسران المبين في الدنيا والآخرة، فما يكون حال الآخرين من الكفار وغيرهم ممن أشرك بالله تعالى واتخذ من الشيطان

(١) سورة الحج، الآية: ١١.
(٢) سورة الزمر، الآية: ١٥.
(٣) الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج٢، ص٧٨.
(٤) الطبرسي، مجمع البيان، م. س، ج٧، ص٦٤.
(٥) م. ع، ص. ن.

وليّاً؟ فالمنافق، إذا أصابه خير اطمأنّ به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، أي رجع عن دينه إلى الكفر فخسر الدنيا بفراقه، وخسر الآخرة بنفاقه، ذلك هو الخسران المبين، أي الضرر الظاهر لفساد عاجله وآجله على حدّ تعبير الشيخ الطبرسي في البيان[1]. وإلى مثل هذا ذهب المفسرون الأعلام؛ الطباطبائي والزمخشري، والطبري، فهؤلاء رأوا بأنّ الخسران المبين إنّما يأتي لهذا الإنسان من حيث كونه اختار الدين لتكون له الدنيا، فإن أصابها اطمأنّ إلى عبادة ربّه بذلك الخير، وإن خسرها انقلب على دينه وارتدّ بكفره، اعتقاداً منه بأنّ الدين والعبادة لله تعالى هو سبب خسرانه. وهنا تبدو لنا ملحوظة مثيرة للعجب فعلاً وتحتاج إلى مزيد تأمّل وتدبّر، وهي ما أشار إليه العلامة الطباطبائي بقوله: «**وهذا صنف من الناس غير المؤمنين الصالحين، وهو الذي يعبد الله تعالى بانياً عبادته على جانب واحد دون كلّ الجوانب وهو جانب الخير ولازمه استخدام الدين للدنيا..**»[2]، إذ نجد العلاّمة يحكم على الأصناف الثلاثة الذين ذكرهم القرآن موصّفاً لمقالاتهم، بأنهم غير مؤمنين[3]، دون الإشارة إلى حقيقة حالهم وما هم عليه، من نفاق أو كفر، أو شرك أو غير ذلك، وإن كنّا نرى أنّ السياق قد أشار، كما يرى العلاّمة الطباطبائي، إلى أنّ الآيات تذكر أصنافاً من الناس مصرّين على الباطل مجادلين في الحق، أو متزلزلين فيه وتصف حالهم وتبين ضلالهم، ثُم تذكر المؤمنين وأنّهم مهتدون في الدنيا منعمون في الآخرة. وقد لا يكون من الخطأ في القول بأنّ هؤلاء يصحّ وصفهم بالنفاق بدلاً من القول بأنهم غير مؤمنين لما أفاده الشيخ الطوسي في التبيان عن الحسن، أن الذي يعبد الله على حرف هو المنافق الذي يعبد الله تعالى بلسانه دون قلبه. وهنا نعرض للكلام بهدف الملاحظة ليس إلاّ...

(١) م. ع، ص. ن.
(٢) الطباطبائي، الميزان، م.س، ج١٤، ص٣٥٠.
(٣) م. ع، ج١٤، ص٣٥١.

ثمّ إنّ مما يعزّز رؤيتنا لما نذهب إليه من توصيف، هو ما عرضت له آية الزمر في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[1]، الذي يفيد تحقق كامل الخسران الذي لا خسران بعده أبداً، وهذا ما يجعله متمايزاً عن خسران الذين يعبدون الله تعالى على حرف الذين تبيّن خسرانهم في الدنيا والآخرة بنقصان حظوظهم وذهاب رأس مالهم، فكان الخسران مبيناً فيما وصفوا به من عدم إيمان ونفاق. أما الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، فقد جاء التوصيف لحالهم بالنفس والأهل في الدنيا والآخرة بإضافة التنبيه إلى خسرانهم المطلق بحيث لا يكون لهم معه أي أمل ورجاء فيما يؤلون إليه من مصير في الآخرة، وهذا ما ذهب إليه الطباطبائي بقوله: «**إنّ الخسران أبلغ من الخسر، وخسران النفس هو إيرادها مورد الهلكة، والشقاء بحيث يبطل منها استعداد الكمال بتفويتها السعادة، بحيث لا يطمع فيها وكذلك خسارة الأهل**[2]، **إذ في الآية تعريض بالمشركين المخاطبين بقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾، فالظاهر من الآية أنّها تتجاوز فيما تضمنته من خسران مبين حالة الدنيا وما يطمع فيها من تعويض، للخسران، إلى خسارة النفس والأهل، فجاء الخسران مبيناً لها بتوصيف مختلف عن آية الحجّ لإظهار مدلولات أخرى منها دوام العذاب والخلود في النار على نحو ما بيّن العلاّمة الطباطبائي بأنّ الخسران المتعلق بالدنيا في مال أو جاه سريع الزوال منقطع الأجل بخلاف خسران يوم القيامة الدائم الخالد، الذي لا زوال له ولا انقطاع. نعم هناك تلاقٍ بين ظاهر الآيتين، إلاّ أنّ آية الزمر أضافت النفس والأهل ودوام العذاب والهلاك لإظهار أن الشرك والكفر مآله ليس إلى مجرّد خسران كيفما اتفق في الدنيا والآخرة، وإنّما إلى خلود في جهنّم التي**

(١) سورة الزمر، الآية: ١١٥. م. ع، ج١٤، ص٣٥١.

(٢) م. ع، ص. ع.

يستبدل فيها بيع الأثمان ببيع الأعيان على ما أفاد الشريف الرضي في تبيان معنى وحقيقة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ وقد تقدّم الكلام في مبحث اللغة فيما تضيفه الاستعارة من دلالة ومعنى، فليراجع في مكانه.

إنّ معنى أن يكون الخسران مبيناً في الدنيا والآخرة، أو في النفس والأهل، أو في الدين والدنيا، أن يتبيّن للإنسان معنى أن يكون على خسارة ملحوقة بالجبر والتعويض بحيث يكون لها خلف من مال أو جاه، أو على خسارة لا انقطاع لها لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا هو مفاد جملة من الآيات القرآنية التي عبرت في ظاهرها عن الخسران في الآخرة ولكنها في الباطن تستبطن معنى العذاب والخسران في الدنيا أيضاً على نحو ما بيّنا فيما أرشدنا إليه من لحوق العذاب والخسران بأمم كثيرة فسقت عن أمر ربها، وكان العذاب الأكبر لإبليس الذي أبى أن يسجد لآدم، واختار أن يكون على رأس الخاسرين فيما انتهجه من سبل لإغواء الإنسان وصرفه عن مسار العبودية لله تعالى، وبما أقسم عليه من إضلال واحتناك، وتغيير في خلق الله تعالى، ما جعله مستحقاً للعنة الإلهية، وأن يكون مطروداً من رحمة الله تعالى. لقد بيّن الله تعالى في القرآن أن بداية الخسران لبني آدم كانت وتكون في أن يسمعوا لهتاف الشيطان، ويستمعوا لندائه، بعد أن بيّن لهم أنّه العدوّ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[2].

هناك آيات كثيرة تدعو الإنسان إلى أن لا يتخذ من الشيطان وليّاً، لأن تولّي الشيطان يُخرج الإنسان عن كونه مطيعاً لله تعالى، ليكون من حزب وجماعة الشيطان، كما قال

(١) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٢) سورة يس، الآية: ٦٠.

الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1]. فالآيات التي تعرض لأهداف الشيطان، هي إنّما تؤكّد على أنّ ما يهدي إليه ليس فيه إلاّ الخسران المبين، باعتبار أنّ الإنسان على خيار بين أن يهتدي بهدى الشيطان إلى عذاب السعير، وبين أن يهتدي بهدى الله تعالى الذي أوحى به بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]. وبما أنّه مع الهدى الإلهي لا خوف ولا خسران، فذلك دليل على أنّ الله تعالى أراد للإنسان أن يتوفّر على كل ما يحقق له الفوز والرضوان في الدنيا والآخرة، خلافاً لما يهدي إليه الشيطان ويعد به من أماني وغرور، وغير ذلك مما يتصيّد به الإنسان في سيرة حياته الدينية والدنيوية، فتكون عاقبة أمره خسراً، لأنّ أكبر الخسران إنّما يكون في اتّباع الشيطان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[3]، فالآيات، كما يتبدّى لنا من ظاهرها، توصّف للإنسان حقيقة ما هو عليه الشيطان من أهداف ومساعي للحيلولة دون أن يكون للإنسان ما يفوز به من رحمة الله تعالى، سواء في العلم أم في العمل، ذلك أنّ الشيطان منذ الهبوط الآدمي أقسم على

(١) سورة الحج، الآية: ٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٨.
(٣) سورة النساء، الآيات: ١١٧ ـ ١٢٠.

إضلال العباد واحتناكهم ليكونوا جنوداً له[1]، وقد جاء في كثير من الروايات أن للشيطان

(١) لم تختلف الروايات عن الأئمة في تفسير القسم الشيطاني بأن يُغيّر خلق الله تعالى، بل هي متّفقة على أنّ المقصود هو تغيير أمر الله تعالى، أو دين الله تعالى، وقد جاء في البرهان عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾، قال أمر الله بما أمر به، وعن جابر، عن أبي جعفر، أنّه أمر الله بما أمر به، وعنه أيضاً عليه السلام، قال: دين الله، وقال الطبرسي في قوله تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾، أي أمر الله.
را: هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، م.س، ج١، ص٤١٦.
وإذا كان لنا من كلمة في ما أجمعت عليه الروايات، فإنّنا نرى أن دين الله تعالى هو المقصود بالقسم الشيطاني، لأنّ هدى الله تعالى كامن في هذا الدين، لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، وفي آية أخرى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وبما أنّ الشيطان لا يريد للإنسان أن يهتدي إلى أمر الله تعالى، فإنّه يهتف بالإنسان أن يكون رهن أمره وطاعته لصرفه عمّا تكون له به السعادة والأمن في الدنيا والآخرة، وهو أمر الله تعالى الذي به تكون سعادة الإنسان وفوزه.
وقد رأينا في بحوثنا في هذا الكتاب، أنّ الشيطان في ما أقْسَمَ به وعليه يعد الإنسان ويمنّيه ويدفع به إلى أن يكون على عزّة واستكبار وكفر وطغيان في كل شأن من شؤون الحياة، وقبل ذلك في نفس الإنسان، لأنّ النفس هي موطن الكبر والاستعلاء، فإذا استحكم إبليس بها كان له ما أراد، باعتبار أن البداية في الامتحان والبلاء كانت مما جرى بين آدم وإبليس، كما قال الإمام علي عليه السلام: «إنّ الله تعالى استأدى الملائكة وديعته لديهم، وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له، والخنوع لتكرمته، فقال عزّ وجلّ: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وقبيله، اعترتهُمُ الحميّة، وغلبت عليهم الشقوة وتعزّزوا بخلقة النار، واستوهنوا خلقة الصلصال، فأعطاه الله تعالى النظرة استحقاقاً لسخطه واستتماماً للبليّة وإنجازاً للعدّة، فقال الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾. إذن، هذه هي خطى إبليس ودوره في اعتراض الإنسان في علمه وعمله ليحول بينه وبين أمر ربّه بما أمر به من طاعة ونهى عنه من معصية، وقول الإمام عليه السلام: «إنّ جماعة إبليس تعزّزوا بخلقة النار، وغلبت عليهم الشقة، مفيد لسر ما هو عليه الشيطان من دعوة إلى النار، لأنّ التعزّز بخلقة النار هو في الحقيقة دعوة إليها، ومن تجلّيات هذه الدعوة ما يُمنّي به الشيطان أولياءه فيسمعون له ويهتفون بدعوته إلى تغيير خلق الله تعالى، كما هو حال الإنسان في كل زمان، وخاصة في عصرنا الحديث، حيث نرى كيف أنّ الإنسان تحوّل في ظلّ الحضارة الحديثة التي جسّد فيها الإنسان كامل المعنى الشيطاني بما أقدم عليه من تغيير لدين الله تعالى، سواء على مستوى الفطرة، أم على مستوى الشريعة والأحكام والتعاليم والأنظمة، فلم يبقَ شيء إلاّ وطالته يد التغيير الشيطاني، وخاصة على المستوى النفسي والأخلاقي، فضلاً عن العلمي، حيث تحول العلم إلى أداة لتدمير الإنسان بدل من إحيائه، وأصبحت الحضارة عبئاً على الإنسان بدلاً من أن تكون خادمة له، بل حوّلته عن كونه إنساناً ليكون آلة، وشوّهته في نفسه قبل واقعه، وهذا هو جوهر الأمر الإلهي بلسان الروايات. ذلك أن سلامة النفس وحياة الفطرة هي التي تمنع الشيطان من أن يكون له دور أو تأثير في حياة الإنسان وواقعه، وهذا ما ألمح إليه الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه من أن الأمر هو الفطرة، وقد أصاب العلاّمة الشيرازي في تفسيره لهذا الأمر، حيث قال: «إنّ الضرر والتغيير إذا طال النفس والفطرة والتوحيد، فإنّه لا يمكن التعويض عنه، باعتبار أن القسم الشيطاني ليس مجرّد قسم ظاهري، وإنّما قسم هادف إلى إلحاق الأذى بالإنسان وبأساس سعادته الذي هو التوحيد وحياة الفطرة، يقول الشيرازي: «إن الشيطان يعكس له الحقائق، ويستبدلها بمجموعة من الأوهام والوساوس التي تؤدّي إلى تغيير طبيعة الإنسان، وحينما تتغيّر طبيعة الإنسان يتحوّل عن سعادته ليكون أسير شهواته، وقد أكّدت الآية المباركة مبدأ كلياً، وهو إنّ أي إنسان يعبد الشيطان ويتّخذ منه وليّاً لنفسه، فقد ارتكب إثماً وذنباً واضحاً، إذ تقول الآية: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾. وقد بيّنا سابقاً معنى أن يتّخذ الشيطان من العباد نصيباً مفروضاً، ويكفي أن نذكر كلام الإمام عليه السلام في توصيف حالة من يعبد الشيطان، يقول الإمام عليه السلام: «اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرخ في صدورهم، ودبّ ودرج في جحورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم...» وهل لهذا من معنى غير أن يكون الشيطان، هو هذا الإنسان الذي تحوّل في ذات نفسه ليكون في علمه وعمله تعبيراً عن هذا الشيطان الذي يجسّده الإنسان نفسه في كثير من أعماله ومعاصيه، وأكثر ما يتجلّى هذا فيما آل إليه الإنسان في تحوّلات إنسانية واجتماعية وأخلاقية أخرجته عن كونه إنساناً ليكون شيطاناً يتعزّز بالنار، ويدعو إلى العار، وتكون النتيجة العار والنار معاً في جهنّم كما قال الله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.
را: الشيرازي، مكارم، تفسير الأمثل، م. س، ج٣، ص٣١٢ ـ ٣١٣.

القسم الأكبر من الناس لما يرون فيه من تجسيد للشهوات والمعاصي، وغير ذلك مما ينسجم مع أمراض قلوبهم وهوى نفوسهم، وقد ذكر الكاشاني عن النبي الأكرم ﷺ، كما في المجمع، في تفسير الصافي، أن في هذه الآية ما يشير إلى أنّ تسعة وتسعون في النار وواحد في الجنّة، وفي رواية أخرى من كل ألف واحد لله تعالى وسائرهم للنار وإبليس»[1]. وبغضّ النظر عمّا تفيده الروايات، فإنّ لنا في سياق الآيات غنيّ عن أيّ بيان طالما أن المعصوم عليه السلام، سواء النبي الأكرم ﷺ أم الإمام عليه السلام قد بيّن أنّ الشيطان هو العدوّ، وقد سبق له أن أقسم لآدم وحواء، ودلاّهما بغرور، ولكن الله تعالى مَنَّ على آدم وبنيه بما يمكنهم من اتباع الهدى الإلهي، حيث قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾[2]، وهنا يبدو لنا سرّ الموقف، وعظيم الهداية في أن يتحوّل الإنسان من خلال مواجهته للشيطان إلى وليّ لله تعالى فيما يختاره لنفسه من هدى، وفيما يؤدّيه من أعمال صالحات من شأنها أن تدفع بالشيطان إلى اليأس عمّا في أيدي عباد الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[3].

ذلك هو معنى التوبة، وأن نتبع الهدى الإلهي ليكون للإنسان الفوز، وإلاّ فإنّ البديل هو الخسران المبين. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الذي جاء التعبير فيها مطلقاً، إذ تمّ تأكيد الفعل فيها من خلال المجيء بالمصدر، وهذا يفيد في علم اللغة والبيان، أن الخسران فيما لو تحقّق باتباع الشيطان، يكون مطلقاً ومن جميع جهاته وحيثياته، فلا يكون منه منجى، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وقد يحق لنا إبداء الأسف فيما عرض له كثير من الفقهاء وعلماء التفسير حول الآية، مقتصرين فيها على

(١) الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج٢، ص٧٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الحجر، الآيات: ٣٩ ـ ٤٢.

سبب النزول وما كان يقوم به المشركون من عبادة الأصنام، وتغيير لخلق الله تعالى فيما كانوا يأتون به من أعمال باطلة، وشقّ لآذان الأنعام، رغم أنّ الآية تفيد الإخبار بأنّ الشيطان أقسم بأن يصرف العباد عن عبادة الله تعالى ليكونوا مطيعين له فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، كما أفاد الطبري[1]، باعتبار أنّ كل من أطاع الشيطان فهو من نصيبه، وهذا ما عبّر عنه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[2].

إنّ تأويل الآية فيما تعنيه من عموم ثابت يتجاوز تنزيل القرآن، أو ما عبّر عنه في القرآن الخاص في سبب النزول، ويشير إلى أبعاد أخرى تتجاوز شقّ الآذان، وإخصاء البهائم، وحلق اللحى، ليكون لها مدلولات أخرى على مستوى الدين والرؤية والحضارة الإنسانية، لأنّ خلق الله تعالى هو كل ما خلقه الله تعالى وجعله للإنسان، سواء في التكوين، أم في التشريع، على اعتبار أنّ ما نعيشه اليوم من تحوّلات يكشف بما لا مجال للشكّ فيه أن الإنسان يتغيّر في دينه ودنياه، وفي ذات نفسه، قبل اجتماعه وسياسته وحضارته، وفي كل شؤون حياته الخاصة والعامة وهذا ما للشيطان دور كبير فيه، وكل مَن اتخذ من الشيطان وليّاً، فقد اختار أن يكون من جملة من يعمل على تفسير خلق الله تعالى على نحو يظهر فيه عالم الإنسان بمظهر الشيطان، بدل أن يظهر بمظهر الرحمن كما أراد الله تعالى له. ولا شكّ في أنّ ما يعضد رأينا هذا ما جاءت به آيات قرآنية كثيرة عمّا توعّد به الشيطان بني آدم أن يجلب عليهم بخيله ورجله وأن يشاركهم في الأموال والأولاد، وأن يهديهم إلى عذاب السعير بما يطيعونه فيه من شهوات وملذّات ومعاصي تؤدّي بهم إلى جهنّم، وهذا ما عبّر عنه القرآن بالخسران المبين الذي لا خسران بعده أبداً. وعوداً على بدء، وتأسيساً على مباحث الفوز، نرى أنّ مرتكز البحث في الخسران المبين هو هذه الآية التي يُمكن التدبّر فيها على النحو الذي يساعد الإنسان على استكشاف ملامح التغيير الذي توعّد به الشيطان

(١) الطبري، ابن جرير، (ت ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، ١٤١٥هـ، بيروت، ج٥، ص٣٨٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٨.

من خلال القرآن[1] لأنّ ما كان مألوفاً ومعهوداً عند المشركين في زمن نزول الآية هو

(١) نلاحظ أن القرآن الكريم قد اشتمل على كثير من الآيات التي تكشف عن أهداف المسعى الشيطاني في حياة الإنسان منذ الهبوط الآدمي إلى يوم الوقت المعلوم، اليوم الذي أعطاه الله تعالى للشيطان، كما قال الإمام علي عليه السلام: «فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسَّخطة، واستتماماً للبليّة، وإنجازاً للعدّة، فقال: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾، ثم أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه، وآمن فيها محلَّته، وحذّره إبليس عداوته، فاغترَّه عدُوُّه نفاسةً عليه بدار المقام، ومرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكّه، والعزيمة بوهنه، ثم بسط الله سبحانه له في توبته، ولقّاه كلمة رحمته ووعده المرَدّ إلى جنّته، فأهبطه إلى دار البليّة، وتناسل الذريّة... وهكذا، فإنّ المسعى الشيطاني كان ولا يزال هادفاً إلى احتناك الذريّة، وقد أبى أكثر الناس إلاّ أن يكونوا أولياء له يقومون بأمره، ويعبّرون عن مشروعه الطغياني في الأرض لما ذهبنا إليه من أن الشيطان ليس وهماً، وإنّما هو حقيقة مجسّدة بجنود إبليس وقبيله، على نحو ما بيّناه في بحوثنا السابقة بأنّ الدنيا استقرّت على هذا الصراع بين بني آدم والشيطان منذ أن جعل الإنسان خليفة وتساءل الملائكة بشأنه. ولهذا فإنّ الروايات عن الأئمة المعصومين عليهم السلام قد لحظت هذا المعنى، وفسّرت الآيات بما يُفيد أن الشيطان نافذ في الصدور خفياً، ونافث في الأذان نجيّاً، فأضلّ وأردى، ووعد فمنّى، وزيّن بشأن الجرائم، وهوّن موبقات العظائم، حتى إذا استدرج قرينتُه، واستغلق رهينته، انكر ما زين، واستعظم ما هوّن، وحذّر ما أمن». إنّنا في ضوء ما تقدّم يمكن لنا أن نفهم بعض ما جاء في الروايات أن الشيطان له من الناس النسبة العظمى، وأن من كل ألف واحد لله تعالى، وسائر الناس لإبليس، وهذا المضمون من الروايات هادف إلى تبيان مدى نفوذ إبليس، وليس إلى تعداد حصري للناس، ويمكن لمتأمّل بصير أن يستكشف هذا المعنى القرآني في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ: ٢٠ ـ ٢١]. هناك آيات كثيرة تعرض لحالة الناس مع إبليس وجنوده وما يكون للشيطان من أثر وفعل في أقوالهم وأفعالهم، ويكفي في هذا السياق أن نتفهّم معنى الروايات في ضوء ما جاء به القرآن حول حقيقة الشيطان ودوره وشدّة نفوذه فيمن جعلوا له سبيلاً عليهم، ولو أنّهم اتقوا وتذكّروا لما مسّهم طائف من الشيطان، ولكنهم نسوا فأخذ منهم مأخذه، وبلغ منهم مأمله، وكان له ما أراد، وقد بيّنت الروايات وجهة هذا الصراع في الحياة الدنيا إلى يوم الوقت المعلوم، حيث جاء عن النبي صلى الله عليه وآله كما في البرهان أنه لما استقرّ آدم عليه السلام على الأرض، «قال آدم عليه السلام، ربِّ هذا الذي جعلت بيني وبينه العداوة لم أقوَ عليه وأنا في الجنّة، وإن لم تعنّي عليه لم أقوَ عليه، فقال الله تعالى: «السيئة بالسيئة، والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعماية، قال ربِّ: زدني، قال لا يولد لك ولد إلاّ جعلت معه ملكين يحفظانه، قال ربِّ زدني، قال التوبة معروضة في الجسد ما دام فيه الروح، قال ربِّ زدني. قال: اغفر الذنوب ولا أبالي. قال حسبي، فقال إبليس: هذا الذي كرمته عليَّ وفضّلته وإن لم تفضّل عليّ لم أقوَ عليه، قال لا يولد له ولد إلاّ ولك ولدان. قال ربِّ زدني. قال: تجري منه مجرى الدم في العروق، قال زدني. قال: تتخذ أنت وذريّتك في صدورهم مساكن، قال ربِّ زدني. قال: تعدهم وتمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا».

را: البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، م. س، ج١، ص٤١٦.

إذن، هي الدنيا بكل وجوه الصراع فيها، بين الحق والباطل، وبين آدم وإبليس ولكلّ منهما جنود، وقد تجلّت رحمة الله تعالى في أنّه فتح باب التوبة لعباده قاهراً لإبليس، فإذا ما اختار الإنسان أن يكون جنداً لإبليس ولساناً له، فما يكون على الإنسان المؤمن إلاّ أن يتذكّر أنّه في امتحان، وأنّ قيمته وجوهر إنسانيته يكمن في هذا الامتحان، وأن ينتصر على الشيطان في صراعه، وأن يحقّ الحقّ في وجوده، بحيث لا يكون لإبليس مجري في عروقه، طالما أن إبليس قد أعطى النظرة استحقاقاً للسّخطة، واستحقاقاً للبليّة، وإنجازاً للعدّة، والله تعالى غالب على أمره، وقد جعل الله تعالى لكل شيء قدراً، ﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ ﴾، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣].

هذا الذي ذكره علماء التفسير، ولكن الأئمة المعصومين عليهم السلام أوضحوا أنه لا يمكن تقييد الآية بما كان عليه الإنسان في زمن نزول الآية، وإنّما لا بدّ من تدبّرها وفهمها في سياق التحولات الإنسانية، لما رآه علماء الأصول من أن المورد لا يخصص الوارد، وأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولا بدّ أن تجري الآية في حياة البشر ليكون لها مصاديق كثيرة في عالم تحولات الإنسان، ولا شكّ في أن أبرز مصاديق هذه الآية فيما نحن عليه اليوم من تغيير في خلق الله تعالى، سواء في السنن الدائرة في المجتمع، أم في الأحكام والتعاليم الإسلامية، أم في مجال التكوين لجهة ما آل إليه التطوّر الصناعي والعلمي من مفاسد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس، فإنّ ذلك كلّه مما يمكن حمل الآية عليه من حيث ما تنطوي عليه من عموم ثابت لا بدّ من تأويله في سياق وحدة النصّ مع التجربة الإنسانية، وهذا ما ذهبنا إليه في بحوث سابقة فيما أكّدنا عليه من ضرورة توحيد النصّ مع التجربة، لأنّ هذا هو مقتضى المنهج والاتجاه الموضوعي في تفسير القرآن، إضافة إلى كون القرآن لم ينزل ليكون نصّاً جامداً أو معبّراً عن حالة إنسانية خاصة في الزمان والمكان، وإنّما هو نصّ مطلق ومقدّس يجري في حياة البشر مجرى الشمس والقمر كما بيّن الأئمة في كثير من الروايات أشار إلى بعضها صاحب البرهان في تفسير القرآن[1].

غاية القول: إنّ الخسران المبين الذي تلحظه الآية ليس مجرّد خسران في أحوال الإنسان الخاصة، وإنّما هو خسران على مستوى الدين والدنيا، والروح والمادة، بل على مستوى السماء والأرض، وعلى مستوى الدنيا والآخرة. ولهذا، جاء بالمصدر ليفيد هذا المعنى بحيث ينتبه الإنسان إلى ضرورة أن لا يستجيب لنداء الشيطان لأنه ملعون وهادف إلى تبديل الرؤية الإنسانية وتغيير خلق الله الذي لا تبديل له كما قال الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[2].

وتأسيساً على ذلك، فإنّ الخسران المبين الذي يمكن أن يلحق بالإنسان بسبب

(١) البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآني، م. س، ج٣، ص٢٤٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

إطاعته للشيطان، سبيله هو ما يختاره الإنسان بإرادته، فلا يُقال لماذا خلق الشيطان؟ ولماذا أُبقي إلى الوقت المعلوم؟ ولماذا سلّطه الله على بني آدم؟ وغير ذلك من الأسئلة التي أجاب عليها العلماء بما يكفي للردّ عليها كما بيّن العلاّمة الشيرازي في كتابه سؤال وجواب[1].

إنّ السبيل الوحيد لتلافي هذا الخسران المبين أن يتحقّق الإنسان بأمر الله تعالى، بحيث يتخذ من الشيطان عدوّاً له بدل أن يكون وليّاً له، وأن يستجيب لنداء الحياة الذي جاء به القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾[2]، إذ من خلال هذه الاستجابة يحول الإنسان بينه وبين أن يكون للشيطان سبيل عليه، هذا فضلاً عمّا تحقّقه هذه الاستجابة من موانع تحفظ للانسان فطرته التي فطر عليها، وتؤهّله لأن يبقى خلق الله تعالى بعيداً عن هوى الشيطان وإغوائه ليستمرّ الإنسان على هدى الله تعالى، قائماً بأمر الخلافة، ومحققاً لروح الهداية فيما خصّه الله تعالى به من عقل وروح وإرادة واختيار، وغير ذلك مما حصّن به الإنسان ليقوم بمهام الخلافة في الأرض، ويمنع من تزيين وإغواء الشيطان، بحيث يحفظ لنفسه مكانها وفوزها في الدنيا والآخرة. أمّا إذا ضيّع هذا الهدى، واتبع الشيطان، وتردّى أمره في الغواية، فإنّ ذلك من شأنه أن يؤدّي به إلى الخسران المبين، الذي مآله أولاً وآخيراً إلى تبديل المكان في الجنّة إلى مكان في النار، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[3]، وإنّ أدنى تأمّل في ضمّ هذه الآية إلى آية النساء وما جاء بها من قَسَم شيطاني، لا بدّ أن يظهر أن هذه الآيات تفسّر بعضها بعضاً لكونها تنطوي على الخسران المبين المؤكّد بأداة التنبيه والحصر، هذا فضلاً عمّا تظهره من وحدة في

(١) الشيرازي، مكارم، سؤال وجواب، م. س، ص٣٤٧.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الزمر، الآية: ١٥.

الخطاب مع المشركين وما يكون لهم من خسران مبين في الدنيا والآخرة.

وعموماً يمكن القول: إنّ هذا المبحث وإن لم نتمكّن فيه من استيفاء كامل المعاني التي نحتاج إليها في فهم وتفسير الخسران المبين، إلاّ أنّنا بعون الله استطعنا التدبّر في جملة من الآيات التي توضّح هذا المفهوم، وكما قلنا سابقاً: إنّ الحديث عن الفوز العظيم، هو بحدّ ذاته حديث عن الخسران المبين، لأنّ عدم الفوز بذاته هو خسران، ولكن درجات الفوز والخسران هي التي احتاجت منّا المزيد من البحث والتدبّر. وبحق نقول: إنّ كثيراً من المباحث القرآنية يحتاج إلى إعادة نظر من قبل الباحثين، لأنّ معظم ما تأمّلنا فيه من بحوث لم يلحظ النصّ مع التجربة، بل اكتفى بعرض الآية من خلال سبب النزول، وفي سياقها الخاص، ولا ندّعي أنّنا قد وفينا البحث حقه، بل ندّعي أنّ الكلام في التجربة وفيما هو عام وثابت لا بدّ أن يلحظ معاً في البحث القرآني، ذلك أنّ كل آية مثلما هي تحتاج إلى التعرّف على سبب نزولها، فهي كذلك تحتاج إلى أن تظهّر في ضوء التجربة الإنسانية والتحوّلات الزمانية للإنسان باعتبار أنّ النصّ القرآني هو نصّ مطلق ومقدّس ويحتاج إلى مزيد من التدبّر، وخاصة في مباحث الفوز والخسران نظراً لما احتوى عليه القرآن من آيات بخصوصهما، وهذا ما دعانا إلى أن يكون لنا موقف أو رؤية في ما عرضنا له من مباحث في طيّات هذا المبحث، وقد يكون ممكناً الفصل بين الفوز والخسران طالما أن القرآن قد عرض لهما في سياقين مختلفين، جاعلاً إيّاهما على طرفي نفيض باستثناء سورة العصر التي شملتها في سياق واحد[1]. فالآيات إمّا أنّها تشير إلى الفوز العظيم وما يكون به

(١) سنتحدّث في خاتمة الفصل عن الفوز والخسران من خلال سورة العصر التي اشتملت عليهما في سياق واحد، باعتبار أنّ هذه السورة قد لحظت المقاصد الكبرى، ولخصت الموقف على النحو الذي يمكن الإنسان من استكشاف ملامح الرؤية القرآنية العامة حول ما ينبغي الإيمان به والعمل له لتجنّب الخسران في الدنيا والآخرة، وهذا ما قضت به حقيقة الاستثناء في السورة، رغم أنّ آيات القرآن كلها قد قابلت بينهما في سياقاتها المختلفة، لتظهّر أنّ ما يكون به الفوز العظيم يستدعي نفي ما عداه باعتباره سبيلاً لأهل الإيمان مقابل سبيل أهل الكفر والنفاق والذين يعبدون الله على حرف... وهذا ما سنعرض له بالتفصيل في خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى...

هذا الفوز، وإمّا أن تلحظ الخسران المبين وما يكون به هذا الخسران، ومثلما أنّ الفوز إنّما يكون بالطاعة لله ورسوله فإنّ الخسران إنّما يكون بالطاعة للشيطان والاستجابة له في تغيير خلق الله تعالى من خلال الاستجابة لندائه في معصية الله تعالى، وفي تحويل وتبديل رؤية الإنسانية من كونها رؤية إلهية هادفة وكادحة في سبيل ربّها، لتكون رؤية شيطانية هادفة إلى تغيير خلق الله تعالى، الذي يتجاوز مجرّد التغيير في الأشياء ليكون تغييراً في الأرواح والنفوس، فضلاً عن التغيير في مجالات وميادين الحياة في السياسة والاقتصاد والاجتماع وفي الثقافة والحضارة، ولعلّ من أهمّ ما يدلّ على مانذهب إليه هو ما تحوّل إليه العالم اليوم في ضوء ما تعاهده الشيطان، من خسران على مستوى الحياة الإنسانية إذ لم يبق مجال من المجالات إلاّ ومدّ الشيطان يده إليه ليكون مؤثراً فيه، إن لم يكن صانعاً له، كما ظهر لنا في مقولات العولمة، والحضارة، وثورة العلم والتطوّر، وغير ذلك مما أسفرت عنه حضارة المادة من تحولات أفقدت الإنسان روحه ومعناه، وجعلت منه آلة تحرّكه كيفما تشاء بدل أن تكون هذه الآلة محكومة للإنسان. وهكذا، فإنّ حضارة اليوم بما آلت إليه من تطوّر مادي، هي خير تعبير عن مقولة الشيطان وقَسَمه في أنّ يغيّر خلق الله تعالى، من الخير إلى الشرّ، ومن الحقّ إلى الباطل، ومن الحسنة إلى السيئة، فكان له ما أراد بحيث يبدو عالمنا اليوم كأنّ لا نبي جاء، ولا وحي نزل، بما آل إليه أمر الإنسان من تحوّل باتجاه المادة على حساب الروح والقيم والمبادئ والأهداف والفضيلة، ما أدّى بالإنسان إلى أن يكون على خسران مبين في الدنيا والآخرة، ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

خاتمة البحث

الفوز والخسر في سورة العصر

قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[1].

فالآية، كما نرى، ترسم ملامح عامة، وتبيّن مقاصد كبرى عرض لها القرآن الكريم في آياته المباركة، وقد توقف المفسرون مليّاً عندها، ذاهبين مذاهب شتّى في تفسيرها، بين قائل بأن القسم يعني صلاة العصر لفضلها كما رأى الزمخشري[2]، وبين قائل: إنّه قَسَم بالدهر الذي تقع فيه الحوادث والأفعال، كما رأى العلامة مغنيّة[3]، وهناك من المفسرين مَن رأى أنّه قَسَم بعصر طلوع الإسلام كما ذهب إليه العلامة الطباطبائي[4]، أو بعصر النبوّة، كما أفاد الفيض الكاشاني[5]، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا حصر لها عند المفسّرين ولا نرى من المناسب أن نعرض لجميع الآراء طالما أن الهدف من هذه الخاتمة هو تبيان حقيقة ما ترسمه السورة من معالم، وترمي إليه من أهداف وغايات تخدم الإنسان في مسيرته في الدنيا والآخرة، باعتبار أنّ السورة المباركة تعرض للمفهومين، مفهوم الخسر بما هو نقص وهلاك وضلال، ومفهوم الفوز بما هو طاعة لله ورسوله في الدنيا ونجاة في الآخرة من خلال الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر.

---

(١) سورة العصر، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) الزمخشري، تفسير الكشاف، م. س، ج٤، ص٧٨٧.

(٣) مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، م. س، ج٧، ص٦٠٧.

(٤) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج٢، ص٤١٠.

(٥) الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج٥، ص٣٧٢.

ثم إنّ السورة المباركة، كما بيّن علماء التفسير ليست بصدد إثارة التكهّنات، أو تحيير العلماء بما أقسمت به من عصر، ذلك أن القَسَم الذي جاء بالقرآن لا يمكن فصله عن السياق العام للسور التي يأتي بها، تماماً كما أوضح العلامة الطباطبائي في تفسير سورة المرسلات[١]، والزمخشري في سورة التين[٢]، وغيرهم أيضاً[٣]، من أن القَسَم له معناه في سياق السورة، فإذا أمعنّا النظر في السياق في سورة المرسلات لعرفنا من الآيات الأولى أنها تعني الرياح المتعاقبة الهبوب، لكن الآيات الأخرى ونعني بها الملقيات ذكراً، عذراً أو نذراً، صريحة في الملائكة النازلين على الرسل، وكما يقول العلامة الطباطبائي: «**إن حمل جميع الصفات الخمس في مطلع سورة المرسلات على إرادة الرياح.... يحتاج إلى تكلّف شديد في توجيه الصفات الثلاثة الباقية، وخاصة الصفة الأخيرة... فالوجه هو الغضّ عن هذه الأقاويل وحمل المذكورات على إرادة الملائكة..**»[٤]، وإلى مثل هذا ذهب الزمخشري في تفسيره سورة التين، فرأى أنّ سياق سورة التين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين، لا يسمح بأن يفسّر التين والزيتون بخلاف ما يلحظه السياق، باعتبار أنّ الطور هو المكان الذي نودي منه موسى عليه السلام، والبلد الأمين هو مكّة. فينبغي أن نقول بأنّ التين والزيتون يمكن تفسيرهما أيضاً بلحاظ المكان، يقول الزمخشري: «**ومعنى القَسَم بهذه الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكن الأنبياء والصالحين، إذ إنّ منبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم عليه السلام، ومولد عيسى عليه السلام ومنشؤه، والطور المكان الذي نودي منه موسى عليه السلام، ومكّة البيت الذي هو هدىً للعالمين ومولد رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم

(١) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج٢٠، ص١٥٩.
(٢) الزمخشري، تفسير الكشاف، م. س، ج٤، ص٧٢٩.
(٣) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، م. س، ج١٠، ص٤٠٥.
(٤) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج٢٠، ص١٥٩ ـ ١٦٠.

ومبعثه[1]. ومن هنا، لا يسعنا إلاّ أن نستغرب ما ذهب إليه الزمخشري في قَسَم والعصر دون أن يلحظ السياق الذي جاء فيه هذا القَسَم، وهذا الاستغراب يدفع بنا إلى التأمّل جيداً في سياق السورة المباركة لنرى أنّه قَسَم لا بدّ أنّه يخدم سياق الآيات في السورة، طالما أجمع العلماء على أنها تلخّص جميع المعارف القرآنية وتجمع شتات المقاصد القرآنية في أوجز بيان على حدّ تعبير العلامة الطباطبائي[2].

وهنا نسأل: هل سياق الآيات في سورة العصر يُفيد القَسَم بصلاة العصر، أو بآخر النهار، كما أقسَمَ بأوله، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾؟ وهل يمكن القول بأنّه قَسَم بالزمان والدهر لما يتضمّنه هذا الدهر من أعمال وأفعال محمودة يقوم بها الإنسان؟

لقد ذهب العلامة مغنية إلى هذا الرأي، بقوله: «**فأقسَمَ الله بالدهر لينبّه على أن الزمان لا يذمّ، وإنّما هو ظرف للحسنات والسيئات ولشؤون الله الجليلة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال، وإنّما يذمّ ما فيه من أفعال ممقوتة**»[3].

إنّ مناقشة أقوال العلماء وطرح الأسئلة حول ما عرضوا لها ليس هادفاً إلى توهين الآراء بقدر ما هو محاولة جادّة من قبلنا لاستكشاف ملامح هذه السورة من خلال الإشارة إلى القَسَم بلحاظ السياق العام للسورة، وكما هو الظاهر منها، هو قَسَمَ بعصر القرآن كما أفاد العلامة الطباطبائي، ولكننا نضيف إليه ما لم يتنبّه له العلاّمة، فيما عرض له من أقوال للمفسرين، وكأنه لم يرجّح هذا الأمر على نحو التأكيد له، بل اكتفى بمجرّد استنساب الرأي، وهذا ما لا نرى له وجهاً، لأنّ السورة، كما أفاد العلاّمة نفسه تجمع شتات مقاصد القرآن، فكيف يقسم بالعصر،

(١) الزمخشري، الكشاف، م. س، ج٤، ص٧٨٧.
(٢) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج٢٠، ص٤١٠.
(٣) مغنية، الكاشف، م. س، ج٧، ص٦٠٧.

وقد ترافق هذا القَسَم في كثير من السور مع القَسَم بالقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[2]، فما المانع أن نجزم بأنَّ القَسَم هو قَسَم بعصر القرآن بحيث لا تترك مجالاً للقيل والقال في تفسير هذا القَسَم؟ وهل ثمّة مانع أن نجزم بذلك وقد بيّنت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المستثنى في الآية هم الصفوة من خلق الله تعالى[3]، وأنّ عصر ظهور الإمام المهدي عليه السلام مشمول في هذا القَسَم بالعصر لما فيه من تمام ظهور الحق على الباطل[4]، وأنّ التواصي بالحق والتواصي بالصبر، هو التواصي بالولاية والصبر عليها[5]، إلى غير ذلك ممّا اشتملت عليه الروايات؟ ونحن بمعزل عمّا نراه من جري وتطبيق للآيات، نرى أنّ القَسَم وجوابه، المستثنى منه، لا يمكن أن يأتي، أو يفيد بأقل ما يعنيه المستثنى في السورة، فإذا كان المستثنى هم الصفوة وأهل الكمال في الخَلق والخُلُق، فلا يعقل أن لا يكون القَسَم تعبيراً عن هذا الكمال، وعن هذه الصفوة باعتبارها الترجمة الحقيقية لكمال القرآن؟ وهل القَسَم بالعصر بما هو قَسَم بالصلاة أو الدهر، أو بآخر النهار يتناسب مع سياق السورة وما تفيده من استجماع المعارف والحقائق القرآنية؟ أليس ممكناً القول بأنّ القَسَم هو قَسَم

(١) سورة ص، آية: ١.

(٢) سورة يس، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٣) جاء في البرهان، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال: استثنى الله سبحانه أهل صفوته من خلقه حيث قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بولاية أمير المؤمنين عليه السلام، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي أدّوا الفرائض، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالولاية ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ أي وصّوا ذراريهم ومن خلق بعدهم بها والصبر عليها.
انظر: البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، م. س، ج٤، ص٥٠٤.

(٤) سُئِلَ الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، قال: العصر عصر خروج القائم عليه السلام، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، يعني أعداءنا، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾، أي بالإمامة، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾، يعني في العسرة.
انظر: البرهان في تفسير القرآن، م. س، ج٤، ص٥٠٤.

(٥) البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، م. س، ج٤، ص٥٠٤.

يتلاءم تماماً مع القرآن وعصره بما هو عصر النبوّة والإسلام والكمال المتحقق للصفوة من خلق الله تعالى؟

ولا شكّ في أنّ هذا القَسَم بالعصر هو قَسَم حقيقي بالقرآن دون استنساب لذلك، ولعلّ ما ذهب إليه الطوسي الفيلسوف نصير الدين في نقد المحصّل يكشف عن هذه الحقيقة بما هي تعبير عن الكمال بداية ونهاية يقول: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، أي في الاشتغال بالأمور الطبيعية والاستغراق بالمشتهيات النفسانية، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي الكاملين في القوة النظرية، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي الكاملين في العلوم العملية، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾، أي الذين يكملون عقول الخلائق بالمعارف النظرية، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾، أي الذين يكملون الخلائق بتلقي المقدمات الخلقية...»[1].

إذن الكمال المستثنى في الآية، هو الكمال النظري والعملي للصفوة من خلق الله تعالى، ولا بدّ أن يكون القَسَم في مستوى هذا الكمال، وليس هو إلاّ عصر القرآن والنبوّة والإمامة، وإن شئتَ فقل: هو عصر الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حكم وحياة الذي يتجلّى غداً بعصر الظهور الذي يكون فيه تمام التجلّي للحق على الباطل.

إنّ ما نذهب إليه من رأي لا نرى أنّه قابل للمعارضة، أو الردّ بادّعاء الجري أو التطبيق، أو التأويل للآيات بخلاف ما يظهره السياق في السورة المباركة، لأنّ القرآن هو الكتاب الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكذلك الصفوة من خلق الله تعالى، فهي صفوة محققة بالكمال، وقد قرنها النبي ﷺ بالقرآن، فمن أخذ به، فقد أخذ بحظّ وافر في الدنيا والآخرة، ومَن زعم أن القرآن هو حسبنا، فليس له إلاّ أن يبيّن لنا معنى آية التطهير وسائر الأحاديث النبويّة بحق

(١) الطوسي، الخواجة، نصير الدين، (ت ٦٧٤هـ)، فيلسوف ومتكلّم ورياضي، أبو جعفر بن محمد بن الحسن، الملقّب بنصير الدين، كتاب تلخيص المحصّل، المعروف بنقد المحصل، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ص٥١٧.

أهل البيت عليهم السلام، فضلاً عمّا يفيده السياق في سورة العصر لجهة ما تتضمّنه من كمال وجمع لشتات المقاصد القرآنية التي لا تجتمع إلاّ فيمن جعله الله تعالى قرآناً عينياً، في جانب القرآن العلمي، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا أيها الناس إنّي تارك فيكم كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فتمسّكوا بهما لن تضلّوا أبداً، فإنّ اللطيف الخبير أخبرني وعهد إليّ أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض**»[1].

أمّا ما ذهب إليه أهل التفسير من مذاهب في تفسير الخسران في الآية، أو في تفسير الإنسان، هل هو جنس الإنسان؟ أو الجماعة الكافرة؟ أو غير ذلك مما لا يستحق التأمّل فيه لما ينطوي عليه من جهل بمنطوق الكلام ومفهومه، حيث رأينا بعض المفسّرين يذهب إلى القول بالناسخ والمنسوخ في الآية، كما قال ابن حزم الأندلسي[2]، أو كما قال أبو جعفر النحاس بأنّ الإنسان في الآية هو الجماعة الكافرة[3]، فكل هذا لا يعبأ به فيما لو أردنا الموضوعية في تفسير آيات الله تعالى، هذا فضلاً عمّا ذهب إليه آخرون من تنزيل الآيات على الأشخاص في زمن الرسالة، كما جاء في شواهد التنزيل، فكل هذا يمكن المناقشة فيه، لكنه يخالف ظاهر آيات سورة العصر، لأنّ الآية ليست بمورد الحديث عن شخص في زمن الرسالة بمقدار ما تنبّه إلى ضرورة التعرّف إلى مَن يكون به وفيه كمال الدين والرسالة في مطلق

(١) انظر: كتاب سُليم بن قيس، الهلالي الكوفي، تحقيق محمد الزنجاني (الوفاة ق ١)، ط، ١٤٢٢هـ، إيران، ص٢٠١. وقا: مع داود بن سليمان الغازي، مسند الرضا، تحقيق محمد الجلالي (ت ٢٠٣هـ، ١٤١٨هـ، ط١، مكتب الإعلام الإسلامي للنشر، ص٦٨.

(٢) من العجب العجاب أن نقرأ في كتاب الناسخ والمنسوخ لابن حزم الأندلسي، أنّ قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، منسوخ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وكأنه لا يدري أن الخبر يمتنع فيه النسخ!؟

را: ابن حزم الأندلسي، الناسخ والمنسوخ في القرآن (٤٥٦)، تحقيق عبد الغفار البذاري، ط١، ١٤١٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٦١١.

(٣) أبو جعفر النحاس، معاني القرآن، (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق العامري، جامعة أم القرى، ط٢، ١٤٠٩هـ، ج٤، ص٢٥٩.

الزمن، وإلاّ فما تكون فائدة القَسَم واستجماع المعارف والحقائق في سورة واحدة هي سورة العصر ليبيّن الله تعالى من خلالها أنّ كل إنسان خاسر إلى آخر الدهر ما لم يكن له مَن يكمله في إيمانه وعمله، كما أفاد الفيلسوف الطوسي في نقد المحصّل؟

كما يمكن التساؤل أيضاً حول ما ذهب إليه العلاّمة الطباطبائي لجهة عدم الإشارة إلى كمال الإيمان والعمل الصالح، حيث اكتفى بتفسيره بذكر الإيمان والعمل الصالح وما يستوجبانه من أمور؛ دون الإتيان على معنى الكمال في الصفوة المشار إليها في الروايات، ولعلّ إهماله لهذا الأمر ناشئ من خشيته من الخروج عن حدّ التفسير إلى التطبيق، أو إلى الجري[1]، فاكتفى بالسياق العام للسورة وما تفيده من استثناء للآفراد أو المتلبسين بالإيمان والأعمال الصالحة، رغم أنّ العلاّمة نفسه توقّف مليّاً عند ظاهر قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مبيّناً أنه التلبّس بجميع الأعمال الصالحة فلا يشمل الاستثناء للفساق بترك بعض الأعمال الصالحات من المؤمنين ولازمه أن يكون الخسر أعمّ من الخسر في جميع جهات الحياة كما في الكافر المعاند للحق المخلّد في العذاب، والخسر في بعض الجهات في حياة المؤمن الفاسق، الذي لا يخلد في النار وينقطع عنه العذاب بشفاعة ونحوها[2].

وهذا الكلام من العلاّقة يفيد أنّ الاستثناء يلحظ حقيقة التمايز في الإيمان والعمل الصالح الذي لا يكون بتمامه وكماله إلاّ لمن اصطفاه الله تعالى وجعله سابقاً

(١) نلاحظ في تفسير العلاّمة الطباطبائي وفاق منهجه في التفسير أنّه لا يأخذ كثيراً بالتطبيق، بل يركّز على السياق بلحاظ أسباب النزول والروايات القطعية في الدلالة. ولهذا نجده يقول: وطبق في ذيل الرواية الإيمان على الإيمان بولاية الإمام علي عليه السلام والتواصي بالحق على توصياتهم ذرّياتهم وأخلافهم بها، دون تعقيب منه، وهذا لا يتنافى مع منهج الطباطبائي في قبول العموم الثابت في الآيات من منطلق أنّ المورد لا يخصص الوارد.

انظر: الميزان، م. س، ج٢٠، ص٤١٢.

(٢) م. ع، ص٤١١.

بالخيرات بإذن الله، فيكون المعنى المتحصّل هو كمال القوانين النظرية والعمليّة لمن خصّه الله تعالى بهذا الاستثناء مقابل الخسر الذي نكره الله تعالى لإفادة إبهام الخسر مقابل تفصيل سبب الربح والفوز، يقول شبّر في تفسيره: «**إنّ إبهام سبب الخسر، وتفصيل سبب الربح إشعاراً بأن ما عدا المذكور يوجب الخسر، وبتناهي ستره وكرمه إذ ظهر الجميل وستر القبيح**»[1]. كما أنّه لا يعقل أيضاً أن يتوقّف العلماء عند مفاد قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، دون التدبّر فيما يفيده الاستثناء من فوز عظيم فيما لو توفّر الإنسان على شروطه من خلال تولّي الصالحين والصادقين، وهذا ما نرى أنّ العلاّمة شبّر قد لحظه في تفسيره بأنّ ما عدا الاستثناء يوجب الخسر. وبما أنّ الإيمان والعمل الصالح والحق والصبر والتواصي بهما لا يكون كيفما اتفق، فإنّه لا بدّ من تحقّق الشروط والمواصفات التي تخرج الإنسان عن كونه خاسراً ليكون على فوز مبين، وهذا لا يكون محققاً إلاّ بتولّي من جُعل قيّماً على الدين. وعِدلاً للقرآن وقد تكون فائدة تكرار التواصي الالتفات إلى أنّ في الأمر تمايزاً حقيقياً ينسجم مع القَسَم الإلهي ومع حقيقة الاستثناء بأنّ مَن يتواصون بالحق والصبر ليسوا مجرّد أشخاص يقومون بهذا الأمر، وإنّما هم أشخاص متمايزون لكونهم عطفوا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتكرّر ذكر التواصي لإفادة حقيقة هذا التمايز في الصفات والخصائص لمن استثني من الخسران الذي نكّر تعظيماً، لما أفاده الزمخشري بأن الخسر والخسران، كما الكفر والكفران[2]، وهو يفيد الخسران المبين في مقابل الفوز العظيم لمن آمن وعمل صالحاً وتواصى بالحق وتواصى بالصبر، وقد استوفينا البحث في أن الفوز العظيم

(١) شبّر، عبد الله، تفسير القرآن، م. س، ص٧٧٢.

(٢) الزمخشري، الكشاف، م. س، ج٤، ص٧٨٧. يقول: «إنّ الناس في خسران إلاّ الصالحين، لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، وتواصوا بالحق، بالأمر الثابت الذي لا يسوَّغ إنكاره من توحيد الله وطاعته واتّباع كتبه ورسله، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وتواصي بالصبر من المعاصي وعلى الطاعات، وعلى ما يبلو به عباده.

لا يكون إلاّ لمن رضي الله عنه ورضوا عنه، ولمن خصّوا برضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم. وهذا ما لحظه الطباطبائي بقوله: «**إنّ الخسر للتعظيم ويحتمل التنويع أي نوع من الخسر غير الخسارات المادية والجاهية، كما قال الله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾».

لذا، فإنّ ما يُستدل عليه من ظاهر الآيات وبحسب المنطوق والمفهوم معاً، هو أن الخسر في سورة العصر ليس مجرّد الخسر في شيء من الأشياء، وإنّما الخسران المبين الذي يقابل الفوز العظيم الذي استحقه أهله بالاستثناء في السورة المباركة. وإنّ كل ما عدا المذكور في الآية يوجب الخسر على هذا النحو الدنيوي والأخروي معاً، كما أفاد شبّر في تفسيره، ويمكن أن نضيف إلى هذا ما ذكره العلاّمة الطباطبائي في تفسيره عن اهتمام السورة المباركة بذكر التواصي والتكرار فيه، يقول: «**ثم التواصي بالحق في العمل الصالح ذكره بعد العمل الصالح من قبيل ذكر الخاص بعد العام اهتماماً بأمره، كما أنّ التواصي بالصبر في التواصي بالحق ذكره بعده من ذكر الخاص بعد العام اهتماماً بأمره، وتؤكّد تكرار ذكر التواصي حيث قال الله تعالى:** ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ **إذ لم يقل وتواصوا بالحق والصبر..**»[1].

أليس في هذا الكلام ما يدلّل بأنّ سياق الآيات في سورة العصر، وكما هو الظاهر منها مفهوماً ومنطوقاً، أن المستثنين ليسوا مجرّد أفراد متلبسون بالإيمان والعمل الصالح، بل أشخاص متميزون بالكمال، وجاء القَسَم بعصر القرآن والإسلام ليدلّل على أنّ هؤلاء الأشخاص هم على اقتران حقيقي مع هذا القَسَم، وإذا كان لا بدّ من تجاوز الخسران، بل الخسران المبين، فلا بدّ أن يكون هؤلاء القدوة والأسوة للناس في تحقيق الإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر،

(١) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج٢٠، ص٤١٢.

لأنّ الصفوة المختارة من خلق الله تعالى هي التي تجسّد الكمال الحقيقي فيما فصّلت فيه الآية تظهيراً لكمال هؤلاء على سائر الخلق من البشر، ولعلّ ما ألمح إليه العلاّمة شبّر مفيد لهذا المعنى وناطق به، بأنّ الذي يوجب الخسر هو أن لا يكون أهل الصفوة أئمة القوم فيما يأتونه من إيمان وعمل صالح، ويؤدّونه من أعمال وسلوك، ويلتزمون به من أخلاق في حياتهم وفي سلوكهم، ذلك هو معنى الخسر والفوز في سورة العصر، أن يختار الإنسان الآخرة على الدنيا، والعقيدة على المال والسلطة والجاه، وأن يكون على بيِّنة من قَسَم الله تعالى، الذي رأى فيه العلاّمة الطباطبائي حجّة على تحقق مدلوله في الواقع، إذ هو تعالى أقسم بالعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات...»، فأفاد القَسَم بهذه الحجّة أنّ مدلولها واقع لا محالة[1]. وعليه، فإنّ مقتضى الفوز والخسران، كما أشرنا، أن يكون الإنسان على بيّنة من أمره في دينه ودنياه، وفيمن يتولاّه، وإذا كانت الروايات قد أفادت أن المستثنى هم الصفوة من خلقه، فذلك إنّما أكدت عليه لتظهير المدلول الحقيقي للآية بأن الإيمان والعمل الصالح لا يكونان من الإنسان لمجرّد أن يريدهما الإنسان، وإنّما لا بدّ من هادٍ إليهما، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[2]، هذا فضلاً عمّا أفادته الروايات من حقيقة لامتداد الرسول والرسالة في حياة الإنسان حتى ظهور قائم آل محمد عليه السلام الذي به يكون تمام الدين وكمال النعمة في ضوء ما نستفيده من روايات المسلمين قاطبة، وهذا يؤكّد لنا أنه ليس في الروايات ما نحتاج إلى بذل الجهد فيه لتأويله طالما أجمع المسلمون على ما تنطوي عليه الآيات من عموم ثابت في تأويلها، كما أفاد «**معرفة**» في تمهيده، والطباطبائي في تفسيره، وكما هو الحال فيما استجمع من روايات واستظهر من دلالات في كتاب البرهان في تفسير القرآن للعلاّمة البحراني، فهؤلاء جميعاً يرون أن الآيات تجري

(١) الطباطبائي، الميزان، م. س، ج٢٠، ص١٦٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٧.

في حياة البشر مجرى الشمس والقمر، ومثلما أن الفوز المبين يكون في اتباع تعاليم الإسلام، بل في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فكذلك الخسران، والخسران المبين فإنّه يكون في تكذيب آيات الله تعالى.

وهكذا، فإنّ أي باحث لا يسعه إلاّ أن يتدبّر في سياق الآيات القرآنية ليستظهر منها حقيقة الموقف الرسالي، باعتبار أنّ القرآن يوضّح الكثير من الدلالات، ويدعو الإنسان إلى التعرّف إلى ما يرضي الله تعالى، وإلاّ استحقّ أن يكون من الخاسرين، وقد أشرنا في مباحث هذه الدراسة القرآنية أنّ أهمّ مفاتيح بناء مفهومي الخسر والفوز بالنسبة للأفراد والأمم، هو تكوين رؤية واضحة لما يحبّه الله تعالى، وما يكرهه، لأنّ الفوز المبين، والعظيم، والكبير، والرضوان، هو في ما يحبّه الله تعالى، وإنّ كل خسران مبين، هو فيما يكرهه الله تعالى، فإذا ما تعرّف الإنسان إلى هذه الحقيقة، وانطلق منها في بناء منظومته الإنسانية بكل ما تنطوي عليه الحياة من مجالات وميادين في الثقافة والحضارة، فضلاً عن الاجتماع والسياسة، إلى غير ذلك مما تحفل به حياة الإنسان من قيم ومبادئ، فإذا ما تعرّف الإنسان إلى ذلك كلّه، فإنّه يمكنه حينئذٍ أن يؤسّس لحياة الفوز والرضوان في الدنيا والآخرة، لأنّ كل شيء، كما أفاد الصنعاني في تفسير سورة العصر، هو بشرطه وشروطه، ولا يُطاع الله من حيث يُعصى، ولا يفوز الإنسان من حيث يخسر أو العكس، بل فيما جاء به النبي الأكرم ﷺ، بذلك فقط يكون الفوز العظيم، بأن تستوفي شروط هذا الفوز بحيث يعتبر بالأمم السالفة التي لم يختلف أمر الله تعالى إليها عمّا خصَّت به كل أمّة من أمر ونهي، لأنّ رضا الله واحد، وسخطه واحد، كما قال مولى الموحدين وأمير المؤمنين وسيّد الوصيين، وقائد الغرّ المحجّلين، وإمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام، في فضل القرآن والتقوى: «**فهذا أمر زاجر، وصامت ناطق، حجّة الله على خلقه آخذ عليه مثاقهم، وارتهن عليه أنفسهم، أتمّ نوره وأكمل دينه، وقبض نبيّه ﷺ وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى، فعظموا فيه سبحانه ما عظم من**

نفسه، فإنّه لم يخفَ عنكم شيئاً من دينه، ولم يترك شيئاً رضيه أم كرهه إلاّ وجعل له علماً بادياً، وآية محكمة تزجر عنه، أو تدعو إليه، فرضاه فيما بقي واحد، وسخطه فيما بقي واحد، واعلموا أنه لم يكن يرضَ بشيء سخطه على من كان قبلكم، ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم، وإنّما تسيرون في أثر بيّن، وتتكلمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم، قد كفاكم مؤونة دنياكم وحثّكم على الشكر وافترض من ألسنتكم الشكر..»[1].

إذن، الرضا والسخط هما ملاك الفوز والخسران، وحال اللاحقين، كحال السابقين، فمن أخذ بأمر الله تعالى كان له الفوز، ومن أعرض عنه خسر الخسران المبين. كيف لا، وقد قال الرسول الأكرم ﷺ: «**معاشر الناس قد حان خفوقُ مني من بين أظهركم... معاشر الناس ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً، أو يصرف عنه شرّاً، إلاّ العمل. أيها الناس: لا يدّعِ مدّعٍ ولا يتمنَّ متمنٍّ، والذي بعثني بالحق نبيّاً، لا يُنجي إلاّ عمل مع رحمة، ولو عصيت لهويت، اللهمَّ هل بلّغت**[2]**؟!**

لقد فرض سياق الكلام الاستطراد قليلاً لاستيفاء البحث حقه فيما ينبغي أن يعلمه الإنسان من رضا وسخط، وأمر ونهي، على اعتبار أنّ الروايات عن الأئمة قد لحظت القَسَم الإلهي في هذا الجانب، فرأت أنّ العصر هو عصر خروج القائم عليه السلام، وأنّ الذي هو في خسر هم أعداء الدين الذين استحقوا الخسران فيما أغضبوا الله تعالى فيه. ونحن وإن كنّا نخالف بعض المفسرين فيما ذهبوا إليه، ونناقش العلاّمة الطباطبائي في موضوع السياق لا للاعتراض عليه، إنّما نفعل ذلك بهدف إخراج موضوع البحث في تأويل الروايات عن التطبيق الذي لا يراه العلامة الطباطبائي ضرورياً وفاق منهجه في التفسير، إلاّ أنّ رأينا الحاسم في

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، الخطبة: ١٨٣.

(٢) الشيخ المفيد، الإرشاد، م. س، ص٩٦.

موضوع القَسَم لم يتوضّح بعد، وهذا ما سنوجز الكلام فيه في ضوء الروايات عن الأئمة عليهم السلام، حيث نرى أنّ القَسَم في سورة العصر يأتي في سياق الآية لا ليُفيد فريضة صلاة العصر، أو حقيقة الزمن بما هو ظرف للأعمال، بل ليؤكّد على أن عصر الإسلام والقرآن له تجلّياته الحقيقية في الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر، وهذا ما يقتضي أن يكون له مصاديق كبرى في تاريخ الإسلام لكونه الرسالة الخاتمة، وقد بيّن الأئمة عليهم السلام أن الاستثناء جاء ليرشد إلى أهل الصفوة ممن استحقوا أن يكونوا أولياء على هذا الدين وعصره، الذي استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض. وهنا يمكن لنا أن نعرض لرؤية لا نأتي بها بخلاف الظاهر من دون دليل، باعتبار أن القَسَم القرآني كما تجلّى في مطالع الكثير من السور والآيات، قَسَم لم يلحظ جزئيات الخلق والتكوين بقدر ما هو هادف إلى تبيان معنى القَسَم في ضوء الحقيقة التي يرشد إليها من خلال السياق العام، إذ إنّ القَسَم لا يختلف بين أن يكون قَسَماً في الأرض أو في السماء، في التين والزيتون، أو في العصر، أو في الليل وما سجى، أو في الشمس وضحاها. إنّه قَسَم واحد من الله تعالى بمخلوقاته، سواء في التكوين، أم في التشريع، وقد بيّن سبحانه في سورة الواقعة، أنّه قَسَم عظيم، بقوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وانطلاقاً من ذلك، نرى أنّه مثلما هو قَسَم بمواقع النجوم، فإنّ هذه النجوم ليست مختصّة بنجوم التكوين ومواقعها وحسب، بل هو إضافة إلى ذلك، قَسَم بمواقع النجوم أيضاً في عالم التدوين والتشريع، بدليل أنّه جاء في سياق الحديث عن مواصفات القرآن، وهذا ما يمكن أن نسحبه على عمومات القَسَم القرآني،

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٧٥ ـ ٨٠.

بحسب ما جاء فيه من سياق، وقد أوضح علماء التفسير هذا المعنى في تفسير الآيات، كما بيّن أعلام التفسير، الطبرسي، والطوسي، والكاشاني، والطباطبائي، وغيرهم كثير ممّن ربط بين ما يعنيه القَسَم من أخبار وصدق، وبين القرآن بما هو نجوم تنزيل من ربّ العالمين. يقول الشيخ الطوسي: «**وإنّه لقَسَم لو تعلمون عظيم، إخبار من الله تعالى بأنّ القَسَم الذي ذكره بمواقع النجوم، سواء في التكوين، أم في التشريع، لقَسَم عظيم لو تعلمون عظيم لانتفعتم بعلمه، والقَسَم جملة من الكلام يؤكّد بها الخبر بما يجعله في قَسَم الصواب دون الخطأ... وأضاف الطبرسي إلى فائدة الطوسي بأنَّ القَسَم هو فعل الحال، وهذا يدلّ على أنّ جميع ما في القرآن من الأقسَام إنّما هو حاضر الحال لا وَعْدُ الأقسام... ولذلك حملت لا على الزيادة في قوله: فلا أقسم بمواقع النجوم**».

إنّ القَسَم بالعصر في سورة العصر، يأتي في سياق القَسَم العام العظيم بمواقع النجوم في التكوين والتشريع، ولهذا نجد أنّ القَسَم اختلفت سياقاته في التعبير القرآني، بين أن يكون في خلقه التكويني، أو في خلقه التشريعي، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، إلى غير ذلك مما لا يمكن فهمه إلاّ في سياقه، فإذا قلنا: إنّه من غير الممكن أن يأتي السياق للآيات بأقلّ مما يعنيه القَسَم في السورة، فهذا لا يكون بخلاف الظاهر في غير دليل، لأنّ الروايات ربطت بين عصر الظهور، والولاية والصبر عليها، بل بين الصفوة من خلق الله تعالى، وبين القَسَم باعتباره قَسَماً عظيماً بالعصر القرآني والإسلامي، وإذا لم يكن هذا مقبولاً منّا، فلماذا يريدون لنا أن نقبل بما يذهبون إليه من تأويل للعصر بأنّه الصلاة، أو الزمن، أو غير ذلك مما يُتكلّف شديداً في الذهاب إليه؟ رغم أنّ الرواية ظاهرة الدلالة، مفهوماً ومنطوقاً، بأنّ العصر هو عصر الإمامة والولاية، والصفوة من أهل الله تعالى، فإذا لم نقل بذلك، فإنّه لا يبقي للروايات ثمّة ظهور، ولا نكون منها على خير أو شرّ، لا في الحاضر ولا في المستقبل، وهذا مخالف تماماً

لما روي عن الإمام الباقر عليه السلام في أنّ الآية لها حياة في تأويل القرآن. كما لها حياة في تنزيله، وهذا أمر من الأهميّة والوضوح بمكان.

يبقى أن نقول: إنّ سياق سورة العصر يفيد أنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، مع علمنا بأنّ الخسر في الآية هو أعمّ من أن يكون في جميع الجهات، كما في حالة الكفار والمعاندين، أو من بعض الجهات كما في المنافقين، أو العصاة الذين لا يخلدون في النار، وليس من عبث أبداً أن يقابل المعصوم في الرواية بين عصر خروج القائم، وبين أعدائه الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، وهذا ما رأينا أنه يخدم رؤيتنا فيما نذهب إليه من أن العصر في السورة يتلاءم تماماً مع سياق الآيات فيما أفادته من إيمان وعمل صالح وتواصي بالحق وتواصي بالصبر، هذا فضلاً عمّا استجمعه الاستثناء من معنى لهؤلاء الذين وصفتهم الروايات المقدّسة بالصفوة من خلقه ممن آمنوا حقّ الإيمان، وألزموا كلمة التقوى، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وكانوا أحقّ بها، وأهلها، وهؤلاء هم مصداق الآية لحقيقة الاستثناء، فهل يُقال لنا بعد الذي تقدّم أنه توجيه بالرأي، أو تطبيق الرواية، أو جرى بخلاف الظاهر؟ أم أنّ ما نذهب إليه يتلاءم تماماً مع سياقات القَسَم الإلهي العظيم بأنّ القرآن هو كتاب كريم مكنون لا يمسّه إلاّ المطهّرون الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر.

وهل لأحد أن يعترض على فهمنا بأنّ القَسَم بمواقع النجوم، هو قَسَم بالقرآن أيضاً باعتباره أنزل نجوماً، فكان له هذا المعنى في خلق الله تعالى طالما أنّ لله تعالى أن يُقسم بما يشاء من خلقه، وقد أقسَمَ بالعصر ليظهر معنى التكامل بين هذا القَسَم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقد رأينا كيف أنّ الفيلسوف الطوسي قد فسّر الآيات بما يفيد حقيقة الكمال للصفوة في الإيمان والعمل معاً. وهذا ما نرى له وجهاً في سياق الرؤية العامة للقرآن، وفي ظهور الرواية والسياق الخاص لسورة العصر، التي تبيّن أن الخسران إلى آخر الدهر إنّما يكون لاعداء الله تعالى، وأنّ

الفوز العظيم، هو لأوليائه الذين هم المصداق الأبرز للاستثناء في سورة العصر.

كما أشرنا أيضاً إلى ما لحظه العلاّمة شبّر في تنكيره للخسر، وتفصيل في وجوه الربح، فأرشد إلى أنّ لهذا دلالته في السياق القرآني لكونه يُفيد بأنّ كل مَن لم يكن على صفات الإستثناء حقاً، وواقعاً، وعملاً، لا بدّ أن يكون خاسراً، هذا فيما لو كان التنكير في الخسر للتعظيم. أما إذا كان للتنويع، فإنّ دلالاته تكون أوسع وأعمق، كما بيّن العلامة الطباطبائي، في ما لحظه عن تجاوز الخسران في الدنيا وما يكون به إلى خسران الأهل والأنفس في الآخرة، الذي هو الأخسر لكونه خلوداً في جهنّم، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

ومن الله التوفيق وعليه التكلان

أنجز هذا الكتاب يوم ولادة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام وهو يوم المرأة المسلمة وولادة الإمام الخميني قدس سره وذلك بتاريخ ٢٠/جمادى الآخرة/ ١٤٣٥هـ.

الشيخ عارف هنديجاني فرد

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ نهج البلاغة.

٣ ـ إبراهيم عصمت مطاوع، أصول التربية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.

٤ ـ ابن البطريق، الاسدي الحلي، العمدة، تحقيق جامعة المدرسين، قم، ١٤٠٦هـ.

٥ ـ ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ١٤١٣هـ.

٦ ـ ابن حزم الاندلسي، الناسخ والمنسوخ في القرآن، تحقيق عبد الغفار البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ.

٧ ـ ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول ﷺ، جماعة المدرسين، قم، ١٤٠٤هـ.

٨ ـ ابن شهر آشوب، مازندراني، متشابه القرآن ومختلفه، انتشارات بيدار، قم، ١٤١٠هـ.

٩ ـ ابن منظور، محمد بن مكرم،لسان العرب، دار المعارف، القاهرة،(دون تاريخ).

١٠ ـ أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٩٧٤م.

١١ ـ أبو جعفر النحاس، معاني القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، جامعة ام القرى، ١٤٠٩م.

١٢ ـ أبو منصور الثعالبي، الاعجاز والايجاز، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٢م.

١٣ ـ الأشعري، أبو الحسن، علي بن اسماعيل، مقالات الإسلاميين، دار المعارف، ١٩٨٥م.

١٤ ـ باقر العلوم، مجموعة الامام الحسين عليه السلام دعاء عرفة، طهران، ١٤٢٥هـ.
١٥ ـ البيضاوي، عبد الرحمن بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار احياءالتراث، بيروت، ١٩٩٨م.
١٦ ـ جمال الدين القاسم، قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث، بيروت، دار الكتب العلمية، (دون تاريخ).
١٧ ـ جوادي آملي، الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام والقرآن، دار الصفوة، بيروت، ١٩٩٤م.
١٨ ـ الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل، مؤسسة الاعلمي، بيروت،(لا-ت).
١٩ ـ حسن المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن، طهران، ١٤١٠هـ.
٢٠ ـ الحلي، احمد بن فهد، عدة الداعي ونجاح الساعي، قم، (دون تاريخ).
٢١ ـ الحويزي، تفسير نور الثقلين، تحقيق هاشم المحلاتي، مؤسسة اسماعيليان، قم، ١٩١٢م.
٢٢ ـ الخوئي، حبيب الله الهاشمي، منهاج البلاغة في شرح نهج البلاغة، طهران، ١٣٦٠هـ.
٢٣ ـ الدامغاني، الحسين بن محمد،قاموس القرآن، دار العلم للملايين،بيروت، ١٩٨٥م.
٢٤ ـ داود بن سليمان الغازي، مسند الرضا عليه السلام تحقيق الجلالي، مكتب الاعلام الاسلامي، طهران، (دون تاريخ).
٢٥ ـ الديلمي، الحسن بن محمد، ارشاد القلوب، انتشارات الشريف الرضي، قم، ١٤١٥هـ.
٢٦ ـ الراغب الاصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، بيروت، (دون تاريخ).
٢٧ ـ الزمخشري، تفسير الكشاف، دار احياء التراث، بيروت، (دون تاريخ).
٢٨ ـ زيدان عبد الباقي، قواعد البحث الاجتماعي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٨٨٠م.

٢٩ ـ زين الدين بن محمد،المعروف بالشهيد الثاني، مسكن الفؤاد. مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مطبعة قم،١٤١٧هـ.
٣٠ ـ السبزواري، الملا هادي، شرح الأسماء، مؤسسة انتشارات، ١٣٧٥هـ.
٣١ ـ السيوطي، الحافظ جلال الدين، الاتقان في علوم القرآن، القاهرة، ١٩٤١م.
٣٢ ـ شبر عبدالله، تفسير القرآن، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ٢٠٠٩م.
٣٣ ـ شبر عبدالله، حق اليقين في معرفة أحوال الدين، مطبعة العرفان، صيدا، بيروت،١٣٥٢هـ.
٣٤ ـ الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٦م.
٣٥ ـ الشريف الرضي، حقائق التأويل. مكتب الاعلام الاسلامي، طهران، ١٤١٨هـ.
٣٦ ـ الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، مطبعة عالم الكتب، (دون تاريخ).
٣٧ ـ الشيرازي، مكارم، تفسير الأمثل، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ٢٠٠٧م.
٣٨ ـ الشيرازي، مكارم، سؤال وجواب، ملخصات من تفسير الأمثل، دار الكتب الاسلامية، بيروت، ١٤٢٩م.
٣٩ ـ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن،دار العلم للملايين، ١٩٥٩م.
٤٠ ـ الصدوق، محمد بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٩٩١م.
٤١ ـ الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩١م.
٤٢ ـ الطبرسي، جوامع الجامع، تحقيق مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ١٤٢٠هـ.
٤٣ ـ الطبرسي، محمد بن جرير، المسترشد، تحقيق المحمودي، قم، ١٤١٥هـ.
٤٤ ـ الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

٤٥ ـ الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، الناشر دار مرتضوي، طهران، ١٤١٧هـ.
٤٦ ـ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق العاملي، مكتب الاعلام الاسلامي، طهران،١٤٠٩هـ.
٤٧ ـ عبد الرحمن العيسوي، مناهج البحث العلمي، دار الراتب الجامعية، ١٩٣٧م.
٤٨ ـ عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث الاسلامي،الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٧م.
٤٩ ـ عبد السلام هارون، سيرة ابن هشام، دار الرسالة، دمشق، (دون تاريخ).
٥٠ ـ عبد الهادي الفضلي، أصول البحث، الجامعة العالمية للعلوم الاسلامية، دار المؤرخ العربي، ١٩٩٢م.
٥١ ـ الغزالي، أبو حامد، منهاج العابدين الى جنة رب العالمين،دار البشائر الإسلامية، بيروت،١٩٩٧م.
٥٢ ـ الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.
٥٣ ـ القاضي النعمان المغربي، شرح الاخبار، تحقيق الجلالي، قم، (دون تاريخ).
٥٤ ـ القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أبو اسحاق ابراهيم، دار احياء التراث، بيروت، ١٩٨٥م.
٥٥ ـ الكاشاني،الفيض، تفسير الصافي. مؤسسة ال البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مطبعة قم، ١٤١٧هـ.
٥٦ ـ الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، درا الحديث، قم، ١٤٢٩هـ.
٥٧ ـ كمال الحيدري، الاعجاز، دار فراقد، إيران، ١٤٢٦هـ.
٥٨ ـ المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، طهران، (دون تاريخ).
٥٩ ـ محمد باقر الصدر، الاسلام يقود الحياة، دار التعارف، بيروت، ١٩٩٠م.
٦٠ ـ محمد باقر الصدر، التفسير الموضوعي، الدار العالمية، بيروت، ١٩٨٩م.

٦١ ـ محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، الدار العالمية، بيروت، ١٩٨٩م.
٦٢ ـ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م.
٦٣ ـ محمد بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن،
٦٤ ـ محمد بن الحسن الطوسي، تهذيب الاحكام، تحقيق حسن الخرسان، دار الكتب الاسلامية، بغداد، ١٣٥٦هـ.
٦٥ ـ محمد تقي المصباح، اليزدي، معارف القرآن، تعريب الخاقاني، الدار الاسلامية، بيروت، ١٩٨٩م.
٦٦ ـ محمد تقي مصباح اليزدي، العقيدة الاسلامية،دار الحق، بيروت، ١٩٩٤م.
٦٧ ـ محمد تقي مصباح اليزدي، السير الى الله تعالى، ترجمة الخاقاني، دار الولاء، بيروت، ٢٠٠٨م.
٦٨ ـ محمد جلال شرف، ومحمد محمد قاسم، قراءات في فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، (دون تاريخ).
٦٩ ـ محمد جواد مغنية، تفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.
٧٠ ـ محمد جواد مغنية، مذاهب فلسفية، دار اليتار الجديد، بيروت، ١٩٨٤م.
٧١ ـ محمد جواد مغنية،علم أصول الفقه في ثوبه الجديد، دار التيار الجديد، بيروت، ١٩٨٨م.
٧٢ ـ محمد رضا المظفر، أصول الفقه، مؤسسة الاعلمي، بيروت ١٩٩٠م.
٧٣ ـ محمد ري شهري، ميزان الحكمة، تحقيق دار الحديث، طهران، (دون تاريخ).
٧٤ ـ محمد معرفة، تلخيص التمهيد، دارالميزان، بيروت، ١٩٩١م.
٧٥ ـ محمد مهدي الآصفي، في رحاب الامام الحسين عليه السلام، المجمع العلمي لأهل البيت عليهم السلام، ١٤٢٣هـ.
٧٦ ـ محمد يوسف موسى، الاسلام والحياة، دار العصر الحديث، بيروت، ١٩٩١م.
٧٧ ـ مرتضى مطهري،احياء الفكر في الاسلام. دار التيار الجديد، بيروت، ١٩٨٦م.

٧٨ ـ مطهري، مرتضى، المفهوم التوحيدي للعالم، دار التيار الجديد، بيروت، ١٩٨٥م.

٧٩ ـ مطهري، مرتضى، المفهوم التوحيدي للعالم، دار التيار الجديد،بيروت، ١٩٨٥م.

٨٠ ـ المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، كاظم محمدي ومحمود دشتي، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٦م.

٨١ـ المعجم الوسيط، إنتشارات ناصر خسرو، طهران، اخراج مجموعة باحثين،دون تاريخ.

٨٢ـ المفيد، محمد بن النعمان، أجوبة المسائل الحاجبية، مجمع البحوث الاسلامية، بيروت، ١٩٩٢م.

٨٣ ـ المفيد، محمد بن النعمان، الافصاح في امامة امير المؤمنين، تحقيق مرسسة البعثة، قم، ١٤١٠هـ.

٨٤ ـ المفيد، محمد بن النعمان، أوائل المقالات، دار الكتاب الاسلامي، بيروت، ١٩٨٣م.

٨٥ ـ المفيد، محمد بن نعمان، الارشاد، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٩م.

٨٦ ـ نصير الدين الطوسي، كتاب تلخيص المحصّل، دار الاضواء،بيروت، ١٩٨٥م.

٨٧ ـ هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، دار الهادي، بيروت، ١٩٩٢م.

الفهرس

الإهداء ٥

تمهيد البحث ٧

مسوّغات البحث ١٣

إشكالية البحث ١٥

منهج البحث ٢٠

الفصل الأول: الفوز العظيم في القرآن الكريم ٢٥

تمهيد الفصل ٢٧

وهنا أمور ثلاثة ٣٠

أولاً: الفوز في اللغة ٣٠

ثانياً: الفوز في الاصطلاح ٣٣

ثالثاً: الفوز العظيم: المفهوم والدلالة ٣٦

الفصل الثاني: أنواع الفوز وأوصافه في القرآن الكريم ٤٣

تمهيد الفصل ٤٥

المبحث الأول: حقائق الفوز وقواعد المنهج ٤٩

المبحث الثاني: الفوز في الدنيا: وهم أم حقيقة ٥٩

المبحث الثالث: الفوز في الآخرة وسبيل الهدى ٧١

الفصل الثالث: الفوز والرضا والفضل الكبير ٨٣

تمهيد الفصل ٨٥

المبحث الأول: الرضوان وسبل السلام ٩١

أ ـ الإيمان والرضوان ٩٤

ب ـ الرضوان ونعيم الجنّة ١٠٢

المبحث الثاني: الفضل والرضوان وثواب الأعمال ١١٥

أ ـ الفضل والثواب في الدنيا ١٢٠
ب ـ الفضل والثواب في الآخرة ١٢٩

الفصل الرابع: الخسران المبين في القرآن الكريم ١٤٥
تمهيد الفصل ١٤٧
المبحث الأول: الخسران المبين: المفهوم والدلالة ١٥٣
أ ـ الخسر والخسران في اللغة والاصطلاح ١٥٣
ب ـ الخسر والخسران، المفهوم والدلالة ١٦٠
المبحث الثاني: الأخسرون أعمالاً والخسران المبين ١٦٧
أ ـ الأخسرون أعمالاً في القرآن الكريم ١٧٠
ب ـ الخسران المبين في القرآن الكريم ١٨٠
خاتمة البحث: الفوز والخسر في سورة العصر ١٩٥
المصادر والمراجع ٢١١